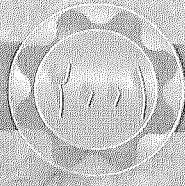


مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع

# الأحساس بالجمال

تخطيط النظرية في علم الجمال



أهيات الكتب



الهيئة المصرية  
العامة للكتاب

جورج سانتيانا

ترجمة: د. محمد مصطفى بدوي

مراجعة وتقديم: د. زكي نجيب محمود



الإحساس بالجمال

## الإحساس بالجمال

### لوحة الغلاف

اسم العمل الفني : دورا

التقنية : ألوان زيتية على توال

واللوحة مجرد قطاع (تفصيل)

بابلو بيكاسو (١٨٨١ - ١٩٧٣)

فنان عملاق رسم على كل الوسائط ويشتى أنواع الخامات، نحت الحجر، رسم على الخيش والجبس والقماش، وفوق أطباق الطعام، ولون الأقنعة الأفريقية، وقد ترك إنتاجاً فنياً في كل متاحف الدنيا، لقد تفتحت موهبته في برشلونة ١٨٩٥ في استديو أبيه، وافتتح معرضه الأول ١٩٠٠، ثم زار المعرض العالمي في باريس وأقام معرضاً جديداً بها، واستقر منذ ١٩٠٤ في باريس مع صديق عمره ماكس جاكوب، وتعلم من سيزان الوجود الهندسى للأشياء، وله العديد من المراحل الفنية: المرحلة الزرقاء، والمرحلة الوردية، وكان مبهوراً بلذة الاكتشاف، معتمداً على حرية التعبير كلغة سائدة في جميع أعماله الفنية، فتحدى المؤلف وعمد إلى التغيير المستمر.

محمود الهندى

# الإحساس بالجمال

چورچ سانتيانا

ترجمة : د. محمد مصطفى بدوي

مراجعة

وتقديم : د. زكي نجيب محمود

تحرير : د. محمد عناني



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١  
مكتبة الأسرة  
برعاية السيدة سوزان مبارك  
(أمهات الكتب)

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية  
وزارة الثقافة  
وزارة الإعلام  
وزارة التربية والتعليم  
وزارة الإدارة المحلية  
وزارة الشباب  
التنفيذ: هيئة الكتاب

الإحساس بالجمال

جورج سانتيانا  
ترجمة: د.د. محمد مصطفى بدوي  
مراجعة وتقديم: د. زكي نجيب محمود  
الغلاف  
والإشراف الفني:  
الفنان: محمود الهندي  
المشرف العام:  
د. سمير سرحان

---

## على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تمويل جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليصبح نهمة للمعرفة دون عناء مادي وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تترجم فى صدارة البيت المصرى بئراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء) . وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء) .. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات .

د. سمير سرخان

---





صفحة	محتويات الكتاب
١٣	المشركون في هذا الكتاب
١٧	تصدير - مذهب سانتينانا فى الجمال - بقلم الدكتور زكى نجيب محمود
٣٥	تمهيد
٣٧	مقدمة - مناهج الاستيقا
٥١	الجزء الأول - طبيعة الجمال
٥١	١ - فلسفة الجمال هى نظرية فى القيم
٥٦	٢ - التفضيل موضوع لا عقلى فى نهاية الأمر
٦٢	٣ - الفرق بين القيم الخلقية والقيم الجمالية
٦٤	٤ - العمل واللعب
٦٧	٥ - جميع القيم قيم جمالية بمعنى من المعانى
٧٠	٦ - اكتساب المبادئ العامة صفة الجمال
٧٥	٧ - تباين اللذة الجمالية واللذة المادية
٧٧	٨ - ليس فصل اللذة الجمالية هو خلوها من المصلحة أو من الذاتية

- ٨١ - ٩ - ليس فصل اللذة الجمالية هو شمولها أو كليتها
- ٨٦ - ١٠ - فصل اللذة الجمالية هو تحويلها الذات إلى موضوع
- ٩٢ - ١١ - تعريف الجمال
- ٩٧ - الجزء الثاني - مادة الجمال
- ٩٧ - ١٢ - جميع الوظائف الإنسانية قد تخدم الإحساس بالجمال
- ١٠١ - ١٣ - تأثير عاطفة الحب
- ١٠٨ - ١٤ - الغرائز الاجتماعية وأثرها الجمالي
- ١١١ - ١٥ - الخواص الدنيا
- ١١٦ - ١٦ - الصوت
- ١٢٠ - ١٧ - اللون
- ١٢٤ - ١٨ - عرض لمواد الجمال
- ١٣١ - الجزء الثالث - الشكل
- ١٣١ - ١٩ - من أنواع الجمال جمال الشكل
- ١٣٥ - ٢٠ - فسيولوجية ادراك الشكل
- ١٣٩ - ٢١ - قيم الأشكال الهندسية

- ١٤٢ - ٢٢ - السيمترية
- ١٤٧ - ٢٣ - الشكل هو ايجاد الوحدة من الكثرة
- ١٥٠ - ٢٤ - الكثرة فى التجانس
- ١٥٣ - ٢٥ - مثل النجوم
- ١٦٠ - ٢٦ - عيوب الكثرة الخالصة
- ١٦٤ - ٢٧ - العناصر الجمالية فى الديمقراطية
- ١٦٨ - ٢٨ - قيم الأنماط وقيم الأمثلة
- ١٧٢ - ٢٩ - مصدر الأنماط ( المثل )
- ١٧٩ - ٣٠ - تعديل المتوسط سعياً وراء اللذة
- ١٨٤ - ٣١ - هل جميع الأشياء جميلة ؟
- ١٩٠ - ٣٢ - تأثير النظام غير المحدد
- ١٩٢ - ٣٣ - مثال من المناظر الطبيعية
- ١٩٨ - ٣٤ - امتداد ذلك إلى موضوعات لا تعتبر عادة جمالية
- ٢٠٤ - ٣٥ - ما فى عدم التحديد من أخطار أخرى
- ٢٠٨ - ٣٦ - وهم الكمال اللامتناهى
- ٢١٥ - ٣٧ - الطبيعة المنظمة مصدر الأشكال الإدراكية مثل من فن

النحت

٢١٩	٣٨- المنفعة مبدأ التنظيم فى الطبيعة
٢٢١	٣٩- علاقة المنفعة بالجمال
٢٢٥	٤٠- المنفعة مبدأ التنظيم فى الفنون
٢٢٨	٤١- الشكل والزخرف العرضى
٢٣٤	٤٢- الشكل فى الألفاظ
٢٣٨	٤٣- الشكل فى التراكيب اللفظية
٢٤٢	٤٤- الشكل الأدبى - العقدة
٢٤٤	٤٥- الشخصية باعتبارها شكلاً جمالياً
٢٤٩	٤٦- الشخصيات المثالية
٢٥٥	٤٧- الخيال الدينى
٢٦٣	الجزء الرابع - التعبير
٢٦٣	٤٨- تعريف التعبير
٢٧٠	٤٩- عملية الترابط
٢٧٤	٥٠- أنواع القيمة فى الحد الثانى
٢٧٨	٥١- القيمة الجمالية فى الحد الثانى
٢٨٢	٥٢- القيمة العملية فى الحد الثانى

- ٢٨٥ -٥٣- الثمن من حيث هو عامل من عوامل التأثير
- ٢٨٨ -٥٤- التعبير عن الاقتصاد والصلاحية
- ٢٩٣ -٥٥- سلطان الأخلاق على الجمال
- ٢٩٧ -٥٦- القيم السلبية فى الحد الثانى
- ٣٠٢ -٥٧- تأثير الحد الأول فى التعبير اللذيد عن الشر
- ٣٠٥ -٥٨- مزج ضرور التعبير الأخرى بما فى ذلك التعبير عن  
الحقيقة
- ٣١٢ -٥٩- تحرر الذات
- ٣١٨ -٦٠- الجلال أمر مستقل عن التعبير عن الشر
- ٣٢٥ -٦١- الكوميدي
- ٣٣١ -٦٢- الفطنة
- ٣٣٥ -٦٣- الفكاهة
- ٣٣٨ -٦٤- المسخ
- ٣٤١ -٦٥- امكان الكمال المتناهى
- ٣٤٦ -٦٦- ثبات المثل الأعلى
- ٣٥٠ -٦٧- الخاتمة
- ٣٥٣ -٦٨- دليل



## المشتهرون في هذا الكتاب

### المؤلف:

جورج سانتيانا : ولد سنة ١٨٦٣ بمدينة مدريد ، لوالدين اسبانيين هاجرا إلى بوسطن بولاية ماساشوستس وهو لا يزال طفلا . تلقى دراسته في جامعة هارفارد ، وبعد حصوله على درجة الدكتوراه ظل بها يعمل في تدريس الفلسفة حتى سنة ١٩١٢ ، حين آلت إليه تركة ضخمة رأى معها أنه ليس بحاجة إلى عمله في التدريس .

ومنذ ذلك الوقت وإلى أن وافته المنية سنة ١٩٥٢ ، قام برحلات عديدة ، وألقى محاضرات في كثير من الجامعات والكليات في جميع أنحاء العالم ، ولم ينقطع عن كتاباته الفلسفية . وعندما حضرته الوفاة ، كان يقيم في أحد أديرة روما حيث ظل يعيش عيشة الترهيب منذ الحرب العالمية الثانية .

وقد نشر كتاب « الإحساس بالجمال » في سنة ١٨٩٦ ، وهو يحتوي على الآراء التي جمعها من سلسلة محاضرات ألقاها في تاريخ الجمال بجامعة هارفارد بين سنة ١٨٩٢ و ١٨٩٥ . وقد وصف أحد النقاد هذا الكتاب بقوله « إن سانتيانا أثبت أنه ليس ألمع الكتاب في الفلسفة فحسب ، بل إنه أكبر فيلسوف في إحساسه بفلسفة الجمال منذ عصر أفلاطون » .

## المترجم:

الدكتور محمد مصطفى بدوى : مدرس الآداب الإنجليزية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية . حصل على ليسانس الآداب الممتازة في الآداب الإنجليزية من جامعة الإسكندرية سنة ١٩٤٦ ، وحصل على ليسانس الشرف في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة لندن سنة ١٩٥٠ ، كما حصل على درجة الدكتوراه في اللغة الإنجليزية وآدابها من نفس الجامعة . له مؤلفات عدة باللغتين الإنجليزية والعربية . منها باللغة الإنجليزية « نقد كولردج لشكسبير » . وباللغة العربية كتاب « كولردج » في سلسلة نوابغ الفكر العربى .

كما ترجم كثيراً من الكتب ، منها كتاب « الحياة والشاعر » لستيفن سيندر .

## المراجع والمصدر:

الدكتور زكى نجيب محمود : أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة . حاصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن . مؤلف لعدد كبير من الكتب في الفلسفة وفى النقد الأدبى . من أهم مؤلفاته فى الفلسفة « المنطق الوضعى » و « خرافة الميتافيزيقا » و « نحو فلسفة علمية » و « حياة الفكر فى العالم الجديد » الذى أصدرته هذه المؤسسة .



ومن مؤلفاته فى تاريخ الأدب ونقده « فنون الأدب » و « قصة الأدب فى العالم » . كما قام بترجمة كتاب « المطلق » من تأليف جون ديوى ، وهو الكتاب الذى تصدره المؤسسة .

### مصمم الغلاف :

المهندس رفيق البابلى : حاصل على بكالوريوس الهندسة ( قسم العمارة ) سنة ١٩٥٤ . يعمل مهندساً بشركة التعمير والمساكن الشعبية . منتدب للتدريس بقسم العمارة بجامعة القاهرة وعين شمس . حصل على جائزة مؤسسة فرانكلين عن تصميم غلاف « كيف تتكامل الشخصية » ، كما صمم كثيراً من أغلفة الكتب التى أصدرتها المؤسسة .



## تصدير

### مذهب سانتيانا فى الجمال وموضعه من فلسفته العامة

بقلم

الدكتور زكى نجيب محمود

١

كان جورج سانتيانا (١٨٦٣-١٩٥٣) شاعراً ، وأديباً ناثراً ،  
وفيلسوفاً ، ولد فى اسبانيا ونشأ وتربى فى الولايات المتحدة الأمريكية ،  
وظفر بأستاذية الفلسفة من جامعة هارفارد ، وهو فى الفلسفة المعاصرة إمام  
لأحد مذاهبها ، وهو المذهب الذى يطلقون عليه اسم «الفلسفة الطبيعية» .

ومدار هذا المذهب أن الطبيعة تفسر نفسها بنفسها ، فهى الحقيقة  
كلها ، ليس وراءها شىء وليس فوقها شىء ، فكل شىء فى جوف  
الطبيعة ذاتها ، فإن كان الإنسان جسماً من ناحية وعقلاً من ناحية

أخرى ، فكلتا الناحيتين من مقومات الطبيعة على حد سواء ، وبهذه النظرة نتخلص من التفكير الثنائي الذي كان يشطر الكون شطرين : مادة وروحاً ، كما يشطر الإنسان شطرين : جسماً وعقلاً ، فسمُّ ما شئت بما شئت من أسماء ، لكنك لن تجاوز بأسمائك ومسمياتك مجال خبيرتك ؛ والخبرة مهما اتسع مجالها هي جزء من الطبيعة لا تجاوز حدودها ، فخبيرتك بكل ما فيها قد نضحتها من إناء الطبيعة ، وليس بك حاجة إلى البحث عما وراءها لتفسر به ما يجري فيها .

على أن الطبيعة لم تبدّ بكل ما فيها من إمكانات ، ذلك أن ما قد تحول من تلك الإمكانات إلى عالم الواقع الفعلي جزء يسير بالقياس إلى ما لا نهاية له من الحقائق الموجودة بالإمكان لا بالفعل ؛ فليس هنالك ما يحتم أن تكون الكائنات الموجودة فعلاً هي وحدها الموجودة ، وأن يكون تكوينها على النحو الذي تكونت به هو الطريقة التي لا طريقة سواها لظهور تلك الكائنات ، بل كان « يمكن » أن تكون الأشياء على غير ما هي عليه الآن ، بأن تبدى من العالم الفعلي مجموعة أخرى من الحقائق الممكنة بدل هذه المجموعة التي خرجت بالفعل ، فهذا العالم الذي تبصره العيون وتحسه الأيدي ، ليس هو العالم الوحيد الذي يمكن تصوّره ، بل في استطاعتنا أن نتصور كائنات أخرى تجمي على ترتيب آخر ، وتطرّد حوادثها على نحو آخر .

لكن على أى أساس بسرر إلى الوجود الفعلى هذا العالم الراهن من مجموعة العوالم الممكنة التى لا نهاية لعددها ؟

ليس هذا بالسؤال الحديث الجديد ، بل هو سؤال القاه على نفسه « لبيتنز » فى القرن السابع عشر ، وأجاب عنه بقوله إن الله قد اختار هذا العالم الفعلى من بين الممكنات ، لأنه « أفضل » عالم ممكن ، أى أنه - على حد قوله - « لم يكن فى الإمكان أبدع مما كان » ، ولذلك وقع اختيار الله على هذا الذى « كان » ، أى أن مبدأ الاختيار هو مبدأ « خلقى » من قبل الخالق الذى خلق واختار .

ثم هو سؤال القاه كذلك الفيلسوف الحديث « وايتهد » وأجاب عنه بقوله إن مبدأ اختيار ما هو فعلى من بين سائر الممكنات هو مبدأ «عقلى» أى أن هذا العالم الواقع هو أقرب عالم إلى منطق الفكر .

وأما « سانتيانا » فيجيب عن السؤال نفسه بجواب آخر ، إذ جعل مبدأ اختيار العالم الفعلى الواقع من بين العوالم الكثيرة الممكنة ، لا هو بالمبدأ « الخلقى » - كما ظن « لبيتنز » - ولا هو بالمبدأ « العقلى » - كما ذهب « وايتهد » - بل هو مبدأ طبيعى صرف ؛ فالطبيعة مادة تسير إلى غير غاية فلا هى تستهدف تحقيق مبدأ خلقى ، ولا هى تنحو نحو هدف يقره منطق العقل ويقتضيه ، وهذه الطبيعة المادية هى نفسها الأساس الذى عنه صدرت الحياة وصدر الوعى ، بل عنه صدر العقل نفسه الذى

يدرك تلك الأفكار الممكنة التحقيق ، ثم يدرك ماذا قد تحول منها إلى العالم الفعلى وماذا ظل فى عالم الإمكان ، لم يتحقق بالفعل .

وما الكائنات الحية إلا مَثَلٌ من أمثلة التكوينات المادية التى تحدث فى الطبيعة ، فكأنما الخصائص العضوية كائنة فى الطبيعة ذاتها ، مستعدة للظهور الفعلى إذا ما تجمعت أجزاء المادة الطبيعية على النحو الذى يمكنها من الظهور ، فماذا يميز الكائن الحى من خصائص لا تكون فى المادة الجامدة ؟ يميزه أنه قادر على الاحتفاظ بوجوده عن طريق التغذية بوجودات أخرى ، كما أنه قادر على تكرار نمطه بالتناسل ؛ وكذلك يميز الكائن الحى أنه مستطيع أن يصلح بنفسه ما فسد من كيانه ، ولا كذلك المادة الجامدة ، فلا هى تقتات على غيرها ليدوم بقاؤها ، ولا هى تكرر نمطها بالتناسل ، ولا هى قادرة على أن تصلح بنفسها ما قد يفسد من نظام تكوينها وتركيبها ؛ وهاته القدرات فى الكائن الحى هى ما نطلق عليه اسم « النفس » ؛ فالنفس هى مجموعة وظائف الأعضاء والحوافز والدوافع التى تجتمع فى الكائن العضوى ، والتى بفضلها ينشط ذلك الكائن ، ويمارس ما يمارسه من صلوات مختلفات بمحيطه الطبيعى الذى يتحرك فيه .

غير أن الأحياء على اختلاف ضرورها ، وإن اتفقت فى « النفس » أى فى قدراتها على الاحتفاظ بحياتها وعلى تكرار نمطها وعلى إصلاح نفسها بنفسها ، إلا أن منها ما يتميز على بقيتها « بالوعى » الذى يدرك

به أنه كائن حى ، ذو خصائص معينة ، وألوان من النشاط معلومة ،  
 فالشجرة - مثلاً - تتغذى كما يتغذى الإنسان ، وتكرر نمطها كما  
 يكرر الإنسان نمطه ، وتصلح عطاها كما يصلح عطبه ، إلا أنها لا تكون  
 « واعية » أو مدركة كما يكون الإنسان واعياً ومدركاً - لما هى قائمة به  
 من وظائف ؛ هذا الوعى فى الإنسان هو ما يسميه سانتيانا « بالروح » أو  
 « بالعقل » ؛ وإذن فليس الروح أو العقل شيئاً قائماً بذاته ، بل هو  
 ظاهرة من ظاهرات الجسم الحى نفسه ، يتصف بها حين يتصل بحيظه  
 ويظروفه على نمط سلوكى معين .

يتبين مما أسلفناه حتى الآن أن هنالك عالمين : عالم الممكنات ،  
 وعالم الوجود المادى الفعلى كما هو قائم ؛ على ألا ننسى أن هذا العالم  
 الفعلى إن هو إلا جزء من عالم الممكنات قد انتقل إلى التحقق بالفعل ؛  
 فنشأ بهذا الانتقال ما نسميه بالعالم « الحقيقى » أو بالعالم « الحق » ؛  
 فإذا فرضنا أن جزءاً آخر من عالم الممكنات هو الذى كان قد انتقل إلى  
 الوجود الفعلى ، لكان « الحق » قد أصبح شيئاً يختلف عما هو عليه  
 اليوم ، وإذن « فالحق » نسبى بهذا المعنى ، أعنى أنه لم يكن هناك  
 ضرورة عقلية تقتضى أن يخرج من عالم الممكنات هذا الجزء الذى خرج  
 فعلاً ، دون سائر أجزاء الممكنات التى لم تخرج وظلت على حالها عالماً  
 ممكنًا .

قافرض أن واحداً من الناس لم يعجبه هذا العالم الواقع - كما هو واقع - وصور له خياله صورة أخرى كان يتمنى لو أن العالم قد جاء على غرارها ، فمن أين تجيئه العناصر التي يبنى منها صورته الخيالية تلك ؟ إنه لا شك يستمدّها من دنيا الممكنات التي لم تجد سبيلاً إلى عالم التحقيق ؛ ويطلق سانتيانا على الممكنات التي لم تتحقق فعلاً ، والتي منها يختار المتخيل خياله عندما يتمنى لنفسه عالماً غير العالم الواقع ، يطلق سانتيانا على تلك الممكنات اسم « عالم الروح » ؛ وفي هذا العالم الروحاني يحيا رجل الدين حين يتصور عالماً أمثل وأكمل من عالمه الواقع ، وكذلك يحيا رجل الفن حين يبدع صوراً تفتن نفسه دون أن يستمدّها من هذا العالم الواقع ، كما يحيا معهما رجل الأخلاق حين يتصور خيراً أسمى وأعظم مما يعرفه عالمنا الواقع من خيرات وطيبات .

فالقيم الثلاث : الحق والخير والجمال ، إنما تختص كل قيمة منها بعالم معين ، ومن الخلط أن نصف عالماً بقيمة عالم سواه ؛ أما قيمة « الحق » فتختص بعالم الواقع الفعلى ، فلا نصف الشيء بأنه « حقيقى » إلا إذا كان واقعاً طبيعياً مما تراه العين فعلاً أو تمسه الأيدى ، وما كذلك قيمتا الخير والجمال ، فهاتان قيمتان تختصان بما أسميناه عالم «الروح» ، وهو عالم الممكنات التي لم تظهر فى الطبيعة الواقعة ظهوراً فعلياً ، إذ الخير والجمال كلاهما تصوران يتصورهما الإنسان بخياله ليرسم بهما مثلاً أعلى يستريح له فى أحلامه ماداما لا يتحققان فى دنيا الواقع ؛ إن الإنسان



ليطمئن من حيث الخير والجمال إذا هو جعل منهما موضوع تأمل نظرى ، لكنه لا يطمئن من حيث الحق إلا إذا وجد الحق متمثلاً فى الواقع الفعلى المائل لحواسه ؛ وهكذا ترى أن ما يكفى فى حالة الخير والجمال لا يكفى فى حالة الحق ، والعكس صحيح أيضاً ؛ فليس من الصواب - إذن - أن نتطلب من الخير والجمال أن يتمثلا فى الواقع الطبيعى كأننا هما مع قيمة الحق من طراز واحد ؛ إن الخير والجمال إذا ما تحولوا إلى واقع أصبحا حقاً بعد أن كانا خيراً وجمالاً .

وكما أن الخير والجمال من ناحية يختلفان عن الحق من ناحية أخرى ، فكذلك يعود الخير والجمال فيختلف أحدهما عن الآخر ، ولهذا كان من الخلط وسوء الفهم أن نتطلب من « الجميل » أن يكون كذلك « خيراً » أو أن نتطلب من « الخير » أن يكون كذلك « جميلاً » ؛ وما أكثر ما نرى الفنان - وهو الذى يصور الجمال - على خلاف شديد مع الأخلاقى ، فترى هذا ينقد ذاك بأن فنه لا يودى إلى فضيلة ، فيرد الفنان - وهو على حق - بأنه لا شأن له فى فنه بالفضيلة ؛ وكذلك قل فيما ينشب من خلاف بين « الحق » الذى تنشده العلوم ، وبين « الفضيلة » التى يريدتها الأخلاقيون ، فترى هؤلاء يهتمون العلم فى بعض نتائجه بأنه هادم للأخلاق . لكن العالم قد يجيب - وهو على حق - بأنه لا شأن له فى بحثه العلمى بالفضيلة ، وهكذا ترى كيف تفترق هذه القيم الثلاث ، ويجب أن تفترق ، لأنها مختلفة الأصول .

## ٢

يحاول سانتيانا فى كتابه هذا الذى نقدمه إلى القراء ، أن يحدد معنى الجمال تحديداً حاسماً بحيث يفرق تفرقة واضحة بينه وبين القيمتين الأخرين قيمة الحق وقيمة الخير ، وعنده أن التحديد لا يكون كاملاً إلا إذا بين لنا على وجه الدقة لماذا ومتى وكيف يبدو الجميل جميلاً ؟ وماذا فى طبيعتنا نحن ما يجعلنا على استعداد للإحساس بالجمال ؟ ثم ماذا عسى أن تكون العلاقة بين الجميل من ناحية ، وإحساسنا بجماله من ناحية أخرى ؟

إن من الفلاسفة من يضيق مجال الفلسفة الجمالية تضييقاً يقصرها على « النقد الفنى » ، لكن النقد الفنى لا ينصب إلا على نتاج رجال الفنون ، فقد نققد صورة أو تمثالاً أو قصيدة من الشعر ، لكننا لا نوجه النقد الفنى إلى الكيانات الطبيعية ، فلا يجوز مثلاً - أن نققد المنظر الطبيعي بنفس المعنى الذى نققد به صورة أو تمثالاً ؛ وإذن ففلسفة الجمال أوسع من النقد الفنى ، لأنها تشمل آيات الجمال بأسرها ، سواء فى ذلك ما صنعه يد الفنان وما جبلت عليه الطبيعة الخارجية ، أضف إلى ذلك أن النقد الفنى قوامه قواعد يطبقها الناقد على الأثر الذى ينقده ، ومن قلب الأوضاع أن نفرض قواعدنا فرضاً على الطبيعة وما فيها من جمال ، والأصوب أن نستعرض آيات الجمال أولاً ، لنستخلص منها أى القواعد ينبغى تطبيقها بعدئذ على صناعة الفنون .

وكذلك من الفلاسفة ما يوسع مجال الفلسفة الجمالية أكثر مما ينبغي ، فيمطها بحيث تشمل كل إدراك حسي كائناً ما كان ، ومن ثم يطلقون عليها لفظة « استاطيقا » التي تعنى الإدراك الحسى ؛ وبديهى أنه ما كل إدراك حسى هو إدراك للجمال ، نعم إن كل إدراك للجمال هو إدراك حسى ، لكن من الإدراكات الحسية ما ليس جميلاً ، فما الخاصة التى ينبغى أن تضاف إلى الإدراك الحسى لكى يكون فى الوقت نفسه إدراكاً للجمال ؟ يجيب سانتيانا على هذا السؤال جواباً يجمع فيه بين الرأيين السابقين : رأى أولئك الذين يجعلون الفلسفة الجمالية نقداً فنياً ، ورأى هؤلاء الذين يجعلونها مجرد إدراك حسى ، أقول إن فيلسوفنا يجمع بين هذين الرأيين جمعاً يستخلص به الجانب المشترك بينهما فإذا هو يظفر من ذلك بنظريته فى الجمال ، إذ يقول إن طبيعة الجمال كائنة فى الإدراك الحسى الذى يصاحبه حكم نقدى ، وعنده أن الإدراك الحسى الممتزج بالحكم النقدى هو إدراك للقيم .

وها هنا يأخذ سانتيانا فى تحليل يميز به بين إدراك الأشياء إدراكاً عقلياً ليعرفها كما هى عليه فى الواقع ، وليستجيب لها استجابة نافعة تقيم لها الحياة وتحفظها من الخطر والسوء ، وبين إدراكها إدراكاً حسيّاً نقدياً يلتقط ما فيها من « قيم » ، والقيم نوعان : جمالية وأساسها النشوة ، وأخلاقية وأساسها التفضيل ، وكلا النوعين لا يستندان إلى العقل .

وبعبارة أخرى نقول إنك لكى تدرك شيئًا ما إدراكًا جماليًا ، يتحتم أن تضيف إلى حقيقته الواقعة « قيمة » لا تستمدتها من عالم الواقع ، بحيث يكون له فى نفسك نشوة ولذة ، ولا يكفى - بطبيعة الحال - أن تقول عن الشيء إنه جميل لأن الناس يقولون عنه إنه جميل ، بل لابد أن تحس النشوة عند إدراكه نشوة صادقة مخلصه لا زيف فيها ولا تزوير ؛ فلو انتشيت لشيء مثل هذه النشوة فإدراكك له عندئذ هو إدراك جمالي مهما اختلف عنك سائر الناس فى ذلك .

الحكم العقلى الذى نبنيه على الواقع ذاته لا يكون حكمًا جماليًا بحال من الأحوال ؛ فإذا أنت - مثلاً - تناولت أثرًا فنيًا واخذت تحمله إلى عناصره وتحدد تاريخ حدوثه وأهم خصائصه المميزة وهكذا ، كان عمك هذا إدراكًا « لحيقة » الشيء قائمًا على « العقل » ، لكنه ليس من الحكم « الجمالي » فى شيء ، لأن هذا الأخير لا يكون إلا بتذوقك تذوقًا مباشرًا للأثر المائل أمامك ، بحيث تحس له فى نفسك لذة ونشوة ، وأنت إذ تتذوقه على هذا النحو ، فإنما تتذوق « قيمة » أضفتها إليه من عندك ، ولم تقف عند حدود عناصره الواقعية كما هى قائمة ، ولهذا كان من الخلط الشديد أن نضع للفن قواعد ينبغى أن يسير عليها ويلتزمها ، كأن نقول - مثلاً - إن التصوير لابد إن يراعى قواعد المنظور ، وما إلى ذلك ، لأن القواعد وإن يكن من شأنها أن تيسر الحكم وتعممه بين الناس أجمعين ، إلا أنها شيء لا شأن له بما يتشئ له هذا الفرد من

الناس دون سائر الأفراد ، وفي مثل هذه النشوة الذاتية الفردية يكون الحكم الجمالى ؛ وعلى ذلك فلا غرابة إذا قلنا إن المعرفة العقلية تزداد على مر الزمن ، حتى لئراننا اليوم أكثر علماً بالطبيعة من أسلافنا ، أما الإدراك الجمالى فمن التناقض فى القول أن يقال عنه إنه يزداد ، إذ لا فرق فى الجوهر والأساس بين فرد من الناس يقف اليوم إزاء شىء ما فيحس له لذة فى نفسه ، وبين فرد من الأسلاف الغابرين وقف هذه الوقفة وأحس هذه اللذة ؛ كلاهما إدراك جمالى على حد سواء .

أحكام العقل إذن تختلف عن الأحكام الخلقية والجمالية معاً ؛ فالأولى مدارها « الوقائع » ، والثانية مدارها « القيم » التى يضيفها الإنسان إلى تلك الوقائع ، لكن الأحكام الخلقية تعود فتختلف عن الأحكام الجمالية - كما أسلفنا - ومواقع الاختلاف بينهما هى أن الحكم الخلقى لا بد فيه من إدراك للشئ لنتهى عنه فى الحكم الخلقى ، أى أنه لا بد فيه من إدراك للجانب السلبى الناقص ، على حين أن الحكم الجمالى قائم على خبيرة مباشرة بالحسن ، ولا يتحتم فيه أن ندرك ما هو قبيح لنتجنبه ، وكذلك مدار الحكم الخلقى فى معظم الأحيان هو ما ينجم عن الفضيلة من نتائج مستحبة ، وإذن فهو شىء غير مقصود لذاته ، بل يراد به غاية أخرى وراءه ، على حين أن الحكم الجمالى لا يستهدف غاية سوى المتعة المباشرة التى تنتشى بها نفس المشاهد ؛ ولهذا جاز لنا أن نقول عن « الأخلاق » وأحكامها أنها أقرب إلى طبيعة « العمل » الجاد ،

مادام تعريف هذا العمل هو أنه يؤدي دفعاً لضرورة وابتغاء لمنفعة ، وأما « الإدراك الجمالى » فأدخل فى باب « اللعب » ، لأنه كساللعب اطلاق لطاقة مختزنة لا تتطلبها ضرورات الحياة ومنافعها ، فتراها تنبثق انبثاقاً تلقائياً لا افتعال فيه ولا تصنع .

لكنه لا يكفيننا أن نقول عن الإدراك الجمالى أنه متميز باللذة الإيجابية المباشرة التى يحسها الرائي أو السامع لأنه إذا كان كل إدراك جمالى لذيذاً فما كل لذيذ إدراكاً للجمال ؛ وإذن فعلينا أن نسأل : ما الطابع الذى يميز اللذة الجمالية من غيرها ؟ فاللذائذ الجمالية كاللذائذ الجسدية سواء فى كونها تتخذ البدن مقراً لها ، لكن الفرق بينهما هو أنه بينما تتبلور اللذة الجسدية حول عضو معين من البدن ، ترى اللذة الجمالية شائعة لا تقتيد بعضو خاص ؛ كأنما هى حساسية شفافة تنقلنا من حالة النشوة الداخلية إلى الشئ الخارجى الذى هو مصدرها نقلاً مباشراً ، دون الوقوف فى منتصف الطريق عند هذه الحاسة المعينة أو تلك ؛ وفى هذا معنى قولنا إن الإحساس بالجمال يحرر صاحبه من قيود الجسد ، لأنه وإن يكن حالاً فيه ، إلا أنه لا يتقيد بحاسة معينة من حواسه ، ويعبر بصاحبه إلى الشئ الخارجى الجميل أى كان فى أرض أو سماء .

وها هنا تأتى الخاصة المميزة الفاصلة التى تكمل بها تحديدنا لمعنى الجمال ، فإلى جانب كونه يتميز بأنه إدراك « لقيمة » ، لا إدراك « لواقع » كما هى الحال فى العلم ؛ وبأنه إدراك إيجابى مباشر لا إدراك للجانِب

السلبى بطريق غير مباشر ، كما هى الحال فى الأخلاق ؛ أقول إنه إلى جانب هذا تراه يتميز بأنه يتضمن إخراجاً للنشوة الباطنية الذاتية إلى الشىء الخارجى ليضيفها إليه وكأنها جزء منه .

بهذا ننتهى إلى تحديد الإدراك الجمالى تحديداً فاصلاً حاسماً ، يميز بينه وبين الإدراك العقلى ( العلم ) من ناحية ، وبينه وبين الحكم الخلقى من ناحية أخرى ؛ فهى إذن بمميزات أربع لا بد من توافرها فى إدراك الشىء إدراكاً جمالياً : (١) فهو « قيمة » وليس إدراكاً لواقع معين أو لعلاقة بذاتها قائمة بين عدة وقائع ، ونعنى بأنه « قيمة » أنه انعطاف من الذات وميل وجدانى نحو شىء بعينه (٢) وهو إحساس « إيجابى » لأنه منصب على الشىء الحسن المائل أمام الشخص المدرك ، وليس هو كالحكم الخلقى الذى لا ينشأ إلا عن طريق إدراكنا لجوانب النقص لتتقيها ، (٣) وهو « مباشر » لأنه لا يراد به أن يكون وسيلة لمنفعة آجلة ، « والمباشرة » بمعناها اللغوى الحرفى مقصودة هنا ، أى أن تمس « بشرة » الذات المدركة « بشرة » الشىء المدرك - أعنى أن يتلامس الشخص والشىء وأن يكونا على صلة فى لحظة الإدراك ذاتها ، (٤) ثم هو إلى جانب هذا كله وفوق هذا كله ، إخراج للنشوة الذاتية إخراجاً يدمجها فى عناصر الشىء وكأنها جزء من طبيعته ، وعندئذ ينظر الرائى إلى الشىء الجميل فيحسب أن النشوة والمتعة واللذة منبثقة من الشىء ذاته وصادرة عنه لا من نفسه هو الباطنية ومن طبيعة كيانه العضوى .

## ٣

ولنا أن نسأل الآن : كيف يحدث هذا كله ؟ كيف يحدث أن يخلع  
 الرائي على الأثر الفني الذى يشاهده قيمة جمالية على النحو الذى  
 فصلناه ؟ يحدث ذلك بأن يتمثل الرائي فى ذهنه صورة مثلى للشئ الذى  
 يصوره الأثر الفني المشاهد ، ثم يدرج هذا الشئ الجزئى المائل أمامه تحت  
 الصورة المثلى التى تمثلها فى عقله ، ويمقدار ما يكون هنالك من تقارب  
 بين الجزئى المائل من جهة وبين الصورة العقلية من جهة أخرى ، يقول  
 عن الجزئى إنه جميل ، فجمال الشئ إذن مستمد من مدى اقترابه من  
 النموذج العقلى الذى يرسم فى ذهن المشاهد ، فافرض مثلاً أنك تنظر  
 إلى صورة لقائد حربى ، فعندئذ تتمثل فى ذهنك مثلاً أعلى لما ينبغى أن  
 يكون عليه القائد من صفات ، فتمثله ذا طول معين وملامح معينة  
 ويرتدى ثوباً من طراز بعينه وهكذا ، فإن وجدت صورة القائد الماثلة  
 أمامك قريبة من مثلك الأعلى الذى تصورته بعقلك ، كانت الصورة  
 عندك محققة لشروط الجمال الفنى .

ولكن من أين للإنسان تلك الصورة العقلية المثلى التى يقيس بها آثار  
 الفن والطبيعة ليحكم على هذه بالجمال أو بالقبح وفقاً لمدى التشابه بين  
 النموذج العقلى من ناحية والواقع الفعلى من ناحية أخرى ؟ إن من له  
 إلمام بالفلسفة سيذكر فى هذا السياق أفلاطون ونظريته فى المثُل ، وسيذكر  
 أن من رأى هذا الفيلسوف اليونانى أن لكل شئ فى الدنيا مثلاً جاء ذلك



الشيء على غراره ، وأن الشيء المعين يدنو من الكمال أو يبعد عنه بمقدار ما بينه وبين مثاله من شبه ، وأن مجموعة المثل قائمة فى النفس الإنسانية منذ انطبعت عليها أيام أن كانت النفس الإنسانية تحيا فى عالم المثل قبل أن تتصل بجسدها وتمتزج به ؛ وإذن فمثل الأشياء مفارقة لهذه الطبيعة ، وقائمة فى عالم وحدها - هو عالم المعقولات - وأما فيلسوفنا « سانتيانا » فلا يذهب مع أفلاطون فى قوله بأن المثل قائمة وحدها فى عالم وراء هذا العالم الذى نعيش فيه ، فسانتيانا يقر بوجود مثال عقلى للشيء ، إذ لولاه لما استطاع إنسان أن يحكم على شىء بالجمال ، ولكنه يجعل ذلك المثال العقلى وليد التجربة الدنيوية الطبيعية التى يعيشها الإنسان ؛ فالذى يحدث هو أن الإنسان وهو يخوض خبراته الحسية الجزئية منذ ولادته يصادف مفردات جزئية من هذا النوع أو ذلك ، فهو يصادف قطعاً هنا وقطعاً هناك ، وجواداً هنا وجواداً هناك ، وإنساناً هنا وإنساناً هناك ، ونضدًا هنا ونضدًا هناك ، وهلم جرا ؛ وكلما صادفته جزئية من هذه الجزئيات ، ارتسمت صورتها فى ذهنه مماثلة لانطباعها الحسى الذى وقع على الحاسة المدركة له ، فإذا رأى الإنسان « جواداً » وارتسمت له صورة ثم رأى بعدئذ « جواداً » آخر وارتسمت له صورة ، ثم رأى ثالثاً ورابعاً وخامساً ، تزاومت صور الجياد المختلفة فى ذهنه تزاوماً يجعلها تدخل بعضاً فى بعض فتنبهم معالمها ، لكنه يطلق عليها اسماً ينوب عنها ، وهو كلمة « جواد » ، فتصبح هذه الكلمة بعدئذ هى وحدها الدالة على نوع الجياد ،

لكن هنالك من الناس من أوتى قوة الذاكرة ، فيظل محتفظاً بصورة جواد جزئى بكثير من تفصيلاته ، بحيث يتمثل هذه الصورة كلما وردت على لسانه كلمة « جواد » فتصبح هذه الصورة الذهنية الجزئية بالإضافة إلى الاسم دالة على نوع الجياد كله .

وسواء أكانت حصيلتك من الجياد التى صادفتها فى تجربتك الحسية مجموعة مهوشة مبهمة المعالم أم كانت صورة محددة المعالم لجواد رأيتة فظللت محتفظاً بصورته ، فأنت مستطيع على كل حال أن تخرج من مخيلتك صورة لجواد استخرجتها من متوسط ما قد رأيت من جياد ، فإذا رأيت هذا المتوسط ناقصاً فى ناحية من نواحيه ، أكملته بخيالك ، كأن ترى مثلاً متوسط الجياد التى وقعت لك فى حياتك ذا أرجل قصيرة مع أنه لو كان ذا أرجل أطول كان جواداً أصح ، أخذت تعدل المتوسط التجريبي بحيث تميل به نحو ما تريده للجواد الأمثل - إذا تم لك هذا التصور لجواد أمثل ، كان تصورك هذا فيما بعد هو معيارك الذى تقيس إليه صور الجياد فى الفن وفى الطبيعة على السواء ، فتقول عنها إنها جميلة أو قبيحة حسب قربها أو بعدها عن صورتك العقلية المثلى .

ومن هنا تجيء النظرة الذاتية النسبية فى تقدير الجمال ، فالوجه الإنسانى الجميل هو المتوسط المعدل المستخلص من عدة الوجوه التى تصادفنا فى حياتنا الفعلية ، وبديهي أن هذا المتوسط يختلف فى أمة عنه فى أمة أخرى ؛ وليس هنالك ضرورة عقلية منطقية تحتم أن تكون

الصورة المكونة من متوسط التجربة هي المثل الاعلى الوحيد الذى يستحيل على غيره أن ينافسَه ؛ إنه لا ضرورة عقلية هناك تحتم مثلاً - أن يكون الإنسان الجميل ذا أذنين على جانبي رأسه وذا أظافر على أطراف أصابعه ، لكن هكذا خلق الناس وهكذا رأيناهم ، فتتج عن ذلك تصور لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان ، فكان لابد للإنسان الجميل أن يكون له الأذنان والأظافر وإلا رأيناها منفراً قبيحاً .

ولئن كان الناس سواء فى استخلاصهم لمتوسط النوع من حقائق أفرادهم كما رأوها فى تجاربهم ، فليسوا سواء فى إكمالهم لأوجه النقص فى هذا المتوسط وتكوينهم لصور مثلى تبعد بعض الشيء عن كائنات الطبيعة الواقعة ؛ فالشعراء والفنانون هم أقدر الناس على تصور مثل الأنواع تصوراً كاملاً واضحاً ، ولهذا تراهم أشقى الناس بواقعهم وأسعد الناس بخيالهم فى آن واحد ، فهم أشقى الناس بالواقع لأنهم ما يفكرون يلحظون الفرق البعيد بين أفراد النوع المعين كما يرونها فعلاً ، وبين تلك الأفراد كما يتصورونها فى عالم الإمكانيات ، لكنهم كذلك أسعد الناس بخيالهم لأنهم هناك يعيشون فى عالم جميل أكملوا فيه أوجه النقص التى يرونها فى الكائنات الفعلية ؛ وكلما ازداد العالم الواقعى نقصاً فى أعينهم ازداد عالمهم الخيالى روعة وبهاء ، ولا غرابة أن تجتمع فى الرحل الواحد ذى الحس المرهف مرارة النقد لما هو واقع وسمو المثل التى يود لو جاءت الدنيا على غرارها .

هكذا نعود إلى ما بدأنا به هذه المقدمة من عرض موجز لفلسفة سانتيانا : فى العالم الواقعى كائنات فعلية لو وصفت كما هى واقعة ، لكان ذلك الوصف تقريراً عن « الحق » ، وهو من شأن العلم والعلماء ؛ لكن هنالك كذلك إمكانات يمكن للعقل الإنسانى أن يتصورها واقعة بدل هذا الواقع الفعلى ، فإن أخرجنا من هذه المكنات صوراً - باللون أو بالصوت أو بالفاظ اللغة أو بالحجر - بحيث جاءت هذه الصور محققة لما كنا نود أن يكون ، كانت هى آيات الجمال التى تستريح النفس لرؤيتها حاسبة أن نشوتها صادرة عن الآية الفنية المائلة أمامها ، مع أنها نشوة منبثقة من ضميرها وصميمها وذلك حين تصورت للشئ المعين مثله الأعلى ، فلئن كان إدراكنا للواقع إدراكاً « للحق » ، فإدراكنا لجمال الفن هو إدراك « للقيمة » التى أضفناها إلى الأشياء من نماذجنا الروحية المثلى ، التى استعرناها من عالم الإمكان لما رأينا عالم الواقع قد قصر دون إخراجها إلى عالم الوجود الفعلى .

## تمهيد

يحتوى هذا العمل المتواضع على أهم الأفكار التى جمعتها خلال إعدادى سلسلة من المحاضرات عن نظرية الجمال وتاريخها ، ألفتها فى كلية هارفارد فى الفترة ما بين ١٨٩٢ و ١٨٩٥ . ولا أدعى أن فى هذه الأفكار أصالة أكثر مما قد يأتى من محاولتى تنظيم الحقائق النقدية المعروفة ووضعها فى شكل مذهب موحد مستلهماً فى ذلك « المذهب الطبيعى فى علم النفس » .

لقد آثرت الصدق على الجدة ، ولذلك فإذا كنت قد أقيت ضوءاً جديداً على بعض الموضوعات ، مثل موضوع سر روعة « التراجيديا » ، فإن المصدر الوحيد للجدة والتغيير هنا هو أنى طبقت بدقة على موضوع مركب المبادئ المتفق على وجودها فى أحكامنا البسيطة . لقد حاولت فى هذا البحث كله أن أتذكر تلك الإحساسات الجمالية الأساسية التى يودى تطويرها على نحو منظم إلى سلامة الحكم وامتيار الذوق .

أما التأثيرات التي وقعت تحتها في أثناء كتابتي هذا المؤلف فهي أعم وأنفذ من أن تخضع للذكر المفصل . غير أن دارس الفلسفة لن يجد صعوبة في اكتشاف مدى ما أدين به لأولئك الكتاب ، الأحياء والأموات ، الذين لن يزيدهم شرفاً اعترافى بدينى لهم . وقد حذفت عادة كل الإشارات إليهم سواء أكانت فى متن الكتاب أم فى حواشيه حتى أتجنب جو الجدل ، وحتى يتسنى للقارئ أن يقارن مباشرة ما أقوله هنا بحقيقة تجربته الشخصية .

سبتمبر ١٨٩٦

ج.س.

## مقدمة

### مناهج الإستيتيقا

يحتل الإحساس بالجمال مركزاً في الحياة أهم بكثير مما شغلته نظرية الجمال في الفلسفة حتى الآن . فالفنون التشكيلية بالإضافة إلى الشعر والموسيقى هي أبرز صورة يظهر فيها اهتمام الإنسان بالجمال ، إذ هي لا تستهدف إلا التأمل الصرف ، ومع ذلك فقد بذل الإنسان في خدمتها - في شتى العصور المتمدينة - من الجهد والعبقرية والتكريم ما لا يقل كثيراً عما بذله في سبيل الصناعة ، أو الحرب ، أو الدين . غير أن الفنون الجميلة ، حيث يبدو الشعور الجمالي في صورة تكاد تكون خالصة ، ليست بأى حال هي المجال الوحيد الذي يظهر فيه تأثر الإنسان بالجمال ؛ ففي الإنتاج الصناعي كله نلاحظ أن مجرد المظهر يجذب النظر على نحو بالغ ، ولهذا يضحي الناس بالكثير من الوقت والجهد لكي يحسّنوا مظهر ما يتتجون مهما كان رخص هذا الإنتاج . كذلك لا يختار الناس بيوتهم أو ملابسهم أو صحتهم دون أن يأخذوا في اعتبارهم مقدار

تأثير هذه الأشياء فى حواسهم الجمالية . بل لقد علمنا حديثاً أن أشكال العديد من الحيوانات التى قدر لها البقاء إنما يرجع بقاؤها إلى احتفاظها بأكثر الألوان والصور اجتذاباً للعين فتصبح بذلك موضوع الاختيار الجنىسى . من هذا نستنتج أنه لا بد وأن يكون فى الطبيعة البشرية نزعة أساسية منتشرة على نطاق واسع إلى ملاحظة الجمال وتقديره . ولذلك فأى تفسير لمبادئ العقل بغض النظر عن ملكة لها كل هذه المكانة البارزة ، يستحيل أن يكون تفسيراً كافياً .

ولا يرجع عدم اهتمام الناس بنظرية الجمال إلى عدم أهمية الموضوع الذى تعالجه ، وإنما يرجع إلى عدم وجود دافع كافٍ يدفع الناس إلى التفكير فى هذا الموضوع ، وإلى القدر الضئيل من النجاح الذى أسفرت عنه الجهود التى بذلها المفكرون من حين إلى آخر حينما عالجوه . فليس حب الاستطلاع المطلق أو حب الفهم لذاته من العواطف التى فى وسعنا الإغراق فيها ، إذ لا يتطلب هذا الحب التحرر من المشاغل فحسب وإنما يتطلب أيضاً شيئاً آخر أكثر ندرة ، ألا وهو التحرر من الأفكار التى نتعصب لها ومن كراهية جميع الأفكار التى لا تستهدف الغايات التى تعودنا التفكير من أجلها .

فأهم ما قصر الناس تأملاتهم عليه حتى الآن هو واحد من اثنين :  
 العاطفة الدينية والمنفعة العملية . مثال ذلك أن كل ما قد كتب عن الجمال يمكن تقسيمه فئتين : أولاهما - كتابات فسر فيها الفلاسفة الحقائق



الجمالية على ضوء مبادئهم الميتافيزيقية وجعلوا فيها نظرياتهم فى الذوق نتيجة أو تذيلاً لمذاهبهم العامة . ثانيتهما - كتابات حاول فيها الفنانون والنقاد أن يتفلسفوا عن طريق تعميمهم إلى حد ما قواعد الفن أو تعليقات المشاهد المرهف الشعور . ومن النادر حقاً أن نجد معالجة للموضوع مباشرة ونظرية فى الوقت عينه . لقد اجتذبت المفكرين مشكلات الطبيعة والأخلاق ، كما استرعت مسألة وصف الجمال وخلقه انتباه الفنانين . أما ما بين هذين الطرفين فقد ظل التفكير فى التجربة الجمالية ناقصاً مفككاً .

ومن الظروف التى أدت إلى انعدام التفكير الجمالى أو فشله ما تتميز به ظاهرة الجمال من صفة ذاتية ؛ فالإنسان متحامل على ذاته ، ويبدو له أن كل ما يصدر عن عقله إنما هو غير حقيقى ، أو غير هام نسبياً . ونحن لا نقنع أبداً إلا عندما نتخيل أنفسنا محاطين بأشياء وبقوانين مستقلة عن طبيعتنا البشرية . فقد ظل الأقدمون حقة طويلة من الزمان يفكرون فى تركيب الكون قبل أن يشعروا بوجود العقل الذى هو أداة كل تفكير . كذلك الحال عند المحدثين : فقد بدءوا - حتى داخل ميدان علم النفس - بدراسة وظيفة الإدراك الحسى ونظرية المعرفة اللتين يبدو لنا أننا نعرف عن طريقهما الموضوعات الخارجية ، وأهملوا نسيباً النواحي الذاتية الإنسانية المحضة مثل الخيال والعاطفة . وما زلنا بحاجة إلى أن نتبين أن مشاعرنا الذاتية التى نحترقها هذه هى مصدر كل ما فى عالم الإدراك الحسى من قيمة ، إن لم تكن كذلك مصدر وجوده . فليست الأشياء

طريقة إلا لأننا نهتم بها ، وليست هامة إلا لأننا بحاجة إليها . فلو لم تكن إدراكاتنا الحسية متصلة بشعورنا باللذة لأغمضنا أعيننا عن هذا العالم ، ولو لم يكن ذكاؤنا يخدم عواطفنا لشككنا في أن  $2 + 2 = 4$  ، عندما نسترسل أحراراً في أحلام يقظتنا .

ومع ذلك فالإحساس العام بعدم أهمية كل ما هو عاطفي بحث وبحقارته هو من القوة بحيث إن أولئك الذين اهتموا اهتماماً جدياً بالمشكلات الخلقية وأحسوا بقيمتها غالباً ما حاولوا اكتشاف خير خارجي تكون مشاعرنا الخلقية عبارة عن إدراكات له ، أو كشف عنه ، واكتشاف جمال خارجي تكون مشاعرنا الجمالية عبارة عن إدراكات له وكشف عنه ، على نحو نشاطنا الفكري الذي هو في اعتقاد الناس إدراك أو اكتشاف للواقع الخارجي . ويبدو أن أولئك الفلاسفة يشعرون بأن الأحكام الخلقية والجمالية يمكن اتهامها بالتفاهة التامة ما لم تكن تعبيراً عن حقيقة موضوعية لا مجرد تعبير عن الطبيعة الإنسانية . ولكن ليس الحكم تافهاً لأنه يقوم على أساس من عواطف الإنسان ، وإنما هو العكس . فالتفاهة إنما هي التجرد عن مواضع اهتمام الإنسان . ولا تكون الأحكام والآراء تافهة إلا حينما تضل بنا بعيداً عن مجال التحقيق ، وحينما لا يكون لها أية وظيفة في تنظيم الحياة أو إثرائها .

لقد قاسى كثيراً كل من علمى الأخلاق والجمال نتيجة التحامل ضد ما هو ذاتي . بل كان من الممكن لهما أن يقاسيا أكثر مما قاسيا لو لم

تكن مادتهما تحتوى شيئاً موضوعياً من بعض وجوهه . فموضوع علم الأخلاق إنما هو السلوك بقدر ما هو العواطف ، ولذلك فهو علم يهتم بدراسة علل الأحداث والنتائج المترتبة عليها ، كما يهتم بدراسة أحكامنا القيمية عليها . أما علم الجمال فغالباً ما ينزع إلى أن يدخل فى نطاقه تاريخ الفن وفلسفته ، كما ينزع إلى إضافة كثير من الوصف والنقد إلى ما فيه من تفكير نظرى عن تأثيرنا بالجمال . لهذا ينتج بعض الخلط فى هذه البحوث ، وإن كان الخروج عن موضوع البحث إلى الميادين المجاورة من شأنه أن يكسب المناقشة حيوية قد تجعلها أكثر تشويقاً لعامة القراء .

لكننا نستطيع أن نميز عناصر ثلاثة مختلفة فى كل من الأخلاق والجمال وطرفاً ثلاثاً متباينة فى تناول الموضوع . فالعنصر الأول هو نشاط الملكة الخلقية أو الجمالية ذاتها ، أى عملية إصدار الحكم والتعبير عن المدح والذم وضرب المثل . وليست هذه مسألة علم وإنما هى مسألة تعتمد على الشخصية ، على الحماسة ودقة التمييز وإرهاق الشعور . هذا هو النشاط الجمالى أو الخلقى ، فى حين أن الأخلاق والجمال بوصفهما علمين هما نشاط عقلى موضوعه النشاط الجمالى أو الخلقى .

والطريقة الثانية تلتخص فى التفسير التاريخى للسلوك أو للفن بوصفه جزءاً من علم الإنسان ( الأثروبولوجيا ) ، وفى محاولة اكتشاف الظروف التى تخلق نماذج الشخصية المختلفة وشتى أنواع السياسة ومفاهيم العدالة ومدارس النقد والفن . ويتسمى جزء كبير مما كتب فى علم الجمال إلى هذا

النوع الثانى من التفكير . فقد وجد الناس عادة أن فلسفة الفن أكثر جاذبية من سيكولوجية الذوق ، لاسيما أولئك الذين لم يثر اهتمامهم بالجمال ذاته بقدر ما أثارته مسألة الغريزة الفنية لدى الإنسان بما فيها من غرابة ، والمظاهر المتباينة التى اتخذتها خلال التاريخ .

أما الطريقة الثالثة فى تناول الأخلاق والجمال فهى طريقة سيكولوجية ، على حين أن الطريقة الأولى تعليمية والثانية تاريخية . فهى تتناول بالدرس الأحكام الخلقية والجمالية بوصفها ظواهر عقلية ونتائجاً للتطور العقلى . والمشكلة هنا هى مشكلة فهم مصدر هذه المشاعر وظروفها وعلاقتها بكل تركيبنا . وإذا لمجحتنا فى بحثنا هذا فسوف نفهم السبب الذى يجعلنا نقول بأن الشيء خير أو جميل ، شر أو قبيح ، وسوف نتضح لنا أسس الضمير والذوق فى الطبيعة البشرية ، ونتمكن من التمييز بين التفضيل المؤقت والمثل العليا التى تقوم على أساس ظروف خاصة عارضة وبين تلك المثل العليا الأخرى التى تنبع من العناصر الذهنية التى يشترك فيها جميع البشر والتى هى بالمقارنة مُثُل ثابتة وشاملة .

والصفحات التالية إنما نكرسها لبحث من هذا النوع الثالث فى ميدان علم الجمال فقط . فلن نحاول فرض تذوق خاص ولا تتبع تاريخ الفن والنقد . بل سنقصر المناقشة على طبيعة الأحكام الجمالية وعلى العناصر التى تتألف منها . فهذا بحث نظرى يخلو من صفة التعليم المباشر . ومع

ذلك ففهم الأساس الذى نقيم عليه تفضيلنا لأعمال بالذات - إذا استطعنا أن نفهمه - لا بد وأن يكون له أثر سليم فى تفضيلنا . وسوف يوضح لنا عقم أى موقف تحكمى يفرض به إنسان على غيره أحكاماً وعواطف لا تكون طبيعة تكوينه وتجاربه مهياً لها . وفى الوقت عينه ستتخلص من موقف الصمت أو التهاون الذى لا مسوغ له إزاء أخطاء الذوق حينما ندرك الأصول العامة للتفضيل ، والعادات التى تؤدى إلى زيادة المتعة الجمالية وتنوعها .

وهكذا فعلى الرغم من أنه لا يوجد ما هو أقل جاذبية من البحوث فى الجمال ، أو ما يبعثنا عن الذوق السليم ، أكثر من الكتابات التى تعالج هذا الموضوع ، فإننا مارلنا نأمل إن كسبنا من هذه الدراسات لن يكون مجرد كسب نظرى . لقد ظلت البحوث فى علم الجمال بلا تأثير عملى غالباً لأن الذين قاموا بها لم تتوافر لديهم الظروف المواتية . إذ كانوا عادة من الميتافيزيقيين ذوى الجرأة فى رأى ، الذين لم يكونوا نقاداً ذوى كفاية ، فعرضوا لنا مبادئ عامة غامضة مستوحاة من أجزاء أخرى من مذاهبهم الفلسفية وجعلوها شروطاً للبراعة الفنية ولجوهر الجمال . أما إذا استطعنا أن نجعل بحثنا قريباً من حقائق الشعور طول الوقت فحينئذ قد نأمل أن يكون للنظرية التى نصل إليها تأثير فى توضيح التجربة التى تقوم عليها . وهذا هو فى نهاية الأمر وظيفة النظرية . فحينما تكون النظرية خاطئة تحد من قدرتنا على الملاحظة وتجعل من التذوق مسألة

شكلية عامة . أما حينما تكون النظرية سليمة فعندئذ يكون لها أطيّب الأثر فى قدراتنا ، وتوجه اهتمامنا إلى كل ما من شأنه أن يولد المتعة الحقة ، وتزيد من مجال اهتمامنا بما تورده من أمثلة جديدة للمتشابهات . فالتفكير التأملى شر حينما يفرض على حياتنا الذهنية نظاماً نائياً ، ولا يصبح خيراً إلا حينما يوضح النظام الذى تقوم عليه هذه الحياة بالفعل ، وإلا حينما يسعى إلى إكمال هذا النظام عن طريق التدريب والمرانة .

ولذلك سوف ندرس الحساسية الإنسانية ذاتها ومشاعرنا الحقيقية إزاء الجمال ، ولن نبحث عن الأسباب العميقة اللاشعورية وراء شعورنا الجمالى . فكل ما فى التفسيرات الميتافيزيقية لطبيعة الجمال من قيمة لا يرجع إلى كونها تفسر لنا مشاعرنا الأولية لأنها لاشك تعجز عن هذا التفسير ، وإنما يرجع إلى كونها تعبر - بل إنها فى الحقيقة لتكوّن - ما يكون لنا بعدئذ من حالات التذوق . فقولنا مثلاً : إن الجمال هو قبس ينم على الصفات الإلهية لا يفسر لنا شيئاً . وحتى إذا كان لهذه العلاقة ( بين الجمال وصفات الله ) وجود حقيقى فإنها لن تعيننا على فهم ما نجهده من لذة فى الرموز الدالة على الألوهية . ولكننا فى لحظات معينة من التأمل بعد أن نكون قد عانينا الكثير من التجارب العاطفية ، ووصلنا إلى أفكار عامة جداً عن الطبيعة والحياة ، قد يكون مصدر اللذة التى نجهدها فى الشئ الجزئى هو إدراكنا أن هذا الشئ إنما هو مظهر من مظاهر المبادئ الكلية . فحينئذ قد تصبح السماء الزرقاء مصدر غبطة لأنها تبدو لنا أولاً

صورة لراحة الضمير ، أو لشباب الطبيعة الخالد وصفاتها رغم انتشار الفساد في العديد من جزئياتها . إلا أن قدرة السماء على التعبير هنا مصدرها صفات معينة في إحساسنا تربط بين السماء وكل ما هو يفيض بالصفاء والسعادة ، وحينما يتجسم جوهر الصفاء والسعادة في أذهاننا في فكرة الله ترتبط السماء بهذه الفكرة أيضاً .

وهكذا نجد أن أكثر النظريات بطلاناً وتحكماً ، والتي ينحتم علينا رفضها كتفسير عام للحياة الجمالية قد نستطيع أن نقبلها باعتبارها وصفاً لإحدى اللحظات الجمالية المعينة . فمن النادر أن يكون ما نسميه الحدس الأفلاطوني علمياً ، ومن النادر أنه يفسر لنا الظواهر أو يعرض لنا القانون الحقيقي الذي تتبعه الأشياء ، ومع ذلك فغالباً ما يكون هو ذاته أسمى تعبير عن تلك الفاعلية التي يحاول عبثاً أن يجعلها قريبة إلى الأفهام . فالعاشق المتيم يعجز عن فهم التاريخ الطبيعي للحب لأنه يعيش بكلية في أسمى مراحل تطور الحب وآخرها . ولذلك حار الناس دائماً في حكمهم على الأفلاطونيين لأن نظرياتهم تتميز بالكثير من المغالاة ومع ذلك ففيها قدر كبير من الحكمة . إن الأفلاطونية تعبير عن غرائزنا الطبيعية ، تعبير جميل يدل على الحس المرهف ، فهي تجسيد للضمير وتعبير عن أعمق آمالنا . ولذلك كان للفلاسفة الأفلاطونيين سلطان طبيعي باعتبارهم يقفون على قمة التجربة البشرية التي لا يستطيع العامة

الوصول إليها وإن كانوا بالطبيعة ينزعون إلى بلوغها على نحو  
لا شعورى .

وحيثما يقول لك أحدهم إن الجمال هو تكشف الله للحواس فإنك  
تمنى لو تمكنت من فهم قوله ، وتبحث عن حقيقة عميقة فى طيات  
غموضه ، بل إنك لتجده لسمو تفكيره ، وقد يودى بك تقديره له إلى  
موافقته كما لو كان ما يقوله قضية يقبلها العقل . وفى هذه الحال تسود  
تفكيرك إلى الأبد عقيدة لفظية سرعان ما تتجمع حولها عواطفك من  
حب وكرهية ، وكلما قل تفكيرك فى المعنى الأصلى لهذه العقيدة  
زاد إيمانك بها رسوخاً وقوة ، وكنت ممن يعملون بنصيحة مفيستوفوليس  
( الذى يقول فى مسرحية « فاوست » لجوته ) :

« على العموم اتبع اللفظ .. »

فهكذا تدخل من الباب الأكىد الذى يودى إلى معبد اليقين » .

ومع ذلك فلو فكرت فى المسألة لاتضح لك كيف أن قول هذا  
الأستاذ الكبير ليس فى الواقع تفسيراً موضوعياً لطبيعة الجمال ومصدره ،  
وإنما هو تعبير غامض عن تجربته العاطفية المعقدة .

إن من صفات الله ، ومن كماله الذى نتأمله فى فكرتنا عنه ، هو أنه  
لا توجد فيه ثنائية أو تعارض بين إرادته ورؤيته ، بين دوافعه الطبيعية  
وأحداث حياته . وهذا هو ما نقصده عادة حينما نسمى الله الخالق القادر



على كل شيء . وإننا نلاحظ أننا حينما نتأمل الجمال تصبح الملكات الإدراك الحسى لدينا صفة الكمال هذه . بل إننا لنستمد تصورنا للحياة الإلهية من تجربتنا للجمال والسعادة ، من ذلك الانسجام الذى يتحقق آنا بعد أن بين طبيعتنا والبيئة المحيطة بنا . ولهذا فوصفنا الجمال بأنه ظهور الله للحواس قول مناسب حقًا ، لأن إدراك الجمال يبين لنا فى ميدان الحس مثلاً ذلك الكمال الذى نخلعه عادة على فكرة الله .

إلا أن أولئك الفلاسفة الذين يعيشون فى عالم من أمثال هذه التشبيهات لن يعنوا عادة بالتساؤل عن ظروف هذا الكمال فى تأدية الملكات لوظيفتها وعن شروطه وأنواعه ، وبعبارة أخرى إنهم لن يهتموا بالتفكير فى كيفية إدراكنا للجمال على الإطلاق أو فى كيفية تكويننا أية فكرة عن الله . ولن يلم بهذه المشكلة الأخيرة سوى الضرب الآخر من الفلاسفة ، وأعنى أولئك الذين يتبعون أبيقور فى نظرتة الدنيوية . غير أن التأثير أسهل من التعلم ، ويميل الناس إلى الاعتقاد بأن اللغة النبيلة التى لا تخلو من الغموض معناها بالضرورة المعرفة العميقة . ولكن يجب علينا أن نميز بين حاجتين مختلفتين : الأولى هى حاجتنا إلى الفهم : فنحن نبحث عن نظرية لإحدى وظائف الإنسان ، نظرية تشمل شتى أوجه نشاط هذه الوظيفة ، الرفيع منها والوضيع . ولقد أخفق الأفلاطونيون تمامًا فى إعطائنا هذه النظرية . أما الحاجة الثانية فهى الحاجة إلى الإلهام : فنحن نريد أن نغذى نفوسنا بالحكم والاعترافات التى

يقدمها لنا إنسان سامى الروح يتميز بملكته الجمالية تميزاً واضحاً . ومصدر إعجابنا بالأفلاطونيين هو أنهم يشبعون فينا هذه الحاجة الثانية .

إن الإحساس بالجمال أفضل من معرفة الطريقة التي نحسه بها . فكون المرء ذا خيال وذوق ، وكونه يحب أفضل الأشياء ويتأثر في تأمله للطبيعة بحيث يصل إلى إيمان حى بالمثل الأعلى - كل هذه أسمى بكثير مما يحق لأى علم من العلوم أن يطمح إليه ؛ فالشعراء والفلاسفة الذين يعبرون عن هذه التجربة الجمالية ، ويشجعوننا على أن نحذو حذوهم فنجرب الجمال عن طريق المثل الذى يضربونه لنا ، إنما هم يؤدون للإنسانية وظيفة أسمى مما يؤديه مكتشفو الحقائق التاريخية ، وهم أجدر منهم بالتبجيل والتقدير .

حقاً إن التفكير النظرى جزء من الحياة ، إلا أنه آخر أجزائها . وتتلخص قيمته الخاصة فى إشباع حب الاستطلاع وفى تفسير ما غمض من الأشياء وفى تذليل صعابها ، ومع ذلك فأكبر لذة حقيقية نجدها فى التفكير النظرى مصدرها التجربة ذاتها التى هى موضوع ذلك التفكير . فنحن لا نسترسل عادة فى تأمل الماضى لكى نعرف الحياة الإنسانية معرفة علمية ، وإنما لكى نحى ذكرى ما كان عزيزاً علينا فيها . ولولا اعتمادى على ما فى هذا الموضوع من جاذبية لارتباطه بالكثير من أسباب اللذة لدى القارئ لما كنت أمل أن أثير اهتمام القارئ بالتحليل الذى أقوم به فى هذا البحث .

إلا أن اعترافنا بسمو تجرية الجمال على التفكير النظري فيه لا ينبغي أن يجعلنا نقبل مجرد التعبير عن الإحساس الجمالي تفسيراً له . فحينما يتحدث أفلاطون عن المثل الأزلية التي تحاكيها كل ضروب الكمال إنما هو فى الحقيقة يعبر عن الوعى الأخلاقى . فضميرنا وذوقنا يضعان هذه المثل ؛ ذلك أننا فى الحقيقة نضع مثلاً أعلى حينما نصدر حكماً ، وجميع المثل مطلقة وخالدة بالنسبة للحكم الذى ينطوى عليها لأننا حينما نكتشف أن الشيء خير أو جميل ونصفه بهذه الصفة إنما نصدر حكماً مطلقاً ، والمعيار الذى يشره حكماً إنما هو معيار مطلق فى هذه الحالة ، وينبع من طبيعتها . ولكننا فى اللحظة التالية حينما نحكم على شيء آخر على مستوى مختلف إنما نشير مثلاً أعلى جديداً لا يقل فى صفته المطلقة بالنسبة للحكم الجديد عن المثل الأول بالنسبة للحكم السابق . وإذا كان لنا أن نعبر عن إحساسنا إذن ونعترف بما يحدث لنا فى أثناء قيامنا بعملية الحكم على الأشياء فإننا نقول صادقين إننا نحكم دائماً بالنسبة لمثل مطلق فى أذهاننا ، وتصبح قيمة الشيء فى اتفاهه وهذا المثل . كذلك إذا حاولنا وصف هذا المثل فلن نستطيع أن نقول عنه - إذا توخينا الصدق والدقة - إلا أنه تجسيد للخير المطلق .

فكل ما هو جميل إنما يحتوى على هذا الكمال الذى يستحيل تحديده وتوصيله إلى الغير والذى هو على حد قول الشاعر :

« يشبه النجم الذى يشع من بعيد حيث يقيم الخالدون » .

وإذا أردنا تعبيراً عن هذه التجربة فيلزمنا أن نذهب إلى الشعراء وكبار النقاد الملهمين وبالأخص إلى الأمثلة الخالدة Parables التى يقصها أفلاطون . أما إذا كنا نريد أن نزيد من فهمنا بدلاً من تهذيب حساسيتنا فيجدد بنا حيثشذ أن نطوى هذه الكتب الممتعة جميعاً ، فلن نجد فيها ما يزيدنا علماً فيما يتعلق بالأسئلة التى تلح علينا إلحاحاً شديداً ألا وهى :

كيف ينشأ المثل الأعلى فى أذهاننا ؟ وكيف نقارن شيئاً معيناً بهذا المثل ؟ وما هى الصفات المشتركة بين الأشياء الجميلة جميعاً ؟ وما جوهر المثل المطلق الذى تنزع جميع المثل إلى التلاشى فيه ؟ وأخيراً كيف تتولد لدينا الحساسية إزاء الجمال وكيف نقومه ؟ . وإذا كان من الممكن وجود علم يدرس الطبيعة الإنسانية فإن الإجابة عن هذه الأسئلة لابد وأن تكون من الأمور الممكنة . فنحن إذن أبعد ما نكون عن التنكر لبصيرة الأفلاطونيين ، حتى لترانا نتمنى أن نجد ما يفسرها وما يسوغها بوجه من الوجوه وذلك بأن نبين أنها التعبير الطبيعى ، بل هى أسمى تعبير أحياناً عن المبادئ المشتركة التى تقوم عليها الطبيعة البشرية .

# الجزء الأول

## طبيعة الجمال

### ١- فلسفة الجمال هي نظرية في القيمة

من السهل أن نجد تعريفاً للجمال يشرح هذه اللفظة في كلمات معدودة على نحو مفيد . فإنا لنعلم - استناداً إلى الثقات الممتازين - أن الجمال هو الحق ، أو هو التعبير عن المثالي ، أو رمز الكمال الإلهي ، أو المظهر الحسى للخير . ومن السهل أن نجمع عدداً كبيراً من أمثال هذه الأقوال التي تعدد مآثر الجمال . ولاشك أن هذه الأقوال تبعث على التفكير كما أنها تولد في نفس السامع لذة مؤقتة ، إلا أنها لا تقدم لنا إيضاحاً يدوم ؛ فالتعريف الذي يستطيع أن يقوم بوظيفة التعريف الحقة لا بد وأن يكون على الأقل عرضاً لمصدر الجمال ومكائنه والعناصر التي يتألف منها باعتباره موضوعاً للتجربة الإنسانية . ويتحتم عليه أن يدلنا بقدر الإمكان على الأسباب التي تؤدي إلى ظهور الجمال والمواضع التي

يظهر فيها وكيف يظهر ، وعلى الشروط التي يجب توافرها في الشيء لكى يصبح جميلاً ، وتلك العناصر التي تتألف منها الطبيعة البشرية التي تولد الحساسية إزاء الجمال ، وكنه العلاقة بين تركيب الموضوع وإثارة هذه النزعة الجمالية في نفوسنا . ولاشئ أقل من ذلك يستطيع بحق أن يعرف الجمال أو أن يجعلنا نفهم ماهية التذوق الجمالى . وتعريف الجمال بهذا المعنى هو مهمة هذا الكتاب بأسره ، وهى مهمة لا يمكن أداؤها على الوجه الكامل فى حدود هذا الكتاب .

وقد تفيدنا الأسماء التي أطلقت على موضوعنا فى الماضى فى أنها قد تعطينا فكرة عن كيفية بدء هذا التعريف . لقد أطلق على كثير من الكتاب فى القرن الماضى اسم « النقد » على فلسفة الجمال ، بل لا يزال هذا الاسم يستخدم الآن لوصف التقدير للأعمال الفنية تقديراً تؤيده الحجة العقلية . إلا أننا لن نستطيع مثلاً أن نصف نشوتنا بالطبيعة بأنها نقد . فنحن لا نقدر غروب الشمس وإنما نحسه ونستمتع به . وإذا استخدمنا لفظة « النقد » فى هذا المجال فإننا بذلك نؤكد - أكثر مما ينبغى - عنصر الحكم الواعى والمقارنة بالمعايير . ولكن الجمال لا يدرك عادة على هذا النحو وإن كان يوصف فى هذه الحدود غالباً . فنحن لا نبدى إعجابنا بما هو بديع حقاً فى الطبيعة والفن نتيجة تطبيق قاعدة معينة وإنما هو العكس ، فهذه الموضوعات الرائعة هى التي تعطينا معياراً أو مثلاً يقيس به النقد الأعمال الدنيا .

لذلك استخدم عصرنا هذا - الذى هو عصر العلم وعصر المصطلحات - لفظة أكثر تفقهاً ، هى لفظة الاستيتيقا ( علم الجمال - Aesthetics ) ومعناها نظرية الإدراك الحسى ، أو التأثرية . ولكن إذا كانت كلمة النقد أضيق مما ينبغى لكونها لا تشير إلا إلى أحكامنا الواعية فإن لفظة الاستيتيقا فيما يبدو ذات مدلول أوسع من اللازم يشمل كل ضروب اللذة والألم إن لم يشمل شتى أبواب الإدراك الحسى . لقد استخدمها الفيلسوف « كانط » - كما نعلم - ليدل بها على نظريته فى الزمان والمكان بوصفهما صورتى الإدراك بأسره . كما أن البعض قد ضيق من مجالها بحيث جعلها مساوية لفلسفة الفن .

ولكننا إذا جمعنا بين معنى لفظ النقد ومعنى لفظ « الاستيتيقا » فإننا بذلك نكون قد جمعنا صفتين جوهريتين من صفات نظرية الجمال ؛ فالنقد يتضمن الحكم فى حين تتضمن « الاستيتيقا » الإدراك الحسى . ولكى نحصل على المجال الذى يشترك فيه الاثنان والذى توجد فيه الإدراكات الحسية النقدية أو الأحكام التى هى إدراكات حسية يلزمنا أن نوسع من تصورنا للنقد الواعى بحيث يشمل تلك الأحكام القيسية التى هى غريزية ومباشرة ، أى بحيث يشمل حالات اللذة والألم ، وفى نفس الوقت يتحتم علينا أن نضيق من تصورنا للاستيتيقا بحيث نستبعد منها كل إدراك ليس تذوقاً ، ولا تقديرًا ، ولا يجد قيمة فى موضوعه . وهكذا نصل إلى مجال الإدراك النقدى أو التذوقى ، وهذا على وجه التقريب هو المجال الذى ننوى دراسته .

وإذا كنا سنحتفظ بلفظة « الاستيتيقا » التى أصبحت شائعة الآن  
فستطيع أن نقول حينئذ أن موضوع « الاستيتيقا » هو إدراك القيم .  
ومعنى القيمة وشروطها هو الأمور التى تجب دراستها أولاً .

لقد أصبح من الشائع لدى الفلاسفة منذ أيام ديكارت إمكان تفسير  
كل حدث مرئى فى الطبيعة عن طريق حدث مرئى سابق له ، كما أصبح  
من الشائع افتراض أن كل حركة ، مثل حركة اللسان فى الكلام أو اليد  
أثناء عملية الرسم ، قد لا يكون لها سوى علة فيزيقية . ولكن لو كان  
الوعى ثانويًا للحياة على هذا النحو بدلاً من أن يكون جزءاً جوهرياً منها  
لأمكن للجنس البشرى أن يوجد على ظهر الأرض ويكتسب جميع الفنون  
اللازمة لوجوده دون أن يجرب إحساساً واحداً أو فكرة أو عاطفة واحدة .  
وفى هذه الحال كان يمكن لعملية الاختيار الطبيعى أن تحقق بقاء تلك  
الكائنات الآلية التى استجابت للبيئة التى تعيش فيها على نحو نافع ،  
ويكون الإنسان قد نعى فى نفسه غريزة البقاء فتجنب الأخطار دون أن  
يشعر إزاءها بأى خوف ، وانتقم لنفسه مما لحق به من الضرر دون أن  
يعتريه أى إحساس بالألم . وفى ذلك العالم الخيالى يكون تكوين  
الإنسان قد بلغ أقصى حد من الكمال ، بحيث أصبح يعبر عن أهم  
مصالح الإنسان ، فلا يسعى الإنسان إلا إلى كل ما فيه خير يمكن ؛ إذ  
توجد فى أعماقه نزعات تلقائية إلى تجنب بعض الأحداث وخلق الأحداث  
الأخرى . ويصبح من الممكن للمشاهد الخارجى أن يرى علامات الفكر



الذى يخفى عليه الآن . ولكن لا شك أنه لن يكون فى هذه العملية بأسرها أى تفكير أو ترقب وتوقع ، أو أى مجهود واع .

وقد يتخيل المشاهد وجود غايات وأهداف واعية يسعى إليها هذا الإنسان فى فعله ، كما يتخيل ذلك فى حالة الماء الذى يسعى إلى الوصول إلى مستواه العام أو فى حالة الفراغ الذى تمقته الطبيعة . ولكن ذرات المادة ذاتها لن تكون واعية أبداً بوجودها معاً فى نظام معين ، بل إن الطبيعة بأسرها لن تحس بأى تغير يطرأ فى نظامها .

فنحن وحدنا ، الذين كان يجور لهم أن يقفوا موقف المشاهدين لهذه العملية ، نستطيع أن نتبين مقدار تقدمها أو بلوغها غاية معينة ، ونستطيع أن نفعل ذلك بفضل عاداتنا واهتماماتنا . فنعتقد أنها بلغت غايتها حينما تتحقق فى النتيجة التى وصلت إليها مطالبنا العملية أو الجمالية ، ونرى فيها تقدماً حينما تقترب من تحقيق هذه المطالب . ولكن إذا استثنينا أنفسنا وميولنا الإنسانية فلن نجد فى هذا العالم الألى أى عنصر من عناصر القيمة . فنحن حينما نستبعد الوعى فإنما نستبعد إمكانية القيمة أيضاً .

غير أن القيمة لا تزول من العالم بزوال الشعور فحسب ، والإثبات ذلك نستطيع أن نجرد كلية التجربة الإنسانية من أحد عناصرها على نحو أقل تطرفاً من الحالة السابقة ، ون تصور كائنات إنسانية ذات طابع عقلى صرف ، عقولاً تنعكس فيها تغيرات الطبيعة بلا انفعال واحد . ففى

إمكانها ملاحظة كل حدث وكل علاقة وتوقع تكرار الأحداث ، إلا أن كل ذلك يحدث بلا أى أثر للرغبة أو اللذة أو الأسف ، فهى لا تشمتر من شيء ولا تفزع من شيء . وبالإجمال يمكننا تصور عالم يتألف من الفكر ويخلو تماماً من الإرادة . فى هذه الحالة لا بد وأن تختفى القيمة تماماً كما اختفت فى حالة انعدام الوعى تماماً . وهكذا فلكى يوجد الخير فى أى صورة من صوره لا يلزم وجود الوعى فحسب وإنما يلزم وجود الوعى العاطفى . فالملاحظة وحدها لا تكفى وإنما ينبغى أن يوجد التذوق إلى جانبها .

## ٢- التفضيل موضوع لا عقلى فى نهاية الأمر

نستطيع إذن الآن أن نقرر هذه البديهية الهامة لكل فلسفة أخلاقية ، والقاضية فى الوقت نفسه على طائفة من متناقضات الفكر التى ما تزال تلح علينا ؛ وهى أنه لا توجد أية قيمة منفصلة عن تقديرنا لها ، كما أنه لا يوجد أى خير منفصل عن تفضيلنا له على عدمه أو على نقيضه . فجوهر السمو وأساسه إنما هما فى التقدير والتفضيل . أو ، كما عبر سبينوزا عن هذه الفكرة بوضوح ، نحن لا نرغب فى الشيء لكونه خيراً وإنما يكون الشيء خيراً لأننا نرغب فيه .

حقاً إننا لا نزال نستعمل صفة الخير والشر حتى حينما لا نستجيب استجابة غريزية لإزاء الأشياء ، نستخدمها بوصفها مجرد اصطلاح لغوى .

فقد نتفق على أن هذا الفعل شر ، أو على أن هذا البناء جميل لأننا نتبين فيه صفات تعلمنا أن ننتعها بهذه الصفة . ولكننا فى هذه الحال لا نصدر حكماً خلقياً أو جمالياً طالما لا نجرب ولو ذرة من انفعال الاستنكار أو المتعة الحسية ، وإنما نستعمل اللغة استعمالاً سليماً فحسب ونعيش فى عالم الألفاظ الجوفاء . والقضايا اللفظية الآلية التى تفهم خطأ على أنها أحكام قيمية إنما هى الفناع الأكبر الذى نخفى وراءه عجزنا فى هذه المسائل . وما أسرع الشخص الذى تعوزه الحساسية فى استخدام الألفاظ استخداماً تقليدياً ! ولكننا لو اعتمدنا اعتماداً أكبر على مشاعرنا الحقيقية لتنوعت أحكامنا وأصبحت أحكاماً حقيقية ذات مدلول مفيد . إن الأحكام اللفظية غالباً ما تكون أداة مفيدة للتفكير ، ولكن القيمة لا يمكن تحديدها فى نهاية الأمر عن طريق هذه الأحكام .

إن القيم تنبع من الاستجابة المباشرة للدافع الحيوى ، وهى استجابة لا يمكن تفسيرها ، كما أنها تنبع من الجزء اللاعقل من طبيعة الإنسان . فالجزء العقلى من طبيعتنا هو فى جوهره نسبي ؛ إنه يقودنا من المعطيات إلى النتائج أو من الجزئيات إلى الكلّيات ، ولكنه لا يمدنا أبداً بالمعطيات التى يعمل بها . فإذا قررنا لحالة من حالات التفضيل أو لمبدأ من المبادئ أنه مطلق وأولى فلإننا نقرر بذلك أنه لا عقلى ، لأن الاستدلال والوساطة والتركيب من وظائف العقل الجوهرية . وما المذهب العقلى - من حيث هو مثل أعلى - إلا أمر تحكمى ويعتمد على حاجات

التكوين الإنسانى بما فيه من خصائص محددة ، شأنه فى ذلك شأن غيره من المثل . والضرورة التى يجدها الفيلسوف فى المذهب العقلى من حيث هو مثل أعلى إنما ترجع فى نهاية الأمر إلى كونه يوفر له الراحة العقلية . وعلى الرغم من أن قولنا إن العقل يتطلب الإيمان بالمذهب العقلى قول سليم لفظياً فإن الذى يتطلب هذا الإيمان فى الحقيقة ، والذى يضىء عليه الضرورة والخير والسلطان ، ليس طيعة العقل وإنما هو حاجتنا إلى هذا الإيمان لى نحقق الاقتصاد والسلامة فى فعالنا ، ولكى نحصل على لذة فهم الأشياء .

من الواضح أن الجمال هو نوع من القيمة ، وما قلناه عن القيمة عامة ينطبق على هذه القيمة الخاصة . لذلك كانت أول خطوة فى سبيل تعريف الجمال هى استبعاد جميع الأحكام العقلية ، وجميع أحكام الواقع أو أحكام العلاقة . فمن علامات النقد الزائف أو المتظاهر بالعلم إحلال أحكام الواقع محل الأحكام القيمة . فحينما نتناول العمل الفنى أو الطبيعة من وجهة النظر العلمية ، أى من أجل علاقة العمل بالتاريخ ، أو لى نصنف جزئيات الطبيعة فإننا لا نتناولهما التناول الجمالى . إن اكتشاف تاريخ ظهور العمل الفنى أو اسم مؤلفه له أهميته فى ميادين أخرى ، ولكنه لن يؤثر فى تقديرنا الجمالى له إلا من بعيد ، عن طريق إضافة ارتباطات معينة إلى الأثر المباشر الذى يولده العمل فى نفوسنا . ولن يكون لهذه الظروف أية أهمية إذا لم يكن للعمل ذاته أهمية تذكر ،

أو إذا لم يولد الأثر المباشر فى النفس . وحينما يمتدح شاعر القصر مقطوعته الغنائية فى مسرحية موليير « كاره البشر » ويقول إنه كتبها فى ربع ساعة يجيبه كاره البشر قائلاً : « ألا ترى يا سيدى أن الزمان لا علاقة له بالموضوع ؟ » . وكذلك نستطيع أن نقول للناقد الذى يتحول إلى عالم الآثار : « أرنا العمل الفنى ذاته واترك التاريخ جانباً » .

ويظهر إحلال الوقائع محل القيم فى اتجاه مضاد لهذا الاتجاه السابق حينما يصبح عكس الواقع هو المعيار الوحيد للسمو الفنى . فكثير من المشاهدين من أنصاف المدرين يتقدون نتاج الفنان البسيط أو الخيالى ويتهكمون عليه لأنه كما يقولون بحق لا يراعى فى فنه نسب الواقع . والمعيار الذى يتضمنه حكمهم هو أن الصدق فى محاكاة الأصل هو شرط الجمال دائماً . حقاً إن الصدق عنصر من عناصر التأثير ، وفيما يتعلق بالموضوعات المألوفة لدينا يكاد يكون لا غنى عنه لأن عدم توافره يحدث خيبة الظن وعدم الرضا ، وهما لا يتفقان والمتعة التى يرمى إليها الفنان . فنحن نتعلم كيف نزيد من تقديرنا للحقيقة بزيادة حبنا للطبيعة ومعرفتنا بها . ولكن ليس الصدق فضيلة إلا لأنه على هذا النحو عامل من عوامل المتعة التى يولدها العمل فى نفوسنا ؛ ولهذا فله نفس الأهمية التى نَجدها فى عناصر التأثير الأخرى . وحينما يرفع أحدهم من مكانته ويجعله وحده العنصر الذى لا غنى عنه بحيث يعجز عن تقدير أى من العناصر

الأخرى ، حيثند يكشف هذا الفرد عن ضعف قدرته الجمالية : لقد شلت عاداته العلمية عاداته الجمالية .

إن كون الوقائع لها قيمة فى ذاتها من شأنه أن يوضح هذه المسألة وإن كان من شأنه أيضًا أن يزيدنا تعقيدًا . فنحن بطبيعتنا نغتنب بكل إدراك حسى ، وإن تعرف الإنسان على شىء أو دهشته لشىء لهما ضربان من الإحساس المتميز بحدته ؛ فحينما نرى قدرًا كبيرًا من الصدق فى المحاكاة يكون ذلك مدعاة لاغتباطنا ، وهذه اللذة التى نحس بها هى لذة مشروعة وتكوّن جزءًا من الأثر العميق الذى تبعثه فى نفوسنا فنون المحاكاة جميعًا . ولذلك فإن الصدق والواقعية خير من الوجهة الجمالية ، ولكنهما غير كافيين وحدهما لأنه لا تتساوى محاكاة شىء بمحاكاة شىء آخر فيما يولدان من التأثير واللذة . إن الناقد محق حينما يطالب الفنان بالصدق أو مشاكلة الواقع لأن الصدق مصدر للذة ، ولما كان الصدق وحده غير كافٍ من الناحية الجمالية فإن ذلك يدلنا على تفاوت قيمة الصدق فى العلم والفن . إن العلم هو استجابة لرغبتنا فى المعرفة ولذلك ففيه نطالب بالصدق كله ولا شىء غير الصدق ، بينما الفن استجابة لرغبتنا فى التسلية وفى إثارة حواسنا وخيالنا ، ولذلك فالصدق يدخل فيه فقط بمقدار خدمته لهذه الغايات .

بل إن القيمة العلمية للصدق ذاتها ليست أولية أو مطلقة ، إذ إنها تقوم على اعتبارات بعضها عملى وبعضها الآخر جمالى . فسيطرنا على

بيئتنا تزيد زيادة هائلة حينما تأخذ أفكارنا بالتدرج فى مطابقة الوقائع عن طريق عملية الاختيار الشاقة ( فالخردس يوجد فى الصدق والخطأ على السواء وهو وحده يعجز عن حسم الأشياء ما لم تسيطر عليه التجربة ) وهذه هى القيمة الأساسية للعلم الطبيعى ، والثمرة التى يؤتيها لنا اليوم . فليست رؤيتنا للطبيعة والحياة أفضل من رؤية أسلافنا ، ولكننا نمتاز عنهم فى زيادة مواردنا المادية . ولهذا السبب كانت معرفة الحفيقة عن تكوين الأشياء وتاريخها خيراً . وهى أيضاً خير لأنها توسع من أفقنا ، ولأن منظر الطبيعة رائع عجيب ملء بالجدية والحزن الهادئ والسكينة الكبرى ، ولذلك فحينما نتأملها نسترد حقوقنا بوصفنا أبناء هذا الكوكب فنألفه ونستعيد علاقتنا الطبيعية بهذه الأرض . هذه هى القيمة الشعرية للنظرة العلمية للعالم . ومن هاتين الفائدتين : الفائدة العملية والفائدة الخيالية يستمد الصدق كل ما له من قيمة .

وهكذا يجب أن نضع الأحكام الجمالية والخلقية معاً فى معيار واحد ، مميزين بينها وبين الأحكام العقلية ؛ فالأحكام الجمالية والخلقية أحكام قيمية على حين أن الأحكام العقلية أحكام واقعية ، وإذا كان لها أية قيمة فإن قيمتها مستمدة من غيرها ، فالمسوغ الوحيد للحياة العقلية بأسرها هو فى ارتباطها بلذاتنا وآلامنا .

### ٣- الفرق بين القيم الخلقية والقيم الجمالية

إن العلاقة وثيقة بين الأحكام الجمالية والأحكام الخلقية ، بين ميداني الجمال والخير ، غير أن التمييز بينهما هام . وأحد عناصر هذا التمييز هو أن الأحكام الجمالية إيجابية أساساً ، بمعنى أنها تنطوى على إدراك لما هو خير ، فى حين أن الأحكام الخلقية فى أساسها سلبية ، أى أنها إدراك للشر . وعنصر آخر من عناصر التمييز هو أن الحكم فى حالة إدراك الجمال ينبع بالضرورة من ذات الموضوع ويقوم على طبيعة التجربة المباشرة ، ولا يستند أبداً على نحو شعورى إلى فكرة المنفعة التى قد تنتج عن التجربة ، أما الأحكام القيمة الخلقية فإنها ، حينما تكون إيجابية ، تقوم على الإدراك الواعى للفاصلة التى تترتب على التجربة . وهذان التمييزان فى حاجة إلى بعض الإيضاح .

إن مذهب الأخلاق الذى يقوم على مبدأ اللذة كان وما يزال يتحتم عليه أن يناضل الحاسة الخلقية لدى الإنسان . فالنفوس الجادة التى تحس بكرامة الحياة وأهميتها تتور ضد الفكرة القائلة بأن غاية السلوك السليم هى اللذة لأنهم يرون أن اللذة عادة إغراء يجب مقاومته ، بل يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فيجعل من تجنب اللذة فضيلة من الفضائل . والحقيقة هى أن الأخلاق لا تهتم أساساً بتحقيق اللذة ، وإنما هى فى أعماق قواعدها وأقواها تهتم بتجنب الألم . فهناك بعض الزيف فى السعى الواعى وراء اللذة ، كما أنه مما يثير الضحك أن نجعل من واجبنا أن نشد



المتعة . فنحن لا نشعر بأى واجب يدفعنا إلى هذا الاتجاه ، وإنما نشد اللذة على نحو طبيعي مباشر بعد أن تنتهى من عملنا فى الحياة ، وأهم ما تتسم به اللذات هو أننا نحس بالحرية والتلقائية حينما نستمتع بها .

أما واجبنا الجاد فى الحياة فهو الهروب-من تلك الشرور المرعبة التى تتعرض لها طبيعة حياتنا : مثل الموت والجوع والمرض والإعياء والعزلة والاحتقار . وحينما يتكلم الضمير فإنه يتكلم فى الحقيقة بصوت يستمد سلطانه من تلك الشرور المرعبة التى تقبع كالأشباح وراء كل أمر أو نهى أو قاعدة خلقية . وإن من أنصت إلى صوت الضمير وتأثر به كما ينبغى يحس بلا ريب بأن السعى وراء اللذة مسألة بالغة حد التفاهة ، ويحس بأن الإنسان الذى يندفع وراء الملاذ وشتى التجارب الحسية المتغيرة إنما مصيره الوقوع فى الأخطار المميتة دون أن يعى . ولكن حالما يتطور المجتمع ، ويخرج من المرحلة الأولى التى كان فيها واقعا تحت ضغط البيئته ، ويحس بأنه إلى حد معقول قد أمن خطر الشرور الأولية ، نجد أن الأخلاق يدب فيها التهاون والتساهل . والأشكال التى تأخذها الحياة بعد ذلك لن يفرضها سلطان الأخلاق وإنما الذى يحددها هو عبقرية الجنس ، والفرص السانحة ، وأذواق الأفراد ومواردهم . ويتنازل حكم الواجب والقانون لحكم السماح والحرية .

إن تقدير الجمال ، وتمجيده فى الفنون ، من ضروب النشاط التى لا نمارسها إلا وقت العطلة والفراغ ، حينما نتخلص لفترة محدودة من ظل

الشر ومن عبودية الخوف وتتبع طبيعتنا حيشما تقودنا . وهكذا فإن القيم التى نعى بها فى ميدان الجمال قيم إيجابية ، فى حين وجدنا أنها كانت سلبية فى ميدان الأخلاق . ولا نكاد نستثنى من ذلك القبح ، لأن القبح ليس مصدرًا لآلم حقيقى بل إنه فى ذاته مصدر تسلية . وإذا أوحى القبح بمشاعر نفور تهدد الحياة فإن وجوده فى هذه الحال يصبح شرًا حقيقياً ، وبالتالي نجدنا نأخذ منه موقفًا عمليًا خفيًا . وكذلك فإن الشيء الجميل الذى يبعث على اللذة لا يكون أبدًا كما رأينا موضوع أمر خلقى حقيقى .

#### ٤- العمل واللعب

لدينا الآن إذن عنصر هام من عناصر التمييز بين القيم الجمالية والخلقية . وهو نفس العنصر الذى يشار إليه فى التمييز المعروف بين العمل واللعب . وقد يستخدم هذان اللفظان بمدلولات مختلفة ولذلك فأهميتهما فى التصنيف الخلقى تختلف باختلاف هذه المدلولات . فنستطيع أن نسمى كل نشاط غير نافع لعبًا ، أى النشاط الذى ينبع من دافع سيكولوجى إلى إفراغ طاقة لم تتطلبها ضرورات الحياة . والعمل إذن يقصد به حينئذ كل فعل ضرورى أو نافع للحياة . ومن الواضح أنه إذا ميزنا موضوعيًا بين العمل واللعب على أساس أن الأول نافع والثانى غير نافع فإن كلمة عمل تصبح كلمة مدح فى حين تصبح كلمة لعب كلمة ذم

واتنقاص . فلاشك أنه يكون من الأفضل لو أننا استفدنا من جميع طاقتنا ولم نضيع أى جزء منها فى حركة غير هادفة . وبهذا المعنى يكون اللعب دليلاً على نقص فى التكيف . ويناسب اللعب الطفولة لأن الجسد والعقل فى هذه المرحلة لا يكونان صالحين بعد لمواجهة البيئة ، غير أنه لا يتفق والرجولة ويكون مدعاة للاحتقار والشفقة فى الشيخوخة لأنه فى هذه الحالة يدل على هزال الطبيعة الإنسانية وعجزها عن استغلال الفرص التى تهيئها الحياة .

اللعب إذن فى جوهره غير جاد . ولهذا فقد نفر فريق ممن فهموا اللعب بهذا المعنى ، نفروا من المدرسة التى تعتبر الملذات الاجتماعية والفن والدين صنوفًا من اللعب ، ويشاركهم كل مفكر متحرر فى هذا النفور . إذ يبدو أن هذه المدرسة تنتقص من قدر أنواع النشاط الإنسانى هذه بتسميتها إياها لعبًا ، وتدعى أن مصيرها هو الزوال بالتدريج باقتراب الجنس البشرى من مرحلة النضج . ولكن إذا كان معنى عملية التكيف هو القضاء على رينة الحياة التى لا فائدة منها فإن التطور فى هذه الحال يودى إلى فقر الطبيعة البشرية بدلاً من إثرائها . ولربما كان التطور ينزع بالفعل فى هذا الاتجاه ، وربما كان أجدادنا المتبريرون يعيشون حياة أفضل من تلك الحياة التى سبجهاها أحفادنا المتكيفون مع البيئة ، ذلك لما أوتوا من عواطف متوقدة وأساطير إلى جانب كدحهم وحروبهم .

ولكن دعونا نأمل أن ذلك العقل المتطور الذى لن يفكر إلا فى كل ما هو نافع سيظل يحتفظ بقليل من الخيال . ومهما يكن مجرى التاريخ فى المستقبل ( ولسنا هنا معنيين بالتنبؤ ) فلن يؤثر ذلك فى تصورنا لما هو مرغوب فيه . وإن الانتقاد الذى يوجه إلى النشاط التلقائى اللذيذ على أساس أنه عديم النفع للبقاء إنما يدل على تقييم غير نقدى للحياة ، تقييم يهتم بالحياة لذاتها بغض النظر عن مضمونها . فهى نظرة تعتبر أن أهم وظائف الحياة هى خلق حركة مستمرة ؛ نعم إن عدم النفع تهمة فيها القضاء على أى فعل يفرض فى أدائه أنه إنما قصد إلى ما فيه من نفع ، وأما الأفعال التى تؤدى لذاتها ( لا لنفعها ) فهى تبرر نفسها بنفسها .

ومع ذلك فقولنا أن النشاط الخيالى الحر للإنسان هو ضرب من اللعب إنما هو وصف مناسب بلا شك ، وذلك لأنه نشاط تلقائى ولا يقوم به الإنسان تحت وطأة الضرورة الخارجية أو الخطر . حقاً إن المنفعة التى يعود بها هذا النشاط على الإنسان لأجل بقائه ربما هى منفعة عارضة غير مباشرة ، إلا أن ذلك لا يفقده قيمته ، وإنما هو العكس . فإنا نستطيع أن نقيس درجة السعادة والتسمدين التى يصل إليها الجنس البشرى بمدى ما يبذله هذا الجنس من طاقة فى العمل التلقائى المتحرر من الضرورة وفى تجميل الحياة وفى تثقيف الخيال . فالإنسان يجد نفسه ويحقق سعادته فى الجهد التلقائى الذى تبذله ملكاته . والعبودية هى أحط وضع للإنسان ، وقد يكون الإنسان عبداً للظروف البيئية القاسية تماماً مثلما

يكون عبدًا لسيد أو لنظام معين وهو عبد عندما يبذل كل طاقته فى تجنب الألم والموت وعندما تفرض عليه فعالة جميعاً من الخارج ولا تبقى له القدرة على الاستمتاع الحر .

وبهذا المعنى يختلف مدلول كل من العمل واللعب ويصبح العمل مساوياً للعبودية ، واللعب مساوياً للحرية . ومرد الاختلاف فى هذا المعنى هو أننا نتميز بينهما الآن من وجهة نظر ذاتية . فلا نعى بالعمل كل فعل نافع ، وإنما ما نفعله مرغمين وما تدفعنا إليه الضرورة . ولا نعى باللعب كل فعل غير نافع ، وإنما ما نفعله تلقائياً ولذاته سواء أكان له نفع فى نهاية الأمر أم العكس . وبهذا المعنى قد يصبح اللعب هو أكثر الفعال نفعاً لنا . وبدلاً من أن يفضى التكيف التدريجى مع البيئة إلى إلغاء اللعب سيؤدى هذا التكيف ذاته إلى إلغاء العمل ونشر اللعب على نطاق عام . فحينما يقضى الجنس البشرى على شتى أنواع الصراع وعلى الأخطاء الغريزية فإنه سيصبح فى مقدوره أن يفعل تلقائياً كل ما من شأنه أن يجلب الرخاء ، وستتمكن إذن من الحياة آمنين من الخطر دون أن تؤثر فينا أو تحد من نشاطنا الضرورة الخارجية .

## 5- جميع القيم قيم جمالية بمعنى من المعانى

وبهذا المعنى الثانى الذاتى تصبح كلمة العمل إذن هى التى تتضمن الذم والانتقاص فى حين تدل كلمة اللعب على المدح . وفى هذه الحال لن

يتردد أى فرد يشعر بما لأمور الخيال من أهمية وكرامة فى أن يقبل التصنيف الذى يدخل هذه الأمور فى باب اللعب . ولا نقصد بإدراجها ضمن اللعب أنها عديمة القيمة وإنما الذى نعنيه هو أن قيمتها هى فى ذاتها ، وأنها تحتوى على أحد مصادر القيم جميعاً . فمن الواضح أن كل ما هو قيم حقيقة لا بد أن تكون قيمته فى ذاته . فالشئ السافع خير لما يترتب عليه من نتائج حسنة تؤدى إلى الخير ، إلا أن هذه النتائج لا يمكن أن تظل طول الوقت مجرد وسائل نافعة أو حسنة ، وإنما لا بد أن نصل فى نهاية الأمر إلى الخير الذى هو خير فى ذاته ولذاته ، وإلا كانت العملية بأسرها عقيمة وكانت الفائدة التى وجدناها فى الشئ فى بداية الأمر مجرد وهم من الأوهام . وهكذا نصل إلى العنصر الثانى فى تمييزنا بين القيم الجمالية والخلقية ، وهو ما فى القيم الجمالية من صفة مباشرة .

فإذا حاولنا أن نستبعد من الحياة كل ما فيها من شرور - كما حاول عامة الناس بخيالهم أن يفعلوا أحياناً - فإنه لن يتبقى فيها سوى اللذات الجمالية التى تتألف منها السعادة الخالصة . فالعواطف والشهوات نفسها التى تبعث على الرضا والتى نجد فيها السعادة فى هذه الدنيا إنما تتخذ لونهاً جمالياً حينما نتصورها ثابتة ، غير قابلة للضياع أو التغيير . فالآلهة على جبل الأوليمب ( مثلها مثل الملائكة التى تقدر الله ) لا يقدر بعضها فى بعضها الآخر سوى الصفات الخالدة المجسمة فيهم ، أو الجواهر التى يجلب تأملها السعادة ، شأنها فى ذلك شأن الجمال . ولم يكن الرمز

إلى جلال السماء إلا بالنور والموسيقى . وحتى معرفة الحقيقة التى يجعلها أكثر فلاسفة الدين رزانة جوهر الرؤية الربانية إنما هى متعة جمالية . فحينما لا تؤدى الحقيقة إلى أية منفعة عملية تصبح المتعة التى تولدها فى النفوس متعة خيالية ، وتصبح قيمتها قيمة جمالية ، شأنها فى ذلك شأن المنظر الطبيعى .

وإن رد القيسم جميعاً إلى التذوق المباشر أو إلى النشاط الحيوى الحسى أمر لازم لا مناص منه بحيث إنه استرعى انتباه أولئك الذين آمنوا بالمذهب العقلى بكل شجاعة . إلا أن ذلك لم يدفعهم إلى تحرير الخير الجمالى من الارتباطات العملية وإلى جعله القيمة الخالصة الإيجابية الوحيدة فى الحياة ، وإنما دفعهم إلى إنكار الخير الخالص الإيجابى كلية . وطبعى أن هؤلاء المفكرين يفترضون أن القيم الخلقية قيمتها فى ذاتها ، وأنها أسمى من غيرها ، ولكن لما كانت هذه القيم لا تظهر لولا وجود الشرور الطبيعية بالفعل أو احتمال وجودها فى المستقبل القريب ، فإنهم آمنوا بالمبدأ المتناقض الذى يقول إنه لولا الشر لما أمكننا أن نتصور أى خير على الإطلاق .

ولا شك أن الذى دفع هؤلاء الفلاسفة إلى أخذ هذا الموقف هو المطالب القاسية التى فرضها عليهم دفاعهم عن الدين ، ومع أنه يكفهم فقط لكى يتخلوا عن موقفهم هذا أن يتنسوا هواء الربيع أو يتأملوا إنساناً جميل الخلق ، فإن مزاجهم الخلقى الصارم وخيالهم المقيد منعاهم من

إعادة النظر فى افتراضهم الأساسى ومن تصور الأخلاق وسيلة فحسب ، لا غاية فى ذاتها ، وباعتبارها الثمن الذى يدفعه الإنسان لكونه لم يتم تكيفه مع البيئة ، أو النتيجة التى تترتب على خطيئة الإنسان الأولى وهى عدم كمال تكيفه . إن الأخلاق تقيد سلوك الإنسان فى حدود ما هو ممكن ومأمون . وما عليك إلا أن تزيد الخطر والألم وكل ما يثير الشفقة لكى ترى الحاجة إلى الأخلاق تختفى بدورها ، وحينئذ يصبح من الوقاحة أن ننهى أحداً عن فعل أى شىء .

ولا يعنى استبعاد القواعد الخلقية القضاء على الحياة . فالحواس ستظل متفتحة حينئذ والغرائز ستواصل نشاطها وترشد جميع المخلوقات إلى الأماكن والفعال التى تناسب طبيعتها . وفى هذه الحياة المثالية سيشتغل وقت فراغنا تنوع الطبيعة والأعمال الفنية اللانهائية وصحة غيرنا من البشر . فهذه هى عناصر سعادتنا الإيجابية والأشياء التى يتألف منها الريح الصافى فى الحياة بعد استبعاد ما يحوطها من الؤف المضايقات والتوافه .

## ٦- اكتساب المبادئ العامة صفة الجمال

ليست مشاعر الرضا المختلفة التى ترمى الأخلاق إلى تحقيقها جمالية فى نهاية الأمر فحسب ، وإنما حينما يتكون ضميرنا وتكتسب المبادئ السليمة سلطاناً مباشراً على نفوسنا يصبح موقفنا إزاء هذه المبادئ موقفاً



جمالياً أيضاً . ومن الأمثلة الواضحة لذلك الشرف والصدق والنظافة .  
فحينما يثير عدم هذه الفضائل اشمئزازاً غريزياً فى النفوس ، كما يحدث  
فى حالة المهذبين من الناس ، فإن الاستجابة حينئذ تكون فى جوهرها  
استجابة جمالية ، وذلك لأنها لا تقوم على التفكير وحسب الخير وإنما  
تقوم على حساسية المزاج . ومع ذلك فهذه الحساسية الجمالية تسمى بحق  
حساسية خلقية لأنها وليدة التدريب الخلقى الواعى ، ولأنها أشد فاعلية  
فى إيجاد الخير فى المجتمع من الفضائل الأخرى التى تتسم بالجهد ، فهى  
أكثر منها ثباتاً وأسهل انتشاراً . إنها جوهر النبل والخير كما يقول  
اليونان ، وهى العنصر الجمالى الذى يتطلبه الخير الخلقى ، ولعلها أطيب  
زهرة تنتجها الطبيعة البشرية .

إلا أن هذه النزعة التى تضىء على المبادئ العامة سلطاناً مستقلاً  
وتكسبها قيمة فى ذاتها قد تسبب بعض الضرر أحياناً ؛ فهى أساس  
الصراع بين العاطفة والعدالة ، بين الأخلاق الحدسية والأخلاق المنفعية ،  
وكل إصلاح إنسانى هو إعادة توكيد المصالح الأولية للإنسان ضد سلطان  
المبادئ العامة التى لم تعد تمثل هذه المصالح تمثيلاً عادلاً ، والتى مع ذلك  
ظلت تتمتع بتقديس الإنسان وولائه الأعمى . وليس احتمال الوقوع فى  
هذه الخرافة الخلقية مقصوداً على ميدان الفروسية والدين . وإنما ينشأ هذا  
الاحتمال حينما يحل الخير المجرد محل نظيره المحسوس : وأوضح مثل  
لهذا الخطأ هو حالة الرجل البخيل . ومن هذا القبيلى أيضاً تلك المبادئ

الخلقية التي يعتنقها نصف شعبنا المحترم ؛ إذ يضحى هؤلاء الناس من أجل بعض العادات النافعة بالمزايا التي كانت في الأصل قوام هذه العادات ومبررها ، فينشدون المعرفة الدقيقة المفصلة على حساب رحابة الفكر ، كما ينشدون الثروة على حساب الراحة والحرية .

وإن مثل هذا الخطأ ليزداد لنا غواية حين يكون للهدف الثانوى فى ذاته شىء من الاستهواء الجمالى كما هى الحال فى الفكرة الرواقية التى تنادى بأن واجب المرء هو أن يلعب دوره فى الدراما العظمى للأشياء ، بغض النظر عما إذا كان ذلك سيعود بالنفع على أى إنسان ؛ وفى ذلك بعض الشبه بعاطفة البخيل حين تصبح أمراً طبيعياً إلى حد ما إذا لم نجد عينه فتنة فى مجرد الأرقام التى يرصد بها حسابه فى المصرف ، بل يفتتها بريق الذهب وهو يتألق . ومن هذا القبيل أيضاً تلك الفكرة الجوفاء ، فكرة القيام بدور تراجيدى وفكرة المجد التى تصحب التضحية الواعية بالنفس ، فكلتاهما تأخذ بالألباب أخذاً مباشراً . وهكذا يكتسب الكثير من القواعد السلوكية اللامعقولة شيئاً من الثبل . غير أنه يجب علينا ألا نختار أى شىء بوصفه الخير الأسمى لمجرد كونه يؤدي إلى ما هو قيم ، ولكن لكونه قيماً فى ذاته ، ويتحتم على هذا الشىء ألا يكون مجرد وسيلة لتحقيق قيم أخرى وإنما يجب أن يكون هو قيمة فى ذاته ، وأن يكون تحقيقه معناه تحقيق هذه القيمة .

وطاعة الله بالنسبة للمسيحي ، مثل اتباع قوانين الطبيعة أو العقل بالنسبة للرواقى ، هى موقف له قيمته العاطفية بغض النظر عن تبريره الأصيل على أساس المنفعة . وهذه القوة العاطفية التى يتضمنها هذا الموقف إنما هى جوهر التعصب ، وهى التى توجد الأوامر المطلقة وتخلع عليها سلطاناً مطلقاً على الضمير على الرغم من أنها لا تمثل إلا ناحية واحدة من الحقيقة ، وعلى الرغم من أنها تجبور على مطالب الطبيعة البشرية المتعددة .

إن الشيء الوحيد الذى يبرر طاعة الله ، أو طاعة العقل ، أصلاً هو أن هذه الطاعة هى ضمن الوسائل وأقلها الكلفة فى نهاية الأمر لتحقيق التوازن والاتساق والوحدة بين غايات الإنسان ورغباته . وهذا التبرير شئ ضرورى جداً ، فما من شهيد كان يقبل العذاب لو لم يؤمن بأن قوى الطبيعة ستقف فى صفه يوم الحساب . إلا أن العقل الإنسانى أشبه بدولة مدينة بالاضطرابات ولذلك لا يمكن للقوانين التى تسعى إلى تحقيق أكبر حير ممكن أن تسود فيها بدون تضحية بعض العناصر فيها ، أى بدون كبت العديد من الدوافع المعينة . وهكذا يجد صوت العقل أو أمر الله ، الذى يسمى إلى إيجاد أكبر قدر ممكن من السعادة ، قوى عديدة نائرة غير طيعة تناوته وترفض الخضوع له فيسميها قوى الشر . لكن الضمير غير المتأمل ينسى أن مصدر كماله متنوع فيزعم لنفسه صفة جدية مباشرة غير مفهومة ، كما لو كانت أوامره مطلقة وتستمد سلطانها من ذاتها ، أى

أنها لم تستمد ذلك السلطان اليوم أو أمس ، ولا يعلم أحد من أين جاء هذا السلطان . ويسهل على الغريزة أن تخلق هذا الغموض الذى يكتنف الضمير ، بأن تستثير نشاطًا خياليًا مفعماً بالحماسة مشحونًا بالعاطفة . وهذا الأثر واضح فى الضمير الذى يقول به أصحاب المذهب المطلق سواء أكان ذلك فى ميدان الدين أم الفلسفة العقلية ، وهو واضح أيضًا فى عاطفة الحب ؛ ففى هذه الميادين جميعًا نشاهد أن المرء يجعل من الشيء المنشود شيئًا فريدًا محددًا مختلفًا تمامًا عن غيره ويخلق عليه عواطفه ويجعله موضوع اهتمامه ، وتصهر حرارة العاطفة شتى عمليات الإرادة بحيث لا يظهر فى وعيه سوى هذا الشيء الفريد الذى يقدهس والذى يقع تحت تأثيره .

ولكن مهما خدع هذا الموقف المعقد رجال الفعل والفصاحة فإنه لا يصح أن يخدع ناقد الطبيعة البشرية . فما من شك فى أن كل خير عام لا يستمد قيمته من مشاعر الرضا الناتجة عن الجزئيات التى يمثّلها إنما يستمد قيمته من ذاته بوصفه فكرة جذابة لها سلطان قوى على المخيلة . ولا تقل ميزة بعض المبادئ العامة لأنها بمعنى من المعانى جمالية ، بل إننا أحيانًا نفضلها على غيرها مما لا يقل عنها خيرًا ، اللهم إلا حينما نأخذ موقفًا نفعيًا حقيقياً فنحذف المخيلة من الطبيعة البشرية أو على الأقل نهمل الدور الكبير الذى تلعبه فى تحقيق سعادة الإنسان .

فمثلاً إذا أمكن إثبات أن الملكية فى مقدورها فى حالة معينة أن تحقق الرفاهية العامة كأى نظام حكومى آخر فإنه يجب تفضيل الملكية بلا شك لما لها من مزايا على غيرها من النظم تتلخص فى صفاتها الخيالية والدرامية . ولكن إذا أعمت هذه المزايا الأثرية حزباً من الأحزاب فضحى من أجلها بمصالح الشعب الهامة فإن الظلم فى هذه الحالة يبدو صارخاً . إلا أن الأمم عادة ، فى الحالات التى لا يبدو الاختيار فيها أمراً جلياً ، تقرر بعد صراع مؤلم مقدار ما يجب عليها أن تضحى به من الحاجات العاطفية . والذى يهمنى هنا أن نتذكر أن القيمة العملية للمبدأ شئ يختلف عن قيمته الجمالية أو الذاتية ، وأن قيمة الشئ الجمالية لا يجب اعتبارها إلا مجرد مزية من مزاياه تقاس بالنسبة لما يمكن أن يكون له من مساوئ خارجية . وحينما نرفض أن نقارن ونوازن بين شتى ضروب المزايا التى تنتج عن الشئ فى نهاية الأمر وذلك من أجل مبدأ مطلق يحتقر الألم والسعادة الإنسانية ، فحينئذ يكون لدينا مذهب أخلاقى خيالى لا يعقل ، ولا تفره التجربة . ويكون ذلك دليلاً على أن المخيلة الخرافية قد غزت الميادين الرينة العملية للأخلاق .

## ٧- تباين اللذة الجمالية واللذة المادية

لقد ميزنا الآن - فى شئ من الدقة - الأحكام العقلية والخلفية عن مجال موضوعنا ، فتبين لنا أنه يجب علينا أن نهتم فقط بأدراكات

القيمة ، بل بنوع خاص من هذه الإدراكات ، وهو النوع الإيجابي المباشر . ولكن حتى بعد هذا التمييز لا تزال أبرز الصفات التي تميز الإحساس بالجمال غامضة ، لم تحدد بعد . فجميع اللذات قيم إيجابية ذاتية ( بمعنى أن قيمتها في ذاتها ) ، ومع ذلك فليست جميع اللذات إدراكات للجمال . حقًا إن اللذة هي جوهر إدراك الجمال ، ولكنه من الواضح أن لذة الجمال تتميز بشيء من التعقيد تخلو منه اللذات الأخرى ، وهو أساس التمييز الذي يمدنا به الوعي واللغة بينها وبين اللذات الأخرى . ومن المفيد أن نلاحظ درجات هذا التمييز .

إن أقل اللذات شبهًا بإدراكات الجمال هي اللذات الجسدية . ولا نقصد باللذات الجسدية بالطبع اللذات التي تتعلق بالجسد فحسب ، وإنما اللذات الجسدية تشمل هذه كما تشمل أيضًا جميع صور الوعي والعناصر التي يتألف منها أيضًا . حقًا إن للذات الجمالية شروطها المادية ، فهي تعتمد على نشاط العين والأذن وعلى الذاكرة وغيرها من الوظائف التصورية للذهن . غير أننا لا نربط هذه اللذات بمصادر المادية اللهم إلا في الدراسات الفسيولوجية . فالصور التي ترتبط بها اللذات الجمالية ليست صور علتها الجسدية . بينما اللذات التي نسميها جسدية ونعتبرها من اللذات الدنيا هي تلك اللذات التي توجه اهتمامنا إلى أحد أجزاء الجسد والتي يكون فيها العضو الذي تنشأ فيه أكثر الموضوعات وضوحًا في الوعي .

لدينا إذن هنا تمييز واضح جداً بين اللذة المادية، واللذة الجمالية ، فلا بد في اللذة الجمالية أن يكون العضو شفافاً لا يعوق اهتمامنا وإنما يوجهه مباشرة إلى موضوع خارجي . وهكذا يمكننا أن نفسر ما للذة الجمالية من سمو ورحابة . إذ تبدو الروح فيها كما لو كانت تغتبط لنسيانها ما يربطها بالجسد من روابط ، وتوهم أنها تخلق بحرية في شتى أنحاء العالم وتحرور في موضوعات التفكير كيفما تشاء . فهي تقطع المسافات الشاسعة بيسر وتنتقل من الصين إلى بيرو دون أن تشعر بأى تغيير أو تأثير ملحوظ في الجسد . وتوهم الروح بأنها تحررت من الجسد مصدر نشوة كبرى ، في حين أن الانغماس في الجسد والتقييد في حدود عضو من الأعضاء يخلعان على الوعي إحساساً بالأناية والغلظة أو الفظاظة . كذلك قد تفسر لنا الموضوعات الدنيا التي ترتبط بالذات المادية ما تتصف به هذه اللذات من الجلافة نسيياً .

#### ٨- ليس فصل اللذة الجمالية هو خلوها من المصلحة أو من الذاتية

لقد قال القائلون أحياناً بأن الفرق بين اللذة والإحساس بالجمال هو أن المتعة الجمالية تخلو من الأناية ، قائلين إننا في مجال اللذات الأخرى نشبع حواسنا وانفعالاتنا ورغباتنا ، ولكن في حالة تأمل الجمال نسمو على ذاتنا ، فتهدا سورة انفعالاتنا ونكون سعداء في إدراكنا لخير

لا نسعى إلى امتلاكه . فلا ينظر الرسام إلى ينبوع الماء نظرة الرجل العطشان ولا ينظر إلى امرأة جميلة نظرة الحيوان الذى يثج بالشهوة . ويزعم هؤلاء المفكرون إذن أن ما يميز اللذة الجمالية هو فى تنزهها عن الأهواء الشخصية . ولكننا لا نرى فى ذلك تمييزاً لطبيعة اللذة الجمالية بل وصفاً لحدتها ودقتها ، ولا يقنع بهذا التمييز فيما يبدو إلا أولئك الذين هم دون غيرهم حساسية إزاء الجمال (١) .

والنقطة الثانية هى أن خلو اللذة الجمالية من المصلحة ( وهو الشيء الذى يزعمه هؤلاء الفلاسفة ) ليس فى الحقيقة شيئاً جوهرياً . لاشك أن

---

(١) حقاً إن شوبنهاور وهو ناقد بصير يؤمن إيماناً قوياً بهذه النظرية ، إلا أن آراءه فى السيكلوجيا تأثرت كثيراً بما فى مذهبه الفلسفى المشائم من تعميمات . لقد كان يهيمه أن يبين أن الإرادة شر ، ولكنه لما كان يحس بأن الجمال خير ، إن لم يكن شيئاً مقدساً ، هب إلى إقناع نفسه بأن مصدره هو تعطيل الإرادة . غير أنه حتى فى حدود مذهبه يلاحظ أن هذا التعطيل نسى فقط . حقاً إن الرغبة فى الموضوعات الجزئية تخفى فى إدراك الجمال ولكننا مع ذلك نجد فيه ذلك الحب الأولى للنمط العام وللمبادئ العامة للأشياء ، ذلك الحب الذى هو أول شيء يجعلنا نتوهم وجود المطلق ثم يدفع هذا الوهم إلى القيام بتجربة إبداعية يكون فيها القضاء على هذا المطلق . وهكذا نجد أن شوبنهاور ذاته - إذا طرحنا أساطيره جانباً - يدرك أن الجمال يرضى فيما حاجة غامضة تكمن فى طبيعتنا البشرية ، مثلما تبحث الموضوعات الجزئية فى إرادتنا الجزئية لذة أكثر خصوصية وأقل أمداً مما تشير المبادئ العامة . إلا أن آراء شوبنهاور السيكلوجية غامضة وعمامة أكثر مما ينبغى ، فلم تمكنه من القيام بتحليل لمشاعر الجمال الغامضة .



تذوق اللوحة الفنية ليس هو الرغبة فى شرائها ، ومع ذلك فالتذوق وثيق الصلة أو يجب أن يكون وثيق الصلة بهذه الرغبة ، كما أنه يهدف لها . فنحن لا نستهلك ما فى الطبيعة والفنون التشكيلية من جمال باستمتاعنا به ، وإنما نظل لهذه الأشياء القدرة على إثارة المتعة فى مشاهد آخر . إلا أن هذه مجرد ظاهرة عرضية . كما أن تلك الموضوعات الجمالية المؤقتة التى ليس الثبات من صفاتها مثل جميع حفلات التمثيل والموسيقى إنما يتسابق الناس على الاستمتاع بها ويسعون إلى الحصول عليها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من اللذات . بل إن بعض نتاج الفنون التشكيلية لا يتسنى الاستمتاع به إلا للقلّة وذلك لضرورة السفر إلى الأماكن التى يوجد فيها وغيرها من الصعوبات التى تحول دون الحصول عليه . وفى هذه الحال نجد أن الناس ينشدون اللذة الجمالية بنفس الأناية التى يتصف بها سعيهم وراء اللذات الأخرى .

ويبدو أن الحقيقة التى تحاول هذه النظرية تقريرها هى أنه حينما ننشد اللذة الجمالية إنما ننشدها وحدها ولا يكون مآربنا فى الوقت نفسه لذّة أخرى غيرها ، أى أننا لا نخلط بمتعة التأمل أى لذات أخرى مثل إرضاء الغرور وحب الملكية . وهذه حقيقة لا جدال فيها ، إلا أنها حقيقة تقع فى الصميم من شتى الاهتمامات والمتع . فكل لذّة حقيقية تخلو من المصلحة بمعنى من معانيها ، فنحن لا نسعى وراءها وفى نفوسنا دوافع أخرى غيرها : ففى حالة اللذة الحقيقية لا يملأ ذهن المرء أى تفكير

وتدبير ، وإنما تملؤه صورة لشيء أو لحدث مشبعة بالانفعال . وقد يعتبر المرء المثقف ذاته معياراً لتزعاته ، فيحاول في حياته أن يرضيها ويزيدها نبلاً وقدرًا ، ولكن هذه الذات ليست إلا مزيجًا مركبًا من الأهداف والذكريات التي كانت لها موضوعات مباشرة في وقت من الأوقات ، وموجهات اهتم بها اهتمامًا مباشرًا تلقائيًا بدون أى اعتبار للذات فيها . ومجموعة الذات التي تكون باتحادها الأناثية كانت جميعًا في البداية لذات بسيطة لا تزيد أناثية عن أكثر الانفعالات تنزهًا وغيرية . فالأناثية إذن تتألف من مجموعة من العناصر اللأناثية . ولا توجد أية إشارة إلى ذلك الجواهر الأسمى الذى يدعى الذات فى العواطف الطبيعية للمراء أو فى رغباته الغريزية . ومع ذلك فالشخص الذى يشغل اهتمامه كله الطعام والشراب ، وما يمتلكه من عقار وأطفال وكلاب يسمى شخصًا أناثيًا لأن اهتمامه على الرغم من كونه طبيعيًا وغريزيًا لا يشاركه فيه غيره . بينما الرجل اللأناثى هو الرجل الذى تنزع طبيعته نزعة أكثر عمومية ويهتم بأشياء أوسع نطاقًا .

ولكن كما أن الصفة اللاشخصية فى الأفكار تستمد من موضوع هذه الأفكار ولا تستمد من الذات المفكرة أو الفاعلة ( لأن كل فكرة إنما هى فكرة فى ذهن شخص ما ) ، فكذلك الاهتمامات اللأناثية هى بالضرورة اهتمامات شخص ما . ولو لم تكن نهتم بالجمال ، ولو لم يكن يؤثر فى سعادتنا كون الأشياء جميلة أو قبيحة لانعدمت فىنا الملكة الجمالية تمامًا

بدلاً من أن تظهر فى أقوى صورها . إن انعدام المصلحة إذن فى لذة الجمال إنما هو ميزة تشترك فيها جميع اللذات الحدسية الأولية التى لا تحددها بأى حال الإشارة إلى أى مفهوم عام مصطنع مثل مفهوم الذات ، الذى يستمد كل قوته من الطاقة التى يحتويها كل عنصر من العناصر التى يتألف منها . إننى أهتم بذاتى لأن « ذاتى » هى اسم يدل على جميع الأشياء التى أقدرها وأعتز بها . وإذا حاول عالم الأخلاق أن يخلق من هذا الكائن اللفظى ما يسميه الشخصية ويجعلها موضع اهتمام المرء منفصلاً عن الأشياء التى يهتم بها والتى هى جوهر هذه الشخصية ومضمونها فإنه بذلك يدعى العلم ويحول علم الأخلاق إلى خرافة . إن الذات التى هى موضوع ما يسمى حب الذات ليست إلا وهمًا من أوهام الجنس البشرى ، ولكى تستند فكرة الذات إلى أساس من العقل ، يتحتم تحليلها إلى ما تنطوى عليه من اهتمامات موضوعية أولية .

## ٩- ليس فصل اللذة الجمالية هو شمولها أو كليتها

إن ما يزعمونه فى حينا للجمال من نزاهة ، ليتمخض عنه مميّز آخر كثيراً ما يعدونه أمراً جوهرياً فيه - ألا وهو اتصافه بالشمول . فهم يقولون إن اللذات الحسية ليست قطعية ؛ فالقول بأن هذا الشيء مصدر لذة عندى لا يتضمن القول بأن له القدرة على أن يكون مصدر لذة عند غيرى . أما حينما أحكم على الشيء بأنه جميل فيعنى حكى هذا أن

هذا الشيء جميل فى ذاته ، أو بعبارة أخرى أكثر دقة ، إنه يجب أن يبدو جميلاً فى نظر سواى . وطبقاً لهذه النظرية يصبح شرط الكلية حوهر الجمال ، فهو الذى يجعل من إدراك الجمال شيئاً أقرب إلى الحكم منه إلى الإحساس إذ تستحيل الإدراكات الجمالية جميعاً ، ويصبح النقد برمته تحكيمياً ذاتياً محضاً ، إن لم نعترف بهذه الصفة الكلية ( التى قد يبدو فيها التناقض ) فى أحكامنا . وفى وسعنا إن شئنا أن نفند الافتراضات الفلسفية التى تتضمنها فكرة الكلية هذه . إلا أننا لحسن الحظ لسنا مجبرين على طرق هذا السبيل ولا على دخول المتاهة التى يقودنا إليها . فهناك سبيل آخر أبسط وأوضح لدراسة هذه المسائل ، وهو أن نتناول هذا الزعم بالفحص والتحليل ونحاول أن نكتشف أساسه فى الطبيعة البشرية . وإذا لم نفعّل ذلك فقد يحف طريقنا الخطر ، وقد يكون ذلك سبباً فى أن تكبر هذه الفكرة الخاطئة التى تطرأ للناس على نحو طبيعى ، ويتسع نطاقها وتعلق بالأذهان برسوخ وتصبح حكماً مبتسراً له نتائجه الوخيمة ، حين يجعلونها مركزاً يقيمون حوله نظرية مفصلة(\*) .

وليس من الصعب أن نبين كيف أن رعم الشمول ينم عن نزعة طبيعية إلى عدم الدقة فى التفكير . فمن المعروف أنه لا يوجد اتفاق كبير على الأمور الجمالية ، والنزر الضئيل من الاتفاق الذى نجده بين الناس إنما

---

(\*) الإشارة هنا إلى أحد الأوهام الأربعة التى ذكرها « بيكن » المترجم .

يقوم على تشابههم فى الأصل والطبيعة والظروف ، هذا التشابه الذى  
حيثما يوجد يؤدى إلى التشابه فى جميع الأحكام والمشاعر ، وليس فى  
الأحكام والمشاعر الجمالية فحسب . ولا معنى فى قولنا إن ما يجده  
شخص معين جميلاً « يجب » أن يعتبره شخص آخر جميلاً أيضاً . فإذا  
كانت لهما نفس الحواس وكانا متشابهين فى المزاج والارتباطات فإنهما لا  
شك سيعتبران نفس الشيء جميلاً . أما إذا اختلفت طبيعتهما فإن  
الصورة التكوينية التى يجدها الشخص الأول مساحرة قد يعجز الثانى عن  
رؤيتها على الإطلاق ، لاختلافه فى تصنيف إدراكاته والتميز بينها ،  
ولذلك فقد لا يرى فيما يعتبره الأول كلا كاملاً إلا جزءاً مبتوراً مشوهاً ،  
أو مجموعة من الأشياء لا شكل فيها : فوحدات الأشياء ليست إلا  
وحدات من حيث الأداء والنفع . ومن المضحك أن نقول إن ما لا  
يستطيع الشخص رؤيته « يجب » أن يبدو جميلاً فى نظره . فلكى يدرك  
الناس نفس الصفات لابد أن تكون لديهم نفس الملكات . ولكن لا يوجد  
شخصان لهما عين الملكات بالضبط ، كما أنه لا توجد للشئ الواحد  
نفس القيمة تماماً فى نظر شخصين .

والمقصود بالعبارة غير الدقيقة التى تقول إن كل شخص يجب أن  
يدرك هذا الجمال أو ذاك هو أن كل شخص يمكنه أن يدرك هذا الجمال لو  
كان مزاجه وتدريبه واهتمامه من النوع الذى يتطلبه مثلنا الأعلى ، وهذا  
المثل الأعلى لما يجب أن يكون الشخص له مصادر معقدة ، وإن كان من

الممكن الوقوف عليها . فنحن مثلاً نسر حينما نجد أن أحكامنا تعضدها أحكام غيرنا ، وإذا كنا نحتمل وجود الآخرين الذين تخالف طبائهم طبائنا فنحن لا نحتمل ما يعبرون به عن هذه الطبائع من ألفاظ وأحكام . ونحن نظمن ونزداد ثقة أو سعادة حينما نرى أن أحكامنا التي نشك في صحتها تحظى بقبول الناس جميعاً . ولما كنا لا نستطيع أن نلتمس أساس ذوقنا في تجربتنا فلإنك ترانا نرفض البحث عن ذلك الأساس في هذه التجربة الشخصية . ولو كنا واثقين من الأساس الذي بنى عليه ، لقبنا راضين ما لغيرنا من مشاعر ومسالك تختلف بالطبيعة عن مشاعرنا ومسالكتنا مثلما يعترف الرجل الذي هو على وعى بأنه يتحدث بلغته على لهجة العاصمة ، أقول إن مثل هذا الرجل يعترف بما في هذه اللهجة من طابع ليس له ما يعلله ، ومع ذلك تراه يعترف بذلك مسروراً ويهتم بأوجه الاختلاف بينها وبين لهجات أهالي الأقاليم . بينما تجد رجل الأقاليم دائماً يهتم بأن يبين لك كيف أن العقل وسلطان التاريخ يسوغان ما في لهجته من غرائب . وهكذا قل عن أولئك الذين ليس لديهم إحاسيس ولا يعرفون لماذا يحكمون بما يحكمون ، فهم دائماً يحاولون أن يبينوا لك أنهم يحكمون طبقاً للعقل الكلي .

وهكذا فنحن لا نقبل ما يعارض أحكامنا الضعيفة السطحية ، ونكره ما يبيده غيرنا من شك فيما نؤمن به حينما لا نستطيع أن نبين لهم أسباب إيماننا . ولذلك فمثلنا الأعلى لما يجب أن يكون عليه سوانا يميل

إلى أن يشمل اتفاقهم معنا فى الأحكام ؛ وعلى الرغم من أننا قد نعترف بحق هذا الطلب فيما يتعلق بالطبائع التى تختلف اختلافاً بيناً عن الطبائع البشرية إلا أننا على درجة من اللامعقولية بحيث نطالب الأجناس جميعاً بوجوب إعجابهم بأسلوب معين فى العمارة كما نطالب الناس فى جميع العصور بوجوب إعجابهم بطائفة معينة من الشعراء .

ومن الأمور التى تشجع على هذا الزعم الخاطئ كون الذوق الإنسانى يتحقق فيه قدر كبير من الوحدة على مدى التاريخ المعترف به . إلا أنه زعم لا يمكن قبوله من حيث المبدأ . ولاشئ أبعد عن تقدير القيمة الحقيقية لتتاج الخيال من كون الناس جميعاً قادرين على تذوقه . فالمعيار الصادق لهذه القيمة هو درجة اللذة ونوعها ، اللذة التى يستطيع أن يبرها العمل فى نفس أكثر الناس تذوقاً له . فلن تفقد السيمفونية شيئاً لو كان نصف الإنسانية يعانون الصمم ، كما هم فعلاً بالنسبة لما فيها من دقائق الإيقاع والنغم . ولكنها كانت ستفقد الكثير لو لم يوجد يتهوفن . بل إننا نقول عدم القدرة على تذوق أنماط معينة من الجمال قد يكون هو الشرط الضرورى لتذوق أنماط أخرى . فالقدرة الهائلة سواء أكانت على التذوق أم على الخلق مسألة بالغة فى التخصص والتخصيص ، ومن ثم كانت أكبر عصور الفن تتسم غالباً بعدم التسامح ، مما يدعو إلى العجب .

إن الهجمات التي تشنها المدارس المتباينة بعضها على بعضها الآخر قد تكون دليلاً على الضلال والانحراف في ميدان الفلسفة ، ولكنها عادة علامة على القوة والنشاط في مجال الفنون ، لأنها تدل على تذوق حيوى لأنواع معينة من الجمال ، وحب لها بلغ حد الغيرة عليها ؛ حقاً إننا قد نقد من وجهة نظر معينة أولئك المهندسين المعماريين الذين حاولوا ترقيع ما وجدوه من نقص فى المباني القديمة الأثرية بما هو نتاج تفكيرهم وذوقهم هم ، مثل الملك شارل الخامس الذى أقام قصره المنيف بجوار الهمبرا ( الحمراء ) . لقد أفسدوا بتدخلهم الشيء الكثير ، ولكنهم مع ذلك أظهروا ثقة رائعة بحدسهم وأكدوا لنا ذوقهم بفخار ، وهذا هو أقوى دليل على صدقهم الجمالى . وعلى عكس ذلك نجد أن ما نتسم به نحن الآن من تحسس الطريق ومن النزعة إلى التلفيق واحترام الآثار لذاتها إنما هو عرض من أعراض الضعف . ولربما أصبحنا أكثر كفاءة لو كنا أقل علمًا وعدلاً . ولو كان تذوقنا أقل عمومًا فرمما صار أكثر صدقًا ، ولربما أصبحت لنا شخصية محددة لو أننا دربنا خيالنا على التخصيص بدلاً من السعى وراء العمومية والكلية .

## ١٠- فصل اللذة الجمالية هو تحويلها الذات إلى موضوع

إن المطالبة بالكلية فى الأحكام الجمالية تنطوى على ما هو أكثر من مجرد الرغبة فى تعميم آرائنا . إنها تعبير عن ظاهرة سيكولوجية غريبة



وإن كانت معروفة جيداً ، إلا وهي ظاهرة تحويل عنصر من عناصر الإحساس إلى صفة فى الشئ . وإذا كنا نقول أنه ينبغي للغير أن يروا مواضع الجمال التى نراها فإننا نقول ذلك لأننا نعتقد أن مواضع الجمال هذه « توجد فى الموضوع » نفسه مثل لونه ونسبه وحجمه . ويبدو لنا أن حكمنا ليس إلا مجرد إدراك لوجود خارجى واكتشاف لكمال حقيقى يوجد خارجنا . ولكن هذه فكرة مضحكة ومتناقضة فى جوهرها . فالجمال كما رأينا قيمة لا نستطيع تصورها وجوداً مستقلاً عنا يؤثر فى حواسنا فتدركه نتيجة لذلك . فالجمال يوجد فى الإدراك ولا وجود له فى غير ذلك . والجمال الذى لا يدرك هو لذة لا تحس ومن ثم فهو تناقض . إلا أن الفلسفة الحديثة قد علمتنا أن نقول نفس الشئ عن جميع العناصر التى يتألف منها العالم الذى ندركه . فكلها إحساسات ، وجمعها فى شكل موضوعات تخيلها ثابتة خارجية ليس إلا نتيجة بعض عاداتنا الفكرية . فما كنا نستطيع أن نتأمل أو نحتفظ بالتجارب المفككة للحياة لو لم ننظمها ونصنفها ، ولو لم نخلع على فوضى الإحساسات إطاراً فنجعل منها عالم الموضوعات التقليدية التى نعرف عليها .

وتفسر لنا النظريات الحديثة فى الإدراك الحسى كيفية قيامنا بهذه العملية ؛ فالموضوعات الخارجية تؤثر عادة فى حواس مختلفة فى نفس الوقت فتترابط بذلك الإحساسات التى تصدر عنها . والتجارب المتكررة لموضوع ما تترابط أيضاً نتيجة لتشابهها ، ومن ثم نشأت نزعة مزدوجة

إلى امتزاج مجموعة الذكريات والاستجابات التي كان لها في الواقع مسبب واحد في العالم الخارجى ، وإلى اتحادها فى مدرك واحد نربطه باسم معين . ولكن من الواضح أنه متى ما نشأ هذا المدرك فإنه يختلف عن تلك التجارب الجزئية التي تطور منها . فهو ثابت وهى متغيرة ، وهى ليست إلا نظرات وملحات جزئية منه ، وهكذا نعتقد أن هذا المفهوم الذى تكون لدينا هو الحقيقة وأن العناصر التي تألف منها مجرد المظهر . وليس للتمييز بين الجوهر والعرض ، بين الحقيقة والمظهر ، بين المادة والعقل ، أصل سوى هذا الأصل .

الموضوعات إذن التي نتصورها على هذا النحو وتميز بينها وبين مفهوماتنا عنها تتألف فى البداية من مجموعة الانطباعات والإحساسات والذكريات التي تترابط جميعاً وتمزجها وتوحد بينها المخيلة . وكل إحساس يولده فينا الشيء إنما نعتبره فى الأصل كما لو كان صفة توجد فى الشيء ذاته . إلا أن التجربة ، بالإضافة إلى حاجتنا إلى تصور بسيط لتكوين الأشياء تجعلنا بالتدريج نقلل من صفات الشيء إلى الحد الأدنى ، ونعتبر معظم إدراكاتنا نتيجة لتأثير هذه الصفات المحدودة فينا . فالصفات الأولية المحدودة ، مثل صفة الامتداد التي نصر على اعتبارها ذات وجود حقيقى مستقل عنا وصفة لجوهر الأشياء ، هى تلك الصفات التي تكفى لتفسير ما فى تجاربنا من نظام . أما الصفات الأخرى ، مثل اللون ، فتردها إلى المجال الذاتى ونعتبرها مجرد تأثير فى أذهاننا ، فهى صفات ثانوية ، وجودها فى الشيء ظاهرى فقط .

إلا أن هذا التمييز لا تبرره سوى الحاجة العملية ؛ فتسهيل الأمور والاقتصاد فى التفكير هما وحدهما العاملان اللذان يحددان أى مجموعة من إحساساتنا سنستمر فى جعلها ذات وجود موضوعى وفى اعتبارها علة المجموعات الأخرى . والإحساسات جميعاً تتساوى فى حقها فى الموضوعية وفى ميلها إلى أن يكون لها وجود موضوعى ، لأنها جميعاً سابقة لعملية التفكير التى بها تفصل المفهوم عن مقوماته المادية ، والشئ عن تجاربنا له .

ومعظم الصفات التى نتصورها الآن أنها تنتمى إلى الموضوعات الحقيقية هى صور بصرية ولمسية ، بينما كانت اللذات والألام من أوائل الإحساسات التى اعتبرناها مجرد صفات ثانوية . وهذا طبيعى إذ أننا ما كنا ننجح فى ميدان الفعل لو تصورنا اللذة والألم من صفات الأشياء ذاتها . ولكن الانفعال بطبيعته فى مقدوره أن يتحول إلى وجود موضوعى ، مثله فى ذلك مثل الانطباعات الحسية تماماً . ومن اليسير أن نفهم كيف أن الرجل البدائى ذا الوعى الفج والتجربة المحدودة ينزع إلى أن يملأ العالم بالأشباح التى تمثل مخاوفه وعواطفه بدلاً من أن يجسد المفهومات الرياضية الواضحة التى لم يكن قد كوّنّها فى ذهنه بعد .

وهذه العادة الفكرية التى تتضمن نظرة سحرية تخلق الأساطير وتضفى على المادة حياة لا تزال نشيطة حيثما استغلقت علينا المعرفة ولم نجد تفسيرات آلية للأشياء . ففى ذاتنا حيث يحول قربنا من أنفسنا دون

ملاحظتها ، وفى فوضى الدوافع الإنسانية والحيوانية المعقدة ، نجدنا لا نزال نتحدث عن سلطان الإرادة والفكر . ويتضح هذا أيضاً فى مناقشتنا للمشكلات الدينية والكونية الممتدة . وأما فى المجالات الأخرى للحياة حيث أحرز العلم تقدماً كبيراً فلن يكون فى وسعنا الآن أن نمزج عناصر انفعالية أو عاطفية بتصورنا للحقيقة . ففى هذه المجالات نجد أن تصورنا للأشياء يتألف فقط من عناصر إدراكية حسية أى من فكرة الشكل وفكرة الحركة .

إلا أن الحالة التى تشذ عن هذه القاعدة هى حالة الجمال فى الأشياء . فالجمال عنصر انفعالى ، أى لذة من لذاتنا ، ومع ذلك فنحن نعتبره صفة فى الأشياء . ولسكننا نستطيع الآن أن نفهم طبيعة هذه الحالة الشاذة . فهى إحدى رواسب النزعة التى كانت تشمل شتى ضروب الإدراك فى وقت ما ، والتى تجعل من كل أثر يولده الشئ فىنا عنصراً من العناصر التى يتألف منها تصورنا لطبيعة هذا الشئ . إن التصور العلمى للشئ هو بمثابة التجريد الشديد الذى يتجزئ قدره يسيراً من جمهرة الإدراكات والاستجابات التى يولدها هذا الشئ . أما التصور الجمالى له فهو أقل تجريداً لأنه يحتفظ بالاستجابة العاطفية ، وباللذة التى تصاحب الإدراك باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الشئ المدرك .

وليس من الصعب أن نتبين لماذا بقيت هذه النزعة لتحويل الانفعال إلى موضوع خارجى فى حالة الإحساس بالجمال ، فى الوقت الذى

اختلفت فيه من الميادين الأخرى . فمعظم اللذات التي تولدها الأشياء يسهل التمييز بينها وبين إدراكنا لهذه الأشياء ؛ إذ يتعين للموضوع أن يقربه من عضو معين مثل اللسان أو نجرعه كالنبيذ أو نستخدمه ونؤثر فيه على نحو ما قبل أن تنشأ اللذة لدينا . فارتباط اللذة بالعناصر الحسية الأخرى المتعلقة بها ليس وثيقاً بحيث يستحيل فصلهما ، وإنما يمكن الفصل بين اللذة والإدراك فصلاً رمزياً ، أو يمكن تحديد موضع اللذة في عضو معين من الجسد ، ومن ثم يسهل تمييز اللذة باعتبارها أثراً فينا لا باعتبارها صفة في الشيء الخارجى . ولكن حينما تكون عملية الإدراك ذاتها عملية لذية كما هي الحال في معظم الأحيان ، وحينما تكون العملية الذهنية التي عن طريقها تترابط العناصر الحسية فتتخذ وجوداً خارجياً ، ويتولد تصورنا لشكل الشيء وجوهه - حينما تكون هذه العملية ذاتها بطبيعتها مصدر لذة ، حيثئذ تنشأ لدينا لذة متصلة اتصالاً وثيقاً مباشراً بالشيء بحيث لا يمكن فصلها عن طبيعة الشيء أو تركيبه ويبدو مصدر اللذة في المدرك بقدر ما هو في نفوسنا . ومن الطبيعي إذن أن نعجز في هذه الظروف عن فصل اللذة عن الإحساسات الأخرى التي نضفى عليها وجوداً موضوعياً . وتصبح اللذة كهذه الإحساسات صفة في الموضوع وتميز بينها وبين اللذات الأخرى التي لا تتحد بإدراكنا للأشياء بأن نطلق عليها اسم « الجمال » .

## ١١- تعريف الجمال

لقد وصلنا الآن إلى تعريفنا للجمال الذي هو - فى حدود تحليلنا وبعد تضييقنا من مجال تصورنا له - ما يلى : الجمال هو قيمة إيجابية نابعة من طبيعة الشئ خلعتنا عليها وجوداً موضوعياً . أو فى لغة أقل تخصصاً - الجمال هو لذة نعتبرها صفة فى الشئ ذاته .

والمقصود بهذا التعريف هو تلخيص مجموعة مختلفة من مواضع الشبه والاختلاف يجدر بنا أن نعرضها هنا عرضاً مباشراً . أولاً - الجمال قيمة ، أى أنه ليس إدراكاً لحقيقة واقعة أو لعلاقة ، وإنما هو انفعال ، انفعال لطبيعتنا الإرادية التذوقية . فلا يكون الموضوع جميلاً إذا لم يولد اللذة فى نفس أحد . والجمال الذى لا يهتم به أحد مطلقاً إنما هو تناقض فى الألفاظ .

ثانياً - نقول إن هذه القيمة إيجابية ، أى أنها إحساس بوجود شئ حسن أو بانعدام شئ حسن ( فى حالة القبح ) . وهى ليست أبدك إدراكاً لشر إيجابى ، أى أنها ليست أبدك قيمة سلبية . فكوننا ذوى إحساس بالجمال إنما هو مكسب خالص لا يتج عنه أى شر . وحينما لا يصبح القبح أداة للتسلية أو لا يعود باعثاً على اهتمامنا بل يصبح شيئاً مقزراً فإنه يصير حيثئذ شراً إيجابياً ، ولكنه فى هذه الحالة لا يكون شراً جمالياً بل يكون شراً خلقياً أو عملياً . فالفضية التى تقول بأن الشر ليس إلا انعدام

الخير هي غالبًا قضية رائفة في ميدان الأخلاق ، إلا أنها تصدق كل الصديق في علم الجمال . فحتى الرتابة وفساد الذوق وانحطاطه ، وغيرها من الأشياء التي تتصف بها الحياة الخالية من الجمال ليست من الأمور القبيحة بقدر ما هي أمور شائنة يؤسف لها . فانعدام الخير الجمالي شر خلقى : أما الشر الجمالي فهو شر نسبي بحت ويعنى مقداراً من الخير الجمالي أقل مما كنا نتوقع في مكان وزمان معينين . إن الشكل في ذاته لا يبعث على الألم أبداً وإن كانت بعض الأشكال التي هي جميلة حقاً قد تولد رؤيتها لأول وهلة صدمة في نفس المشاهد ، فينتج عن ذلك بعض الألم ، ويكون مثل المشاهد في هذه الحالة مثل أم وجدت في مهد طفلها ثوراً وليدك بديع الخلق ؛ وليس الألم الذي تحس به الأم في هذه الحال جمالياً في طبيعته .

وفضلاً عن ذلك فلا ينبغي للذة الجمالية أن تكون نتيجة للمنفعة التي يجلبها الموضوع أو الحدث . وبعبارة أخرى أن الجمال خير مطلق أى أنه يرضى وظيفة طبيعية أو حاجة أو ملكة جوهرية في العقل البشرى . الجمال إذن هو قيمة إيجابية ذاتية ( بمعنى أن قيمته في ذاته ) ، فهو لذة من اللذات . وهذان الشرطان : الإيجابية والذاتية هما اللذان يفصلان مجال الجمال عن مجال الأخلاق الفصل الكافي . فالقيم الأخلاقية عادة سلبية ، وهي دائماً غير مباشرة لأن وظيفة الأخلاق تتعلق بتجنب الشر والسعي وراء الخير ، بينما تتعلق وظيفة الجمال بالمتعة .

وأخيراً تتميز لذات الحس عن إدراك الجمال كما يتميز الإحساس عادة عن الإدراك الحسى ، فى كون العناصر التى يتألف منها إدراك الجمال تتحول إلى موضوعات ذات وجود خارجى بحيث تبدو صفات فى الأشياء أكثر مما تبدو صفات فى الوعى . والانتقال من الإحساس إلى الإدراك الحسى تدريجى ، وقد تتمكن أحياناً من تتبع الخطوات التى يمر بها .

وهذه هى الحال فى الجمال وفى غيره من لذات الحس . فليس هناك حد فاصل واضح بينهما بل الذى يحدد قولى : « إن الشيء يسرنى » أو : « إن الشيء جميل » هو درجة تحويل إحساسى إلى موضوع . وإذا كنت واعياً بذاتى متوخياً الدقة وروح النقد فإننى قد أستعمل إحدى هاتين العبارتين دون الأخرى ؛ أما إذا كنت تلقائياً شديد الحساسية فربما يحدث العكس . وكلما كانت اللذة نائية معقدة وثيقة الارتباط بغيرها بدت لنا أكثر موضوعية . وقد يكون الاتحاد بين لذتين مختلفتين مصدراً للجمال الواحد . ففى المقطوعة الغنائية لشكسبير ( رقم ٥٤ ) نجد هذه الألفاظ :

« كم يبدو الجمال أكثر جمالاً حينما يضاف عليه الصدق رينته البديعة .

إن الوردة تبدو جميلة ، إلا أننا نعلمها أكثر رونقاً لذلك العطر الشذى الذى يحيا فيها .

والأزهار السقيمة لها نفس اللون الأصيل الذى للورود المعطرة ،



وهى عالقة على الأغصان تحيطها الأشواك مثل الورود ،  
ومثل الورود تراها تهتز بمرح حينما يهب نسيم الصيف فيكشف عن  
براعمها المقنعة .

ومع ذلك فليس جمالها إلا مظهرًا ، وهى تعيش دون أن يخطب  
ودها أحد .

وتذبل دون أن يجلبها أحد ، وتموت وحيدة موحشة .  
أما الورود العذبة فليست هكذا ، وإنما تصنع العطور العذبة من موتها  
العذب . «

وهكذا نرى أن الزينة الإضافية الواحدة هنا تجعل من اللون الذى كان  
مجرد مظهر وإحساس من قبل عنصرًا من عناصر الجمال والصدق . وكما  
أن الصدق هنا هو تعاون الإدراكات فيما بينها فإن الجمال هو التعاون بين  
اللذات . وإذا لم يكن فى اللون والشكل والحركة جمال بدون عذوبة  
الرائحة فما أحوج هذه العذوبة ذاتها إلى اللون والشكل والحركة حتى  
تتحول إلى جمال !! فلو أننا وضعنا العطر فى قارورة لما فكر أحد فى أن  
يصفه بالجمال ، لأنه فى هذه الحالة يولد فىنا إحساسًا منفردًا أكثر مما  
ينبغى ويمكننا السيطرة عليه تمامًا ، وليس هنالك الشئ الخارجى الذى  
يسهل علينا أن ندمجه فيه . ولكن تخيله مناسبًا من الحديقة تجده يضيف  
جاذبية حسية إلى الأشياء ( التى ندركها فى نفس الوقت الذى ندركه فيه )  
ويجعل منها أشياء جميلة . وهكذا يتألف الجمال من تحويل اللذة إلى  
موضوع . إن الجمال هو لذة أصبحت موضوعًا .



## الجزء الثاني مادة الجمال

### ١٢- جميع الوظائف الإنسانية قد تخدم الإحساس بالجمال

واجبنا الآن أن نستعرض العناصر التي يتألف منها وعينا بقصد الوقوف على الدور الذي يلعبه كل منها في إبراز الجمال في العالم . وسنجد أنها جميعاً حينما تخدم الإحساس بالجمال تكون دائماً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنشاط الفكري الذي يحيل عناصر الوعي إلى موضوعات ذات وجود خارجي . ومتى ما دخل خيط اللذة الذهبي على هذا النسيج من الأشياء الذي يخلقه الوعي فإنه يخلع على العالم المرئي تلك الجاذبية الدقيقة الغريبة التي نسميها الجمال .

وما من وظيفة من وظائف طبيعتنا البشرية لا تستطيع أن تضيف شيئاً إلى هذه الجاذبية ، إلا أن الوظائف تتفاوت كثيراً في مدى الخدمة المباشرة التي تؤديها في هذا الصدد . فمثلاً لذات البصر والسمع والمخيلة والذاكرة هي أكثر اللذات قدرة على التحول إلى موضوعات . ولكننا لن

نستطيع أن نسميها وحدها مادة الجمال إلا إذا تسرعنا فى الحكم ولم نقدر المبدأ الذى يتضمنه الجمال كما ينبغى . وسنحاول هنا أن نكتشف منابع الجمال الأخرى التى شاع إهمالها ونبين أهميتها . فالخواس الخمس وقوى النفس الثلاث ، التى تلعب هذا الدور الخطير فى السيكولوجيا التقليدية ، ليست بأى حال المنابع أو العوامل الوحيدة فى الوعى . إنها فقط تمثل تقسيماً تقريبياً لمضمون الوعى ، تقسيماً غير كامل ولا ينبع من ذات الوعى . فطبيعة الحياة الإنسانية وما يطرأ عليها من تغيرات لها جذور أعمق من ذلك جداً ، والعمليات التى تسيطر عليها ليست فى الحقيقة بهذه الصورة الواضحة .

إن الجسد الإنسانى آلة مصدر تماسكها عدة وظائف حيوية لولاها لانحللت هذه الآلة . وبعض هذه الوظائف ، مثل دوران الدم أو نمو الأنسجة وتلفها ، يبدو لأول وهلة وظائف لا واعية . ولكن إذا حدث أى خلل خطير فى هذه العمليات الجوهرية فإن ذلك يحدث تغيرات كبرى أليمة فى الوعى . وحتى التغيرات الطفيفة ( فى هذه العمليات الحيوية ) لا تخلو من سدئ لها فى الوعى . فالمزاج التام للفرد وحالته النفسية ، وحدة انفعاله وسلطان العادة عليه سيطرة وتتابعاً ، وقدرته على الانتباه وحيوية مخيلته وعواطفه جميعاً ، كل هذه ترجع إلى تأثير هذه القوى الحيوية فيه . حقاً لا يمكننا أن نقول إن هذه القوى هى الأساس الوحيد

الذى تقوم عليه إحدى أفكاره أو عواطفه المعينة . وإنما نقول إنها الشروط التى تحدد وجود وطبيعة أفكاره وعواطفه جميعاً .

ولهذه القوى أهميتها الخاصة فيما نجده فى تجاربنا من « قيمة » ؛ فسلامة البدن تتألف منها ، وبدون الصحة الجيدة لا يمكن لأى لذة أن تكون خالصة . فهى التى نجدد دوافعنا فى وقت الفراغ ، وتوفر لنا الطاقة الفائضة التى نستغلها فى اللعب والفن والتفكير . وانجذابنا إلى هذه الأمور ، بل ووجود المجال الجمالى على الإطلاق إنما يرجعان إلى سلامة هذه العمليات الحيوية وإتقانها . ولا ترتبط اللذات التى تتضمنها هذه العمليات بموضوع محدد ولذلك فهى لا تفسر لنا الجمال النسبى فى الأشياء . إنها لذات حرة لا تعين فى مكان بالذات وليس لها عضو جسدى خاص ظاهراً كان أو باطناً . ولذلك فهى تظل غير مميزة فى الوعى ، ووظيفتها أنها تضيف طرافة ورونقاً إلى الأشياء أو تخلع على العالم غلالة بديعة تعيننا على رؤية ما فيه من جمال وطفرة .

وتختلف القيمة الجمالية للوظائف الحيوية حسب ما يصحبها من عوامل فسيولوجية . فإذا كانت هذه العوامل تشجع عملية تكوين الأفكار فإنها بالطبع غالباً ما تكسب مباهج التأمل مزيداً من حرارتها فتجعل الإحساس بالجمال مرهقاً وتضفى على التفكير مقداراً أكبر من الطرافة . أما تلك العوامل الفسيولوجية التى تعوق تكوين الأفكار وتنزع إلى استغراق الاهتمام كله فى إحساسات بكماء ومشاعر لا يمكن تصويرها

فإنها لا تشجع النشاط الجمالى . وسيوضح لنا هذا الفرق التأثير المزدوج لحالة النعاس وأحلام اليقظة . إذ يبدو أن ثقل النوم يسقط أولاً على الحواس الخارجية ويجعلها بلا شك غير قادرة على تجريب الإحساسات الحادة ، ولكن إذا وقف تأثير النوم عند هذا الحد. فإن ذلك يزيد من حرية المخيلة ويقوى من تلوين الخيال فيبعث ويولد صوراً بالغة الجمال . وهناك نوع من الشعر والإبداع لا يأتى إلا فى مثل هذه اللحظات ، ولا بد أن يكون الإنسان قد سمع فى هذه اللحظات كثيراً من الألحان الرائعة وتخيل فيها كثيراً من الملائكة والحيوانات الخرافية الغريبة .

أما إذا زادت حالة الاسترخاء ، أو إذا كان سببها من شأنه تعطيل عمل المخيلة أو إبطاؤه فى حين تظل الحواس متيقظة - كما هى الحال فى الجسد المتخمر بالطعام أو المجهد بالعمل - فإنه حينئذ تنشأ لدينا حالة من عدم الحساسية الجمالية . إن حالة الانتعاش التى نحس بها فى الهواء النقى المنشط لها تأثير ملحوظ على تذوقنا ، فهى التى يعزى إليها قدر كبير من جمال الصباح وتميزه عن جمال المساء الذى يختلف اختلافاً بيناً عنه . فاختلاف حالة الوظائف الحيوية فى الحالتين يجعل المنظر الطبيعى الذى له نفس الصفات الخارجية يولد فينا انفعالاً مختلفاً بحيث يصبح المنظران جميلين إلى درجة قصوى وإن كان جمالهما يختلف اختلافاً كبيراً .

وإنه ليكون من دواعى العجب ، بل قد يكون من دواعى الدهشة أن نكشف عن مدى العلاقة بين لذة التنفس وأكثر مثلنا العليا سمواً وروحانية . وليس من باب المجاز فحسب أن نقرن طلاقة الأنفاس بخفة النفس ، كما نقرن احتباس الأنفاس بروعة النفس . فالذى يضيف على هذه الانطباعات قوة مباشرة سابقة على كل تفكير نظرى فى مدلولاتها هو تكرار فعلى لإحساس ما فى الحلق والرئتين : إذن فوق هذه الأشياء على أنفسنا إنما يعزى إلى هذا الإحساس الحيوى من تنفس عميق أو تنفس محبوس .

### ١٣- تأثير عاطفة الحب

وفى منتصف الطريق بين الوظائف الحيوية والوظائف الاجتماعية توجد الغريزة الجنسية . فلو أن الطبيعة وجدت حلاً لمشكلة التكاثر غير حل التفرقة بين الجنسين لاختلفت حياتنا العاطفية اختلافاً جوهرياً . فهذه الوظيفة الجنسية لها تأثير عميق شامل ولاسيما عند المرأة بحيث إننا لن نصل إلى فكرة صادقة عن الطبيعة البشرية إذا نحن أهملنا البحث فى علاقة الجنس بالحساسية الجمالية . إلا أننا يجب علينا ألا نتوقع وجود فرق كبير بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بميدان الاهتمام الجمالى أو بالموضوعات التى تشير هذا الاهتمام . فالعامل المهم فى الحياة العاطفية ليس هو نوع الجنس الذى يتنى إليه الحيوان وإنما كونه يتنى إلى أحد

الجنسين على الإطلاق . وإذا درسنا المشكلة الصعبة التي كان على الطبيعة أن تحلها حينما عمدت إلى التناسل ، وما يتطلبه التناسل من تكيف دقيق في الغريزة ، فسئرى أن نظام الاستجابة والحساسية الذي يلزم وجوده في الفرد هو نفسه موجود في كلا الجنسين ، كما أن الجهاز التناسلي ذاته هو في جوهره نفس الجهاز الذي نجده عند الذكر والأنثى على السواء . فأفراد الأنواع المختلفة بل وأفراد المملكة الحيوانية كلها لهم نفس المزاج الجنسي وإن كان الموضوع المعين الذي هيئ لكى يثير الاستجابة الجنسية الكاملة يختلف بالطبع من نوع إلى آخر ، بل وحسب الجنس الذي يتسمى إليه الفرد .

ولو كنا بصدد دراسة فلسفة الحب بدلاً من فلسفة الجمال لكانت مشكلتنا هي اكتشاف الجهاز الذي يوجه بالتدرج هذه الحساسية الأساسية التي يشترك فيها جميع الحيوانات من كلا الجنسين إلى موضوعات أكثر تحديداً طول الوقت ، أولاً إلى نوع معين ثم إلى جنس معين وأخيراً إلى فرد بالذات . فلا يكفى أن يكون الجهاز التناسلي مختلفاً لدى الجنسين . وإنما يلزم وجود علاقة هذا الجهاز والحواس الخارجية بحيث يتسنى للحيوان أن يدرك موضوع اهتمامه الصحيح ويسعى وراءه .

وحالة الفرد الذي يظل مخلصاً طول عمره لرفيقه - وقد يكون حبه لهذا الرفيق يائساً لم ينل مأربه منه - إنما تمثل لنا أقصى درجات هذا التمييز . بل إن التمييز في هذه الحالة يتعدى المنفعة التي وجد لأجلها في



الطبيعة على العموم ؛ إذ أن الغرض من التمييز هو التكاثر بينما في هذه الحالة لا يؤدي التمييز إلى التكاثر . ومن الواضح أن تمييز الغريزة فيما يتعلق بالجنس والسن والتنوع لازم لكي تنجح الغريزة باعتبارها وسيلة للتكاثر . وحينما لا تكون القدرة على التمييز كاملة - وغالبًا ما تكون غير كاملة - فإننا نجد الكثير من التخبط والضياع . إلا أن عتف الغريزة وإخلاصها يعوضان عما يعوزها من الدقة . وهكذا نجد أن جزءًا كبيرًا من الطاقة الحيوية تستغرقه هذه الوظيفة التي لا يتحقق فيها التكيف التام . والنظام المثالي الذي يستطيع أن يتصوره الإنسان والذي يوفر لنا الاقتصاد كل الاقتصاد هو ما يلي : أن تكون الأنثى التي هي أكثر الإناث صلاحية للحمل من ذكر معين هي الأنثى الوحيدة التي تثير شهوته ، وألا تثير فيه هذه الشهوة إلا في الأوقات التي تناسب حملها منه فحسب . وهكذا تتحرر طاقته واهتمامه في غير هذه الأوقات من مطالب الغريزة الجنسية فيصرفهما في تنشيط ملكات الطبيعة البشرية الأخرى .

ولو تحقق هذا النظام المثالي لأصبحت الغريزة الجنسية كغيرها من الغرائز التي تتصف بالدقة والكمال في التكيف تقوم بنشاطها بدون وعي منا ، ولافتقدنا آثارها الثانوية التي هي وحدها موضع اهتمام الجمال . فهذا الضياع الذي تنطوي عليه الغريزة الجنسية أو هذه الأشعاعات التي تشعها هي التي تضفي الحرارة على الجمال . فكما أن القيثاره التي صنعت لكي تهتز حين تلمسها الأصابع تكون مصدرًا لبعض الموسيقى حينما

تهزها الريح ، كذلك نجد أن طبيعة الرجل التى هى بالضرورة شديدة التأثر بالمرأة ، تصبح فى الوقت نفسه حساسة إزاء المؤثرات الأخرى وقادرة على الإحساس بالرقّة والحنان إزاء كل موضوع . فقدرتنا على الحب هى التى تخلع على تأملنا هذا الوهج الدافئ الذى بدونه قد يعجز الجمال عن الظهور . إن العنصر العاطفى للحساسية الجمالية ، والذى لولاه لكانت إدراكية ورياضية بدلاً من كونها جمالية ، إنما يرجع بكليته إلى إثارة تكويننا الجنى إثارة خفيفة ومن بعيد .

وما كانت الجاذبية الجنسية لتستطيع أن تؤدى عملها على الوجه الكامل لو لم يسبقها المجداب الحواس . إذ لا بد للعين والأذن أن يسحرهما ويهرهما الموضوع الذى قضت الطبيعة على الكائن أن يسعى وراءه . ولهذا السبب نجد أن كلا الجنسين قد نشأت فيهما مميزات جنسية ثانوية ، وفى الوقت نفسه نجد أن الانفعالات الجنسية قد اتسع مجالها بحيث أصبحت تثيرها موضوعات ثانوية متعددة . فنجد أن اللون والرشاقة والشكل التى أصبحت تثير الانفعال الجنى وصارت من العوامل التى ترشد الفرد إلى الاختيار الجنى ، نجد أن هذه الصفات تكتسب جاذبية معينة فى ذاتها ، أى قبل أن تقوم بوظيفتها الجنسية . وليس السبب الوحيد فى وجود هذه الجاذبية ما يمكن تسميته سبباً غائياً بمعنى أن هذه الصفات كانت فى الماضى وسيلة مفيدة تستهدف تحقيق التناسل . وإنما السبب فى قوة تأثير هذه الأشياء وحدته يرجع إلى كونها فى الوقت نفسه

تثير دوافع جنسية عميقة . ولكن ليس معنى ذلك أن المشاعر التي تثيرها هذه الأشياء ترتبط بصور أو أفكار جنسية معينة ، بل إن هذه الصور الجنسية لا تظفرأ فى ذهن الشخص الحىى غير المجرب حتى فى عواطفه التى من الواضح أنها عواطف جنسية ، مثل عواطف الحب والغيرة .

ويجب أن نسمى هذه الموضوعات الثانوية التى هى من أبرز عناصر الجمال موضوعات جنسية لهذين السببين : أولهما أن ظروف الوظيفة الجنسية قد ساعدت على إيجادها فى الجنس البشرى . والسبب الثانى هو أنها تستمد معظم جاذبيتها من اشتراك حياتنا الجنسية فيما تولده من استجابات .

ولو أراد المرء أن يخلق كائنًا له ميل كبير إلى الجمال لما وجد ما هو خير من الجنس يمنحه إياه لتحقيق مآربه . ولو لم يكن الفرد مجبرًا على الاتحاد بفرد آخر لكى يتكاثر ويرعى ذريته لظل فى حالة وحشية من الاستقلال ولما كان فى حاجة لأن يجذب بصره منظر أى شىء أو أن يحس بحنين إلى أى شىء . ولكن الجنس يضى على الفرد غريزة قوية صامته تحمله جسديًا وروحًا نحو فرد آخر دائمًا ، وتجعل من أحب الأشياء إلى نفسه اختيار رفيق له والسعى إلى الحصول عليه ، كما تجعل امتلاكه لهذا الرفيق مصحوبًا بأكثر اللذات حدة وتنافس مع الغير عليه مقرونًا بأعنف الغضب ، وتخلع على وحدته كآبة أبدية .

وما الذى نحتاج إليه أكثر من ذلك، حتى يصبح العالم مشبعاً بأعمق المعانى والجمال ؟ إذ يركز الفرد اهتمامه على موضوع محدد ويعتبر كل ما يولده فى نفسه من أثر قوى أو صفات فى هذا الموضوع . بل إن الآثار التى يولدها فى نفسه هذا الموضوع آثار عميقة جارفة : فهو يهزه ويمس أعماق روحه ، ويسرر ما فيها من كنوز إلى عالم الشعور ، فإذا بالخيال ييمت والقلب يستيقظ لأول مرة . وتتلور هذه القيم الجديدة حول ما يعرض على العقل من موضوعات . فإذا شغلت خيال المرء صورة شخص واحد كانت لصفاته القدرة على إيجاد هذه الثورة فى نفس هذا المرء فإن القيم فى هذه الحالة تتجمع حول هذه الصورة ويصبح موضوع اهتمام المرء كاملاً فى نظره وحيث نقول إن هذا المرء فى علاقة حب<sup>(١)</sup> . أما إذا لم يظهر المؤثر فى صورة محددة فإن القيم التى تبعث تنتشر فى العالم بأسره وحيث نصف أنفسنا بأننا أصبحنا نعشق الطبيعة وبأننا اكتشفنا ما فى الأشياء من معنى وجمال .

ويتركز هذا النوع من الاهتمام إلى حد ما فى الموضوع الحقيقى للعاطفة الجنسية ، وفى المميزات الخاصة للجنس الآخر . ولذلك نجد أن المرأة هى أجمل موضوع فى نظر الرجل وأن الرجل هو أكثر الموضوعات إثارة لاهتمام المرأة وإن كان ما فى المرأة من حياء يمنعها من الاعتراف

---

(١) قارن Stendhal, De l'amour, passim.

بذلك . إلا أن آثار هذه الاستجابة الأساسية البدائية أعم من ذلك بكثير . فليس الجنس موضوع العاطفة الجنسية الوحيد : وإنما نجد أنه عندما لا يجد الحب موضوعه الخاص ، أى عندما لا يعزبم الحب ذاته ، أو عندما يضحى به فى سبيل شىء آخر تندلع نار الحب المكبوتة فى اتجاهات أخرى عديدة . من هذه الاتجاهات الورع الدينى والتحمس فى حب الإنسانية عامة ، وحب الحيوانات الأليفة ، ولا يقل عن هذه الأشياء سعادة حب الطبيعة والفن ، فغالبًا ما تكون الطبيعة معشوقة ثانية تعزينا عن فقدان المعشوقة الأولى . وحينئذ تفيض العاطفة وتغمر بمباهها المناطق المجاورة التى كانت دائمًا فى الماضى ترويهها فى الخفاء . فالجهاز العصبى المتعلق بالجنس ، بما فيه من فروع متشعبة بالضرورة وبما له من ارتباطات بعيدة المدى فى الذهن ، لا بد أن تثيره إلى حد ما موضوعات أخرى غير موضوعه الخاص أو موضوعه النهائى ؛ ولا سيما فى حالة الإنسان الذى يختلف عن بعض صور الحياة الدنيا فى أن غرائزه ليست متميزة تمامًا ولا تنشط فى فترات معينة متقطعة وإنما هى دائمًا فى حالة نشاط جزئى ولا تكون أبدًا منعزلة فى نشاطها . وهكذا نستطيع أن نقول إن الطبيعة بأسرها موضوع ثانوى للعاطفة الجنسية بالنسبة للإنسان ، وأن ما يراه فى الطبيعة من جمال إنما يرجع إلى حد بعيد إلى ذلك .

## ١٤- الغرائز الاجتماعية واثرها الجمالى

ولم توجد وظيفة التكاثر تغيرات مباشرة فى الجسد والذهن فحسب وإنما أوجدت أيضاً مجموعة من النظم الاجتماعية مردها الغرائز والعادات الاجتماعية اللازمة للإنسان . وهذه المشاعر الاجتماعية مثل مشاعر الأبوة والوطنية أو مجرد الرغبة فى التجمع أو الاشتراك فى حياة الجماعة ليست لها قيمة جمالية مباشرة كبيرة ، وإن كانت - كما يبدو فى حالة البدع « المودات » - ذات أهمية فى تحديد شيوخ الذوق ومدة بقائه . إلا أنها عن طريق غير مباشر لها أهمية عظمى ، وتلعب دوراً كبيراً فى بعض الفنون مثل فن الشعر حيث لا يتوقف التأثير على الخواص بقدر ما يعتمد على المعنى . وتزداد قيمة العمل الفنى بنجاحه فى مخاطبة مواضع الاهتمام الإنسانى ، وليست مواضع الاهتمام هذه جمالية فى ذاتها ، إلا أنها تساعد على تركيز الانتباه وتوفر المادة اللازمة للفنون كما تزيد من قوة التذوق الجمالى . وهكذا ففهم عاطفة الحب لازم لتذوق كثير من الأغانى والمسرحيات والروايات وطائفة غير قليلة من التأليف الموسيقية ونتاج الفنون التشكيلية .

إلا أننا يجب أن نرجئ مناقشة هذه المسائل حتى نكون على استعداد لدراسة موضوع التعبير ، الذى هو أكثر عناصر التأثير تعقيداً . وكيفينا هنا أن نبين السبب فى أن الدوافع الاجتماعية التى تتألف السعادة فى معظمها من إشباعها هى أقل الدوافع تعضيداً للجمال . وقد يعيننا ذلك

على زيادة فهم ما بين علم الجمال وعلم الأخلاق حين يتخذ اللذة أساساً له ، (hedonics) ما بينهما من علاقات ، وعلى توضيح طبيعة عملية تحويل الإحساس إلى موضوع ، وهى العملية التى كما رأينا تميز الجمال من اللذة .

فطالما تصورنا السعادة كما قد يتصورها الشاعر ، أى فى حدود عناصرها العاطفية والحسية المباشرة ، وطالما كنا نعيش فى اللحظة ونجعل سعادتنا تتألف من أبسط الأشياء مثل التنفس والإبصار والسمع والحب والنوع ، طالما كنا نفعل ذلك كانت سعادتنا من نفس الجوهر ومن نفس العناصر التى منها تأتلف متعتنا الجمالية ، لأن سعادتنا فى هذه الحالة تتكون فى الواقع من متعة جمالية . غير أن الشعراء والفنانين على الرغم مما يستمتعون به من متع جمالية مباشرة فلا يعدون أفراداً سعداء . بل إنهم أنفسهم غالباً ما يرفعون أصواتهم برثاء أنفسهم ، ويرون أن أظهر ما يميزهم هو شقاؤهم البالغ . ومصدر ذلك هو حدة انفعالاتهم وعدم ثباتها وتهورهم وغرابة أطوارهم فى عاداتهم الاجتماعية . فبينما تغلب عليهم الوظائف الحسية والحيوية ترى غرائزهم الاجتماعية عندهم فى المكان الثانى ، بل غالباً ما يسودها الاضطراب ؛ فما قوام شقاؤهم إلا إحساسهم بعدم صلاحيتهم للعيش فى العالم الذى يولدون فيه .

إلا أن الإنسان حيوان اجتماعى أولاً ، وتكاد تكون حاجاته الاجتماعية فى أهمية وظائفه الحيوية ، بل إنه أكثر وعياً بها منه بوظائفه

الحيوية . ولا ريب أن العناصر الأساسية للسعادة هي الصداقة والغنى والشهرة والسلطان والنفوذ بالإضافة إلى الحياة العائلية . ولا تتألف هذه من صور محددة المعالم لما تكون عليه موضوعاتها إلا على نحو هو غاية في القصور ؛ فنحن لا نحس بالرغبة في هذه الأشياء أو نعي وجودها أو انعدامها من حياتنا إلا حينما نفكر ونضع الخطط للمستقبل أو نتأمل كلام الناس بما يتضمنه من احتقار لنا أو إعجاب بنا ، أو نتصور المواقف التي يمكن لما فينا من فضائل أن تظهر فيها على نحو أبرز أو التي تزيد من شهيرتنا أو سلطاننا ، أو حينما نقارن حياتنا بحيوات الآخرين وما إلى ذلك من عمليات التفكير الواعي . ولا يعثرنا إحساس عميق بالخوف أو الشك أو العزلة إلا حينما نتأمل حياتنا على نحو واعي ، ولذلك فلا تستطيع هذه الإحساسات أن تصبح بسهولة صفات في الموضوعات الخارجية . أما إذا قدر لها أن تصبح كذلك فحينئذ تكتسب قيمة جمالية كبرى . « فالبيت » مثلاً الذي هو بديلولة الاجتماعي تصور للسعادة يصبح تصوراً جمالياً أو شيئاً جميلاً حينما يتحقق في شكل كوخ وحديقة . وفي هذه الحالة تتحول السعادة إلى موضوع ويكتسب الموضوع جمالاً .

غير أنه ينبغي أن تصبح الموضوعات الاجتماعية جمالية على هذا النحو ، وذلك إذ لا يمكن تصورها بالخيال بهذه الدرجة من التحديد . فهي عادة مجردة ومشتتة وتتألف موادها من عناصر لفظية أكثر مما تتألف



من عناصر حسية . ولذلك، فلا يمكن تحويل ما يصاحبها من انفعالات  
 كبرى إلى جمال على نحو مباشر . وإذا كان الفنانون، الشعراء وغير  
 سعداء فذلك لأنهم فى نهاية الأمر لا يحفلون بالسعادة . إذ لا يستطيعون  
 أن يشدوها على نحو جدى لأن العناصر التى تتكون منها ليست عناصر  
 جمالية ؛ ولما كانوا يعيشون الجمال فإنك تجدهم يهملون بل ويحتفرون  
 تلك الفضائل الاجتماعية التى تتألف السعادة من ممارستها والتى تخلو من  
 الجمال . ومن جهة أخرى نجد أن أولئك الذين ينشدون السعادة ولا  
 يتصورونها إلا فى الحدود التفليدية المجردة مثل المال والنجاح والحياة  
 المحترمة كثيراً ما يفقدون ذلك الجزء الأساسى الحقيقى من السعادة الذى  
 ينساب من الحواس والمخيلة وهذا هو الجزء الذى يقره « الجمال » فى  
 الحياة ، إذ يمكن للجمال أيضاً أن يكون سبباً من أسباب السعادة وعاملاً  
 من العوامل التى تتكون منها . ومع ذلك فالسعادة التى تنشأ عن حب  
 الجمال، إما أن تكون مسرفة فى جانبها الحسى بحيث يعوزها الثبات ، وإما  
 أن تفرق فى الرومانسية وفى التعلق بما يكون غاية الغايات بحيث لا تصبح  
 سعادة فى نظر العقلية الدنيوية .

## ١٥- الحواس الدنيا

إنه على الرغم من أن حواس اللمس والذوق والشم قابلة بغير شك  
 للتطور الفسيح ، إلا أنها لا تخدم الأغراض العقلية لدى الإنسان بمثل ما

تفعل حاستا البصر والسمع . فهي تظل عادة في مؤخرة الوعي وتقدم لنا أقل مقدار من الأفكار التي يمكن تحويلها إلى موضوعات ولذلك كان من الطبيعي أن تظل اللذات المتعلقة بها منفصلة بدورها فلا تستخدم لأغراض تذوق الطبيعة . لذلك سميت هذه الحواس بالحواس غير الجمالية وبأنها حواس دنيا . وإذا كان هذا الوصف صادقا ، وليس في صدقه من شك ، فلا يرجع ذلك إلى أن هذه الحواس في ذاتها وضعية أو حيوانية وإنما يرجع إلى طبيعة الوظيفة التي تقوم بها في تجاربنا . فمن العيوب الكبرى في حاستي الشم واللمس ، مثلهما في ذلك مثل حاسة السمع ، كونهما في ذاتهما غير مكائيتين ؛ ولذلك لا تصلحان لتمثيل الطبيعة ؛ لأن الطبيعة لا يمكن تصورها تصورا دقيقا إلا في حدود مكانية (١) . وفضلا عن ذلك فهما لم تبلغا درجة النظام التي بلغتها الأصوات ولذلك فلا تبعثان على نشاط للإحساسات الذاتية مما يمكن مقارنته بالموسيقى في إثارته للاهتمام .

كذلك يرجع تحويل الأشكال الموسيقية إلى موضوعات خارجية إلى ما تتصف به تلك الأشكال من ثبات وتعقيد ؛ فنحن نتصورها كما نتصور

---

(١) ليس هذا مجالاً لمناقشة القيمة الميتافيزيقية لفكرة المكان . وكفيينا هنا أن نبين أنه فيما يتعلق بالتجربة الإنسانية نجد أن المعرفة النافعة لبيتنا لا يمكن الحصول عليها إلا من خلال رموز مكانية . وسواء أكانت أسباب ذلك ضرورية أم عرضية فهذه هي اللغة التي يتحتم على العقل أن يستخدمها إذا كان يستهدف الوضوح والدقة .

الألغاز موجودة في وسط اجتماعي ، ويمكنها أن تكون جميلة دون أن تتحدق في صفة المكان . أما الطعم-وم فلم يكن من المستطاع تصنيفها وتذكرها ، إلى هذا النحو الدقيق الكلي ؛ فلا تمكننا أداة الإحساس هنا كما تمكننا الأذن من التمييز الدقيق الثابت . وعلى الرغم من أن الناس كافة يارسون فن مزج الصحاف « الألباق » المختلفة وشتى صنوف النيذ كل بحسب قدرته واهتمامه فإن المادة التي يستخدمها هذا الفن يصعب تمثيلها أو تدويرها بحيث تصبح جميلة . ولذلك يظل هذا الفن في نطاق اللذة فحسب ويعتبر فناً مفيداً أكثر منه فناً جميلاً .

وقد عمد إلى استخدام هذه الحواس الدنيا دائماً أولئك الذين يمكن تسميتهم « فنانى الحياة » إذا جار أن نستخدم هذه العبارة قاصدين بها أولئك الذين يجمعون من حياتهم الاجتماعية والمنزلية . والمثل الأعلى للترف الشرقى - ذلك المثل الذى لن يفقد جاذبيته أبداً لما فيه من عناصر تبهم بها الطبيعة البشرية - يتألف فى نظرنا من حديقة فيحاء وطعام شهى وبخور وعطور وأشياء ناعمة اللمس واللوان زاهية . ومع ذلك فلم يحاول شعراء الشمال أن يثيروا هذه الصور فى حداثها الحسية دون أن يقللوا من هذه الحدة عادة بوساطة اللمسات الخيالية . فنجد مثلاً هذه الأبيات عند كيتس :

« ومازالت راقدة فى نومها ذى الجفون الزرقاء

مدثرة فى غطائها الأبيض الناصع الناعم المعطر

فى حين راح هو يحضر من الغرفة كومة من التفاح المسكر  
والسفرجل والبرقوق والقرع العسلى  
ومن ضروب الرب ما هو أكثر نعومة من القشدة  
والشراب المتألق الممزوج بشيء من القرفة .  
والمن والبلح الذى حملته السفن من مدينة قاس  
وكل ما لذ وطاب من سمرقند ذات الحرير إلى لبنان  
ذات أشجار الأرز «

ونشاهد فيها أن كينس ذاته الذى هو أكثر الشعراء الإنجليز حسية ،  
والذى كان يسيطر عليه حبه للجمال ، لم يستطع أن يظل طويلاً فى  
ميدان العناصر الأولية للجمال ، وإنما كان لابد له أن يحلق بخياله إلى  
مستوى أسمى من ذلك . وإذا كنا نقلق لهذه العناصر الحسية فلا يلبث  
أن يزول قلقنا حينما نجد الإشارة إلى كون البلح قد حملته السفن من  
مراكش وإلى جمال أشجار الأرز بلبنان الذى لا يجد حتى المتطهرون  
الأتقياء حرجاً فى التغنى به بحيث نستمتع بهذا الوصف دون أيما حرج  
ونوفق بين ضميرنا وبين هذا الإغراق فى الحسيات الذى لا يتلاءم مع روح  
المسيحية !

لكن ربما نكون قد دنونا من يوم يقل فيه الحرج إزاء الجمال المحسوس حيث يقيم الشعر وغيره من الفنون في موطن قريب من منبع الإلهام كله ؛ لأنه إذا لم يكن فى العقل شىء لم يسبق وجوده فى إدراكات الحس فما أصدق هذا القول على الخيال ذاته الذى لا بد لمادته أن توجد فى عالم الحس أولاً . فلو لم تكن أشجار الأرز بلسببان تبسط ظلالها المريحة وتهب الرياح فى أغصانها المتشابكة فيسمع حفيفها ، ولو لم تكن لبنان بلدًا تسر لرؤيته العين ، أو تلتذ له الحواس ، لما أصبحت موضوعًا شعريًا أو موضوعًا يليق بالشاعر أن يشير إليه كما يفعل هنا . وما كان للفظه « فاس » قيمة خيالية لو لم يحس المسافر إليها بنشوة الشمس المتأججة ، وبحنين الترف الشرقى ، أو لو لم يصح بها ذلك المسافر قائلًا كما فعل الجندى البريطانى وسط أخلاقيات بلده الكئيبة :

« خذنى إلى مكان ما شرق السويس

حيث ينعدم الفرق بين الأفضل والأخس

. حيث لا توجد الوصايا العشر

وحيث يستطيع المرء أن يطفى غلة ظمته » .

وما كان لسمرقند أى قيمة بدون سر الصحراء وغرابة القوافل ، وما كانت السفن موضوعات شعرية لو لم يكن فى البحر أصوات وزيد ، ولو لم تكن الرياح تقاومها والمجاديف عسيرة التحريك ، ولو لم يكن بها دفعة

وقلاع يصعب نشرها . إن الخيال ليستمد حياته من هذه الإحساسات الحقيقية التى هى مصدر ما فى الإيحاءات من قوة . حقًا إن شطحات الخيال ذاتها مصدر لذة ؛ إلا أن سمو الشيء البعيد النائم على الشيء الحاضر إنما يرجع إلى كمية اللذات العديدة المتباينة التى يوحى بها بالقياس إلى اللذات المحدودة الفقيرة التى نعس بها فعلاً فى أية لحظة من اللحظات .

## ١٦- الصوت

من عيوب الصوت - شأنه فى ذلك شأن الحواس الدنيا - أنه ليس بذى صفة مكانية بحكم طبيعته . ولذلك فلا يكون الصوت جزءاً من العالم الخارجى كما نجرده لأنفسنا على نحو ملائم ، كالا ولا يمكن لنشوات الأذن أن تصبح صفات فى « الأشياء » بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة . إلا أن الأصوات تتدرج فى المقام على نحو مستمر بديع ، وتحقق فى أطوالها علاقات من الممكن قياسها بحيث ينتج عنها موضوع يوشك أن يبلغ تركيب عناصره وفى إمكان وصفه مبلغ الأشياء المرئية . فالذى يضيف قيمة على الأشكال المكانية من حيث هى وسيلة لوصف البيئة ، هو أنه يمكننا بسهولة أن نميز بين الموضوعات المكانية ونقارنها بعضها ببعض ، أى أنه يمكن قياسها ، على العكس من الإحساسات اللامكانية التى يتعذر عادة قياسها . إلا أن الأصوات بدورها يمكن قياسها

داخل، حدودها : فلها مقامات، وأطوال تسهل مقارنتها ، ومن الممكن أن توجد تراكيب محدودة مميزة من هذه العناصر الحسية هي في الحقيقة « أشياء » مثل المقاعد والمناضد تمامًا . وليس معنى ذلك أن القطعة الموسيقية أو التركيب الموسيقى موجود على نحو صوفى ، في شكل جزء من موسيقى الأجرام السماوية التي لا يسمعا أحد بالفعل ، بل معناه أن الأشياء المرئية نفسها هي بدورها أيضاً - في نظر الفلسفة النقدية - إمكانات للإحساس لا أكثر ولا أقل . فالعالم الحقيقي هو مجرد ظل لثوقنا - في حالة السلامة العقلية - بما عسى أن يقع لنا من تجربة ؛ ولك أن تخلع صفة الموضوعية على أية صورة من خلق الفكر . ادامت تتحقق فيها درجة كافية من المضمون والتماسك والفردية بحيث يمكن وصفها وتمييزها ؛ وهي كلها صفات تتوافر في الأفكار المسموعة كما تتوافر في الأفكار المكانية سواء بسواء .

فهناك إذن ما يسوغ إلى حد ما قول شوبنهور الذي قاله بعد تأمل ، وهو أن الموسيقى تكرر لعالم الحواس بأسره وأنها طريقة أخرى للتعبير عن الإرادة أو الجوهر الباطن . فلا شك أن عالم الصوت له القدرة على التنوع اللامتناهي ، ولو كانت حاسة السمع لدينا مرهفة حقاً لأدركنا أن عالم السمع له أيضاً القدرة على الامتداد اللامتناهي . وهو لا يقل عن عالم المادة في إثارة اهتمامنا وإيقاظ انفعالاتنا . وله بالقوة من المعنى ما لا يقل عن عالم المادة . إلا أنه بالفعل أقل ثباتاً وأصعب استخداماً ،

ولذلك فالموسيقى التى تعتمد على المواد الصوتية إنما هى أقل الفنون إنسانية وتعليمًا وإن كانت أكثرها صفاء وتأثيرًا .

وتقوم لذة الأصوات على أساس فيزيقى بسيط . فجميع الإحساسات لا تكون مصدر لذة إلا حينما تقع بين درجات معينة من الحدة . ولكن الأذن تستطيع أن تميز بسهولة بين الأصوات التى هى فى ذاتها غير شائقة ، إن لم تكن تحدث الضيق فى النفس ، وبين النغمات التى لها جاذبية لا يغفل عنها الإنسان . ويصبح الصوت نغمة حينما تتكرر النبضات الهوائية التى تحدثه على فترات منتظمة . أما إذا لم يتحقق هذا التكرار المنتظم للموجات فإن الصوت يصبح مجرد ضوضاء . وسرعة هذه الدقات المنتظمة تحدد مقام الأنغام . والذى يميز صوتين من نفس المقام والحدة هو اختلافهما فى مدى تعقيد الموجات فى الهواء . ولذلك كانت القدرة على التمييز بين الموجات المختلفة فى الهواء المذبذب شرطًا لازمًا للإحساس بالموسقى . فلكل موجة طولها الخاص ، وما نسميه ضوضاء ليس إلا خليطًا من نغمات بلغ التعقيد فيها حدًا بعيدًا بحيث يتعذر على سمعنا أو انتباهنا التمييز بينها .

ونجد هنا فى بداية موضوعنا مثلًا واضحًا للصراع بين المبادئ الذى يظهر فى شتى مظاهر الجماليات والذى هو مصدر التضارب فى الذوق ويفسر لنا هذا التضارب . فلما كنا نسمع النغمة حينما يمكننا تمييز مجموعة من الذبذبات المنتظمة من فوضى الصوت لذلك يبدو أن إدراك



هذا العنصر الفنى وتقديره يعتمدان على التجريد ، أى على حذفنا من ميدان الانتباه جميع العناصر التى لا تتبع قانوناً واحداً بسيطاً . ويمكننا تسمية هذا المبدأ مبدأ النقاء . ولكن لو كان هذا المبدأ هو المبدأ الوحيد الذى يعمل به لكانت أجمل الموسيقى هى نغمة الشوكة الرنانة . إلا أن مثل هذه الأصوات النقية ، وإن كان الطفل يجد فيها متعة ، لا تلبث أن تصبح عملة بعد حين . ولذلك كان لابد من التوفيق بين مبدأ النقاء ومبدأ آخر يمكننا أن نسميه مبدأ الاهتمام ؛ إذ لابد للموضوع أن يتحقق فيه القدر الكافى من التنوع والتعبير لكى يحافظ على اهتمامنا فلا يجعلنا نمله ولكى يثير طبيعتنا على نطاق واسع .

وحسب ازدياد حدة حساسيتنا إما للنتائج أو للأداء ذاته ، نجد أطيّب الأثر قد اقترب إما إلى هذا الطرف أو إلى ذلك من هذين الطرفين النقيضين وهما : الجمال الممل أو التعبير غير الجميل . ولكن هذين المبدأين كما هو واضح غير متكافئين فى الأهمية . فالطفل الذى يستمتع « بشخصاخته » أو بزمارته إنما يستمتع متعة جمالية مهما كانت هذه المتعة من نوع فحج ، ولكن الرجل المتمكن من صنعه الفنية والذى يعزف لنا قطعة موسيقية تخلو من الجاذبية الحسية تماماً ليس بالموسيقار وإنما هو يقوم بشئ أشبه بالرياضة البدنية . كذلك الكاتب الذى لا تتحقق فى رواياته وقصائده إلا صفة التعبير فحسب بحيث لا يثير اهتمامنا فيها سوى معناها ومضمونها الخلقى ليس فناً وإنما هو مؤرخ أو فيلسوف . وهكذا فمبدأ

الذقاء لازم وجوهري التأثير الجمالى ولكن مبدأ الاهتمام مبدأ ثانوى ،  
وإذا طبق وحده فلن ينتج لنا أى جمال .

غير أن التمييز بين مبدئين المبدأين ليس مطلقاً : فالإحساس البسيط  
مثير للاهتمام ؛ والتعقيد ، إذا أمكن تذوقه حسياً دون أن يحتاج إدراكه  
إلى الفكر الاستدلالي ، هو فى ذاته جميل . وقد يوجد عمل فنى يتألف  
من عناصر حسية لا تبعث على اللذة ، كالكلام الذى يخلو من صفة  
الموسيقى ، ولكن تركيبه وتعبيره يبعثان على المتعة . كذلك قد يوجد  
موضوع يبعث على الاهتمام دون أن يكون له تركيب يمكن إدراكه ، مثل  
النعيمات الموسيقية أو السماء الزرقاء . ولاشك أن الكمال هر فى اتحاد  
العناصر التى هى جميلة جميعاً ، وفى الأشكال التى هى فى ذاتها  
جميلة ، ولكن حينما يستحيل ذلك فإن الطبائع المختلفة تؤثر أن نضحى  
بأحد هذين المبدأين دون الآخر .

## ١٧- اللون

إن العين عضو حساس له قدرة هائلة على التمييز بحيث إنه يستطيع  
أن يميز تأثيرات أشد دقة من تأثيرات الموجات الهوائية . ويبدو أن هناك  
سائلاً متشكراً فيما بين النجوم من مكان ، لأنه سرعان ما يصل إلينا  
الضوء المنبعث من أبعد نجم عنا . ولا نستطيع أن نفهم كيف يمكننا أن  
ندرك هذا الاشعاع الضوئى ، الذى ينبع من مناطق خارج مجال الغلاف

الجوهر للأرض ، بدون وساطة أى شئ . والوسيط الذى نفترض وجوده هو الأثير . ومن طبيعته ان قادر على التأذيذ السريع بحيث ان الأثير بذباته غير جميع الآباهات مثلما تنتشر موجات الصوت . إلا أن ذبذبات الضوء أسرع من موجات الصوت بكثير ، ويسهل علينا إدراك ذلك من الأثير من المشاهدات العامة مثل سماع الرعد بعد مضي فترة زمنية ملحوظة من رؤية البرق . ولما كانت الطبيعة يلوها هذا السائل الحساس الذى ينتشر ذبذبات الضوء التى تنشأ فى أى نقطة إلى جميع المسافات ، ولما كانت هذه الذبذبات تنعكس كلها أو بعضها . ولما يفترض طريةها جسم صلب ، فقد أصبح من المفيد جداً لكل حيوان أن ينسى ثوب نفسه عضواً يتميز بحساسية إزاء هاه الذبذبات ، أى يتميز بحساسات للضوء . فهذه الوسيلة ينهل الذهن انطباعات مباشرة للأشياء البعيدة ، انطباعات تحدها طبيعة هذه الأشياء .

ولا بد أن يكون هذا هو سر أهمية البصر الأواية فى إدراكنا الحسى مما يجعل النور الرمزي الطبيعي للمعرفة . وحينما جاء الوقت الذى قفز فيه العقل الانسانى قفزه الميتافيزيقية الكبرى ، فتخيل لمضمونه وجوداً دائماً مستقلاً عن العقل ، أو بعبارة أخرى ، حينما أخذ العقل يتصور « الأشياء » فإنه كان لزاماً عليه أن يبنى تصوره لهذه الأشياء أو يركب أفكاره عنها من المادة التى كانت حاضرة بالفعل فى العقل . إلا أن أكثر هذه المادة صلاحية لعملية التركيب هذه هى ما تجمعها العين ؛ فالعين هى

التي تربط بيننا وبين بيئتنا الحقيقية على أوسع نطاق ، وهي التي تذرنا بأسرع ما يمكن بما استلقاه من انطباعات . إن للبصر وظيفة تنبؤية ؛ ونحن لا نهتم به لذاته بقدر ما نهتم بما يوحى به من الأشياء التي ستلحقه . والبصر وسيلة تقدم إلينا سيكولوجيًا ما هو غائب عمليًا . ولما كان جوهر الشيء معناه وجوده في غيابنا كنا لذلك نتصور الأشياء على نحو تلقائي في حدود البصر .

البصر إذن هو الإدراك الحسى ببدلوله الدقيق ، لأننا نكون أكثر وعيًا بالأشياء ويتم وعينا بها بأكبر مقدار من السهولة عن طريق الوسائل البصرية وفي حدود البصر . وبما أن قيم الإدراك هي القيم التي نسميها جمالية وبما أنه لا يوجد جمال بدون تصور للموضوعات المستقلة عنا ، فإننا قد نتوقع أن يكون المصدر الأساسى للجمال هو اللذات البصرية . كما أننا غالبًا ما نتصور الشكل الذى يكاد يكون مرادفًا للجمال على أنه شيء بصرى : أى أنه تركيب لما هو مرئى . ولكن تأثير الشكل لا يظهر فى الخيال ، الذى يقوم بعملية التركيب ، إلا بعد تأثير اللون . وتأثير اللون مجرد تأثير حسى ولا يختلف فى ذاته عن تأثير أية حاسة أخرى . ولكن لما كان تأثير اللون أوثق صلة من سائر الحواس الأخرى بإدراك الأشياء فسرعان ما يصبح هذا التأثير عاملاً من عوامل الجمال على نحو لا يأتى لغيره من الحواس .

وتختلف قيم اللون اختلافاً بيناً وهي تشبه في ذلك القيم المختلفة التي للإحساسات الأخرى . وكما أن الروائح الذكية والفائحة أو النغمات العالية أو المنخفضة أو المقامات الكبرى والصغرى تختلف فيما بينها بسبب اختلاف إثارتها للحواس كذلك نجد أن اللون الأحمر يختلف عن اللون الأخضر والأخضر عن البنفسجى . فلكل من هذه الألوان عملية عصبية خاصة بها ، ومن ثم كان لكل منها قيمة خاصة . وهذه الصفة العاطفية للألوان لها علاقة بالصفة العاطفية للإحساسات الأخرى . ولهذا فلا ينبغي أن نعجب إذا كانت درجة الذبذبة العليا التي تنتج صوتاً حاداً في الأذن تتطوى إلى حد ما على نفس الإحساس الذى تولده درجة عليا من الذبذبة التي تنتج للعين لوناً مثل اللون البنفسجى . ومع أن الكثيرين يعجزون عن إدراك هذه العلاقات فإنه ليس من المستحيل أن نمنى الإحساس بها سواء عن طريق المصادفة أو عن طريق المراتبة . فمن آثار اللون ما يلذ له الجميع فى حين أن بعضها الآخر يولد إحساساً بالنشاز يكاد يشبه النشاز فى الموسيقى . وإذا طورنا حساسيتنا هذه على مجال أوسع فقد يودى ذلك إلى ظهور فن جديد مجرد ، فن يعالج الألوان كما يعالج فن الموسيقى الصوت .

غير أننا لم نعط لدراسة هذه الآثار الاهتمام الكافى ، ولم ندعها تتغلغل فى روحنا بحيث نعتبرها من الأمور الهامة . فتأثير الألعاب النارية والمبدع ( الكاليدوسكوب ) يبدو لنا من الأمور التافهة . إلا أن كل

ما له مضمون متغير فيه إمكانيات الشكل وبالتالي فيه إمكانيات المعنى أيضاً. وبولد الشكل متعة فى نفوسنا بمجرد اعتيادنا - عن طريق الانتباه- إدراك وتمييز ما فيه من تغير ، ويصبح له معنى حينما تخلق القيم العاطفية المختلفة لهذه الأشكال علاقة تربط الموضوع الجديد بجميع التجارب الأخرى التى تنطوى على انفعالات متشابهة ؛ وهكذا نضع هذا الموضوع فى الذهن فى سياق عاطفى محبب إلى النفس . فالوان غروب الشمس لها بريق يجذب الانتباه وفيها من اللبونة وعدم التحديد ما يسحر العين ، بينما يجتمع حول هذه الجاذبية ويزيدها عمقاً ما يرتبط بها من ارتباطات الغسق والمساء والسماء . وهذا يمكن لأكثر ضروب الجمال حسية أن يصبح مليئاً بالإحساسات العاطفية . كذلك فى زجاج النوافذ الملون بالكائنات مثل لكتل من الألوان الغرض منها أن تضىء تأثيرها القوى المباشر بحيث تزيد من حدة الانفعال المرتبط بموضوعات على درجة كبيرة من المثالية . وهكذا فالشئ الذى هو فى ذاته مجرد زينة براقعة لا معنى لها يصبح بما له من تأثير مطلق رمزاً بيناً لتلك المطلقات الأخرى التى لها تأثير مشابه فى الروح .

## ١٨- عرض لمواد الجمال

درسنا الآن أعضاء الإدراك الحسى التى تمدنا بتلك المواد التى منها نؤلف الأشياء ، وذكرنا أبرز اللذات التى تحدث فى هذه الأعضاء ولاتلبت

ان تمتزج بسهولة بالأفكار التي تأتي، إلينا عن طريق هذه الأعضاء .  
 ولاحظنا أيضاً أن هذه الأفكار على الرغم من برورها في وعينا النامي  
 النشيط ليست عوامل يتألف منها الفكر بمعنى أنها عناصر مستقلة تغذى  
 الفكر ، بقدر ما هي تمييزات وتميزات في محتواه ، على أنها بعد أن يتم  
 لها هذا التمييز والتجزئة ، تترك وراءها بظانة من شعور حيوى فليست  
 الحواس الخارجية إلا جزءاً من جهازنا الحسى بما فيه الجهاز العصبى ،  
 وليست الأفكار التي تأتي عن طريق إحدى الحواس أو عن طريق الحواس  
 مجتمعة إلا جزءاً من وعينا .

وكذلك رأينا أن اللذات التي تصاحب عملية تكوين الأفكار لذات  
 موحدة حيوية . وكما أنه من الضرورى للأغراض العملية أن نجرد ونميز  
 الدور الذى تقوم به إحدى الحواس عن الدور الذى تقوم به الحواس  
 الأخرى بحيث ندرك الانطباعات الخاصة المحددة لكل منها ، كذلك من  
 الطبيعى أن نقسم اللون العاطفى المنتشر فى الجسد بأسره بحيث نعزو  
 جزءاً من اللذة أو الألم لكل فكرة من الأفكار . وهكذا نصف لذاتنا بأنها  
 لذات اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ، وتصبح هذه اللذات عناصر  
 فى الجمال فى الوقت نفسه الذى تصبح فيه الأفكار المرتبطة بها عناصر فى  
 الأشياء الخارجية . إلا أنه تظل هناك بقية من انفعال كما تظل بقية من  
 إحساس . وقد أكدنا فى البداية أهمية هذه البقية ، وأعنى بها ذلك التيار  
 المتصل الذى تقع فيه شتى اللذات والآلام الجزئية .

ولا يمكننا فى الواقع أن نعزو جمال العالم ، كله أو معظمه ، إلى اللذات المرتبطة بهذه الإحساسات المجردة . فجمال المادة التى تتكون منها الأشياء هو وحده الذى ينبع من لذات الإحساس . أما أكثر التأثيرات أهمية فلا يمكن رده إلى هذه المادة وإنما هو يرجع إلى تنسيقها وإلى ما يتحقق فيها من علاقات تصورية ، ولذلك لا يزال يتحتم علينا أن ندرس تلك العمليات الذهنية التى ندرك عن طريقها هذا التنسيق وهذه العلاقات . وحيث نستطيع أن نضيف اللذات التى تربطها بهذه العمليات إلى اللذات المرتبطة بالإحساس باعتبارها عناصر أخرى أكثر دقة فى الجمال .

إلا أننا قبل أن نتحول إلى دراسة هذا الموضوع الأكثر تعقيداً يجدر بنا أن نذكر أن وجود المادة الحسية لا بد منه فى الجمال ، مهما كانت له من أهمية ثانوية ، فى الرداء الجميل أو البناء أو القصيدة مثلاً . فلا بد للشكل أن يكون شكلاً لشيء . ولذلك فإننا إن تجاهلنا مادة الأشياء أو قصرنا اهتمامنا على شكلها فى اكتشافنا الجمال أو إبداعه ستفقد فرصة تزيد التأثير غزارة وحدة دائماً ؛ فمهما كانت اللذة التى يبعثها الشكل فإن المادة تولد لذة أيضاً وتزيد القيمة النهائية للتأثير بإضافة هذه اللذة .

إن الجمال الحسى ليس أهم العناصر فى التأثير ولا هو أعظمها ، ومع ذلك فهو أكثرها بدائية وشمولاً باعتباره يتعلق بالأساس الذى لا بد للبناء أن يقوم عليه . ولا يوجد شكل لا تزيد المادة من تأثيره فى



النفس ، وتأثير المادة هذا الذى يوجد خلف تأثير الشكل يزيد من قوته ويخلع على جمال الموضوع حدة وكسماً ما كان يستطيع الموضوع أن يحققهما بدونه . فلو لم يكن معبد البارثينون مصنوعاً من المرمر ، ولو لم يكن التاج مصنوعاً من الذهب والنجوم من النار لكانت هذه الأشياء عديمة الجمال ضعيفة الأثر فى النفس . فالفتنة الأخاذة التى يسحر بها جمال المادة حواسنا، من شأنها أن نحفظنا- مادام الشكل أيضاً ذا جلال - وأن تسمو بنا وتزيد انفعالاتنا شدة . ونحن فى حاجة إلى هذا المؤثر لكى تصل إدراكاتنا إلى أقصى درجة من القوة والحدة . ولا بأسرنا شيء لم يتحقق الجمال فى كل نواحيه .

وهناك نقطة أخرى . وهى أن انتشار الجمال الحسى فى الشيء على نطاق أوسع يجعله فى متناول الجميع فعندئذ يتطلب خلق الجمال عدداً من العوامل أقل ، كما يتطلب تذوقه تدريجاً أقل ؛ فالحواس وسائل لا غنى عنها فى العمل ، طورتها حاجات الحياة . وحينما يكتمل نموها يولد ذلك انسجاماً بين غريزة العضو وتركيبه الباطن من ناحية وبين الفرص الخارجية لاستخدام هذا العضو من ناحية أخرى . وهذا الانسجام مصدر لذات دائماً . وهكذا نجد أن تدريب الحواس من الأمور الضرورية للإنسان ، بل غالباً ما يكون هذا التدريب أكثر ضرورة عند القبائل البدائية وربما عند الحيوانات منه عند أولئك الذين ينظرون إلى الأشياء نظرة كلية شاملة والذين تسميز أفكارهم بقسط أكبر من التجريد . وحينما نخلع على

الإنسان القدرة على التمتع بالجمال الحسن فإننا نضفي على حياته اهتماماً جمالياً وذلك دون أن نطالب منه أن يفرض أدتير مما هيأته الطبيعة له، أنه أو أن ينسحق، فهو نفسه قدرات لن تنحاه الفرص لاستخدامها إلا نادراً في حياته . فاهتمامه بالجمال حين يبد غنى . ون أن يضيف شيئاً إلى أثاره ، و يخلق عليه : ألا يتفق وطبيعته .

إن الذوق حينما يكون تلقائياً يبدأ دائماً بالحواس ؛ فالأفضل والبائسون - كما يقال لنا دائماً - يسرون بالألوان الزاهية المتعددة ، رأبسط الناس تذوقون ما في الستائر الإسلامية والألوان البراقة والأواني اللامعة من أناقة . ولو لم يوجد في الحدائق الريفية فضاء واسع وكتل كبيرة من الزرع لأصبحت مجرد مجموعة متراكمة من الأزهار البديعة . ولا تحتوى موسيقى الأطفال على أكثر من الضوضاء والحسوية ، كما أنه لا يتحقق في الأغاني البدائية من الشكل إلا ما يحتاج إليه لتأليف بعض الأنغام الريفية . ومع ذلك فلا يجدر بنا أن نأسف لهذا النقص أو لهذه الحدود ، لأنها دليل على الصدق . ولا يعني هذا الصدق انعدام الذوق وإنما يعني بدايته .

والشعب الذى لديه إدراكات جمالية صادقة يخلق أشكالاً تقليدية ويعبر عن أبسط الانفعالات فى حياته فى موضوعات لا تتغير وإن كانت لها دلالتها ، موضوعات تكررهما الأجيال جيلاً بعد جيل . أما إذا زال الصدق وحل محله الطموح المترفع ساد الذوق الفاسد . وجوهر الذوق

الفاسد هو إحلال القيم غير الجمالية محل القيم الجمالية . فحب المرء للخمر لاعتقاده أنه جميل قد يكون دليلاً على ذوق بدائي ، ولكنه لا يدل أبداً على ذوق مبتذل . ولكن إذا أحب المرء الجواهر لغلو ثمنها فقط فإن ذلك يدل على انحطاط ذوقه ، وهو يكشف عن الدافع الحقيقي الذى جعله يقتنيها حينما يضعها فى نسق قبيح الأثر مما يجرح الذوق السليم . ومعيار الذوق السليم واحد دائماً وهو ما إذا كان الشيء بحق مصدراً للذة . فإذا ولد الشيء لذة فى نفس الفرد كان معنى ذلك أن ذوقه سليم ؛ نعم قد يكون مختلفاً عن ذوق غيره ، لكن ذلك لا يقلل من أن له ، مثل ذوق غيره ، مبرراً ومن أنه قائم على أساس من الطبيعة البشرية . أما إذا لم يكن الشيء مصدراً للذة ففى هذه الحالة يكون حكمك رائقاً ؛ ولا تكون خطيبتك عندئذ هى الزندقة ، أى الخروج على مألوف الجماعة إذ أن هذا الخروج على مألوف الجماعة فى مجال التذوق الجمالى هو الأصل والأساس ، بل تكون خطيبتك هى النفاق الذى هو بمثابة إخراج المرء لنفسه من حظيرة التذوق الجمالى .

ومن أكبر الدلائل على النفاق عدم التأثر بالجمال الحسى . فحينما يظهر على الناس أنهم لا يحفلون بالآثار الأولية الأساسية ، وحينما يعجزون عن رؤية الصور اللهم إلا فى الإطارات أو رؤية أى جمال فى غير نتاج كبار الفنانين ، حيثئذ يحق لنا أن نشك فى صدقهم ، ويحق لنا أن نظن أنهم إنما يرددون الكلام كالبيغاوات وأن معرفتهم التاريخية

واللفظية إنما تخفى وراءها نقصاً طبيعياً فى إحساسهم بالجمال . وعلى العكس فحينما نجد أن عدم التأثر بأشكال الجمال الرفيع لا يحول دون الحب الطبيعى عند العاشق فحينئذ لا نفقد الأمل ، لأننا هنا نجد ذوقاً صادقاً سليماً يحتاج فقط إلى التجربة والخبرة حتى يتم تثقيفه . وإذا رغب الرجل فى الزينة والأضواء البراقة والأصوات الصاخبة والأبهة فذلك يدل على أنه فى حالة توازن جمالى ، أى على أن المظاهر فى ذاتها تهمة وأنه يقف أحياناً لكى يستمتع بإدراكه . وكل ما يحتاج إليه هذا الرجل حتى يتمكنه عاداته الجمالية من رؤية شتى نواحى الجمال والتناسب هو أن تتنوع مشاهداته ويتسع أفق تفكيره وتتطور قدرته على التمييز . وهذه جميعاً تستطيع أن تقوم بها التربية . وإذا لم تقم التربية بذلك وظل الرجل بليد الخيال على الرغم من مواهبه الحسية ، فعلى الأقل سيتمكن هذا الرجل من تذوق عنصر مباشر شامل من عناصر التأثير . وهكذا فجمال المادة هو الأساس الذى يقوم عليه الجمال الأسمى سواء أكان ذلك فى الموضوع الذى لا بد لشكله ومعناه أن يتجسما فى شىء محسوس ، أم فى ذهن المشاهد بحيث تظهر الأفكار الحسية أولاً ، ومن ثم فهى أول عناصر اللذة فيه .

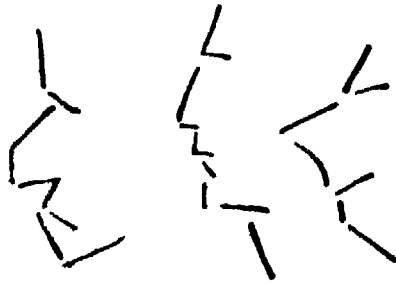
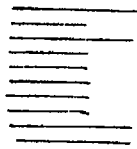
## الجزء الثالث الشكل

### ١٩- من أنواع الجمال جمال الشكل

إن أهم المشكلات التي تميز علم الجمال مشكلة جمال الشكل .  
فحيث توجد لذة حسية مثل لذة اللون ، وحيث تبعث عناصر الانطباع  
الحسى ذاتها على اللذة ، لا يلزمنا أن نبحث عن أسباب أخرى تفسر لنا  
ما نشعر به من لذة . وكذلك حيث يوجد التعبير ويكون الموضوع الذى  
لا يثير الحواس فى ذاته مرتبطاً بأفكار أخرى طريفة فحيث تتعقد المشكلة  
وتتنوع ولكنها تظل نسبياً مشكلة بسيطة من حيث المبدأ . غير أن هناك  
تأثيراً وسطاً بين هذين التأثيرين - الحسى والتعبيرى ، تأثيراً أكثر غموضاً  
وأدنى إلى تأثير الجمال بالذات . ويوجد هذا التأثير حينما تتحد مجموعة  
من العناصر الحسية التى هى فى ذاتها غير طريفة بحيث يبعث اختلافها  
على اللذة . وفى هذه الظاهرة من عنصر المفاجأة ما يجعل أولئك الذين  
يعجزون عن تفسيرها يطمثون أنفسهم بعدم وجودها .

وليس من السهل رد جمال الشكل إلى جمال العناصر التي يتألف منها لأن من أشهر التجارب وأسهلها تلك التجربة التي تبين لنا كيف أن أبسط الخطوط يختلف تأثيرها في النفس باختلاف النسب بينها . ولو كان جمال الشكل مرده جمال العناصر التي يتكون منها لكان العامة محقين في اعتقادهم أن جميع المنازل المبنية من الرخام متكافئة في جمالها .

ويبدو أكثر صواباً أن نرد جمال الشكل إلى التعبير . فإذا أخذنا مثلاً هذه المجموعة من الخطوط القصيرة التي لا معنى لها ( الميينة في هذا



الشكل ) ونظمتها بهذه الطرق المختلفة التي ترمى إلى تمثيل الوجه الإنساني ، ظهرت لنا في التوقيع جمالية متباينة . فأحد الأشكال الثلاثة يقرب من الجمال بينما الشكلان الآخران فيهما بشاعة على نحو مختلف .

وهذه الآثار المتباينة إنما ترجع إلى ما في الخطوط من تعبير . وليس ذلك لأنها تبعث في الذهن صور وجوه جميلة أو قبيحة فحسب وإنما

أيضاً لأنه يمكننا أن نقول إن هذه الوجوه هي في الحقيقة جميلة أو قبيحة تبعاً لما يرتبط بهذه النماذج المختلفة من ارتباطات حيوية وخلقية .

ومع ذلك فلا يمكن رد جمال الشكل إلى التعبير ، اللهم إلا إذا أنكرنا كلية وجود قيم جمالية مباشرة ورددناها جميعاً إلى ما توحى به من خير خلقى . وإذا كان الموضوع الذى يعبر عنه الشكل ، والذى يستمد الشكل قيمته منه ، يتصف ذاته بجمال الشكل فإننا لم نتقدم خطوة واحدة فى تفسيرنا ، ولا بد لنا إذن أن نصل إلى نقطة يكون التعبير عندها تعبيراً عن شئ غير الجمال ، هذا الشئ سيكون بالطبع إما خيراً عملياً أو خيراً خلقياً . وعلماء الأخلاق مغرمون بهذا النوع من التفسير الذى هو تفسير طريف حقاً : لأنه يجعل العلاقة بين الجمال والأخلاق هو نفس العلاقة بين الأخلاق واللذة والألم ويحيل الجمال والأخلاق إلى مجرد أحكام حدسية مختلفة على نفس المادة ، وهكذا يصبح الجمال والأخلاق مجرد موقفين مختلفين من نفس الموضوع .

إلا أن هذه النظرية لا يمكن قبولها فى الحقيقة ؛ فالعديد من التأثيرات الجمالية ، بل إن جميع التأثيرات الجمالية الخالصة ، عبارة عن تحول مباشر للذات والآلام . وهى لا تعبر عن أى شئ خارج عن ذاتها ، ناهيك بتعبيرها عن الفضائل الخلقية . فالخطوط المنفصلة فى الشكل

السابق لا تعبر عن أى شيء ومع ذلك فهى ليست عديمة الطرافة ، والخط المستقيم هو أبسط الأشكال وليس أقلها جمالاً . ومن يدعى أن ما فيه من طرافة يرجع إلى فكرة الاقتصاد فى الجهد والوقت حينما نسير فى أقصر الطرق أو إلى أى من الأفكار الأخرى المتعلقة بالمزايا العملية إنما هو إنسان لا يعرف الحقائق السيكولوجية معرفة عميقة . إذ يختلف ما يولده الخط المستقيم فى النفس من أثر عن أثر المنحنى على نحو واضح يكاد يكون عاطفياً ، كما تختلف الآثار التى تولدها المنحنيات المختلفة فيما بينها .

فالإحساس هنا مختلف فى نوعه ، كما تختلف الإحساسات التى تبعثها الألوان أو الأصوات المختلفة . ولا نستطيع أن نرد طبيعة هذه الأشكال إلى ما يتعلق بها من ارتباطات أكثر من أن نفسر دوار البحر بأنه يرجع إلى الخوف من الغرق . فلهذه الخطوط البسيطة صفة وقيمة مميزتان بل وغالبًا ما يكون لها أيضًا جمال موجود فى طبيعة إدراكنا لشكلها .

ولو لم نكن بصدد الكتابة فى علم الجمال لكان من التحذلق أن ننكر أن هذه الصفة جديرة باسم « التعبير » ، لأننا فى حديثنا اليومى نقول إن للدائرة تعبيرها الخاص ، كما إن الشكل البيضاوى له تعبيره أيضًا . ولكننا إذا دقنا فى الأمر وجدنا أن الدائرة لا تعبر عن أى شيء سوى الاستدارة وأن البيضاوى لا يعبر عن أى شيء غير طبيعة القطع الناقص ellipse وليست هذه تعبيرات عن أى شيء فى الواقع وإنما هى انطباعات . وقد تماثل هذه الانطباعات انطباعات أخرى ، فقد نسلم بأن



الروائح والألوان والأصوات تتطابق ويأن إحداها قد توحى بالأخرى . إلا أن هذا التماثل هو مصدر جاذبية إضافية يحس بها من له طبيعة حساسة ، ولا تتألف منه القيمة الأصلية للإحساسات . إن الذى يجعل هذه الإحساسات يوحى أحدها بالآخر ، ومن ثم يجعل مقارنتها ممكنة ، هو كونها يجمعها لون عاطفى واحد . وإن ما نسميه تعبيراً فى إحساسين إنما يرجع إلى اشتراكهما مصادفة فى صفة من الصفات ، صفة تؤثر فى حواسنا ولا علاقة لهذا التأثير بإدراكنا لنفس هذه الصفة فى مجال مختلف . ولذلك فإننا سنحرص على أن نبقى لفظ « التعبير » لنعنى به ما يقوم به الموضوع من عملية الإيحاء بموضوع آخر يمكن تحديده يستعير منه الموضوع المعبر بعض الأهمية أو الطرافة . وستحدث عن الصفة الماثلة فى الشكل بوصفها اللون العاطفى أو القيمة الخاصة لهذا الشكل .

## ٢٠- فسيولوجية إدراك الشكل

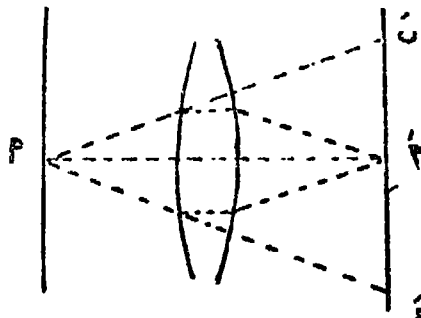
من الواضح أن ما فى الخط من جاذبية يوجد فى العلاقة بين أجزائه . ولكى نفهم ما فى العلاقات المكانية من أهمية أو طرافة يلزمنا أن ندرس كيفية إدراكنا لها <sup>(١)</sup> . لو كان سطح العين الحساس أو شبكيتها

---

(١) سنقصر المناقشة فى هذا الفصل على الشكل المرئى . أما الشكل المسوع فقد يكون من الممكن معالجته على مثل هذا النحو ، إلا أنه يتطلب دراسة فنية أكثر مما يمكن القيام به فى هذا المجال .

معرضة مباشرة للضوء لما استطعنا أن ندرك الشكل أكثر مما ندركه في الأنف أو الأذن اللتين تدركان الشيء أيضاً من خلال وسيط . وحينما لا يكون الإدراك عن طريق وسيط وإنما يتم مباشرة كما هي الحال في الجلد ، قد تتمكن من تكوين فكرة عن الشكل لأن كل نقطة في الموضوع ستثير نقطة ما في الجلد ، وكما أن الإحساسات في أجزاء الجلد المختلفة تختلف في نوعها فقد تنشأ في الذهن جمهرة من الإحساسات يتميز بعضها عن البعض الآخر .

أما حينما يتم الإدراك من خلال وسيط فتنشأ بعض الصعوبة



إن أى نقطة فى الشيء مثل أ ستُرسل أشعة إلى جميع نقاط السطح الحساس مثل أ ب و ج ، وفى هذه الحالة ستأثر جميع نقاط الشبكية على السواء لأن كل نقطة منها ستتقبل أشعة من ج أما جميع أجزاء الشيء ج أما

إذا كانت جميع الأشعة النابعة من نقطة أ ستتركز على نقطة مقابلة فى الشبكية مثل أ فيتحتّم حينئذ أن توجد بين الشيء المرئى والشبكية عدة مسطحات من شأنها أن تكسر الأشعة وتجمعها . وهكذا كان من شأن

العدسة بطبقاتها المختلفة أن تجعل تصوير الموضوع نقطة بعد نقطة ممكنًا للعين . وعدم وجود عضو كالعدسة فى الحواس الأخرى جعل من المستحيل تصوير الأشياء على نحو ما يحدث فى العين ، فالأنف مثلاً لا تشم فى جزء منها الرائحة المنبعثة من موضع فى المكان وفى جزء آخر الرائحة المنبعثة من موضع آخر ، وإنما تشم بدون تمييز الروائح المنبعثة من شتى مواضع المكان ممتزجة معاً ؛ ولاشك أن العيون التى تخلو من العدسات مثل عيون بعض الحيوانات توجد فقط شعوراً بضوء منتشر يستحيل فيه التحديد والتمييز بين أجزاء الحقل البصرى . وهكذا نجد أن تجريد اللون من الشكل ليس تجريداً صناعياً لأنه يمكن إدراك كل من اللون والشكل منفصلاً عن الآخر عن طريق تبسيط الحاسة .

وحتى إذا مكنت العدسة العين من استقبال صورة موزعة أو مجزأة للموضوع فإنه لا يلزم من ذلك أن تظهر جمهرة الإحساسات التى يشعر بها الوعى فى شكل أجزاء عديدة منفصلة فى المكان . فقد ترسل كل نقطة فى الشبكية انطباعاً منفصلاً إلى الذهن ، انطباعاً يطابق الإحساس ، ولكنه لا يلزم أن يكون فى نفس الوضع . فالأذن ترسل إلى الذهن جمهرة مماثلة من الانطباعات ( ذلك لأن فى الأذن أيضاً جهازاً يميز الذبذبات الخارجية المختلفة فى السرعة ويوردها على أجزاء مختلفة فى الأذن ) . ولكن هذه الانطباعات لا تتميز فى الذهن حسب أوضاعها بل حسب مقاماتها . كيف إذن يحدث أن جمهرة الإحساسات التى يوصلها

العصب البصرى تظهر فى الوعى فى صورة مكانية ، وكيف يحدث أن العلاقات بين عناصرها تبدو فى شكل علاقة فى الوضع ؟

لقد قدم علماء النفس المختلفون حلولاً مختلفة لهذه المسألة . منها أن العين بحركة غريزية تدور بحيث تحول كل انطباع إلى تلك النقطة من الشبكية بالقرب من مركزها حيث يوجد أكبر مقدار ممكن من الحساسية . وهكذا فكل استثارة محسوسة لأية نقطة بعيدة عن المركز يعقبها سلسلة من الإحساسات العضلية . ويشير الشيء المرئى عدة نقط فى الشبكية فى حين تقربه العين من مركز الرؤية . وهذه السلسلة من الإحساسات العضلية التى يسببها تحريك العين يرتبط بها الرمز المعين أو الصفة المميزة للإحساس الخاصة بكل من هذه النقط . بعد ذلك توظف هذه الإحساسات العضلية من جديد معاً . وكفى أن تستقبل أى نقطة على سطح الشبكية شعاعاً من الضوء حتى يشعر الذهن مع هذا الإحساس أو الانطباع بالإيحاء بالحركة وبالخط المكون من النقاط الممتد من النقطة المثاراة إلى مركز الرؤية . وهكذا تنشأ شبكة من الارتباطات يرتبط حسبها إحساس كل نقطة فى الشبكية بجميع النقاط الأخرى على نحو ما ترتبط النقاط فى المسطح . وهكذا تصبح كل نقطة مرئية نقطة فى مجال ما وتتجمع حولها إشعاعات - يحسها الرائي - لخطوط من الحركة الممكنة حولها . وهذا هو مصدر تصورنا المكائى للمرئيات ، فجمهرة الانطباعات الشبكية تورع على نحو يمثل لنا ما نقصده بكلمة سطح .

## ٢١- قيم الاشكال الهندسية

ولعل القارئ يغفر لنا هذه التفاصيل وما يتطلبه تتبعها من اهتمام بالغ حينما يدرك أنها ستعينه كثيراً على فهم قيمة الأشكال . فالإحساس بوضع أية نقطة يتألف إذن من توترات في العين، ولا تنزع العين إلى دفع هذه النقطة إلى مركز الرؤية فحسب وإنما تشعر بالإيحاء بجميع النقاط الأخرى المتعلقة بهذه النقطة في نسيج التجربة المرئية . وهكذا فتعريف المكان بأنه إمكان الحركة تعريف دقيق ذو معنى وذلك لأن إدراكنا الطبيعي المباشر للمكان يتضمن إثارة نزعاتنا العديدة لتحريك أعضائنا .

فمثلاً إذا وضعت أمامنا دائرة فإن العين ستسقط على مركزها بوصفه مركز الثقل الذي يجذب إليه جميع النقط إذا جاز هذا التعبير . وفي هذا الوضع يكون الإحساس المتولد لدينا متجانساً مهما كان الاتجاه الذي قد تدفع العين إلى النظر فيه ، وقد يفسر لنا ذلك الطابع العاطفي للدائرة . فهي شكل تنقصه صفة الإثارة على الرغم مما في بساطته وصفاته من جمال وعلى الرغم مما في اتصاله من روعة . بل، إن الدائرة غالباً ما تكون قبيحة في الفنون ولاسيما حينما توجد في مسطحات رأسية فلا يمكن رؤيتها في المنظور . أما في المسطحات الأفقية فيكون تأثيرها أجمل وذلك لأنها تبدو للعين قطعاً ناقصاً وللقطع الناقص تأثير أقل رتبة وأكثر إثارة من تأثير الدائرة . إذ تستطيع العين أن تتحرك فيه بسهولة وتنسق بين أجزائه وتميز بينها في الأهمية ، والعلاقات بينها وبين موضوع الرؤية

ليست واحدة فى جميع الاتجاهات . وتقل إمكانية القبح فى حالة الدوائر الصغرى لأن العين تعتبرها مجرد نقط ، ولأن هذه الدوائر تدخل التنوع على المسطحات وتساعد على تقسيمها دون أن تبدو فى ذاتها مسطحات .

أما الخط المستقيم فهو شكل غريب فى تحليله . ذلك لأنه ليس بالشكل الذى يسهل على العين إدراكه ، فنحن إما نثنيه وإما نتركه جانباً . وما لم يمر بمركز الرؤية فمن الواضح أنه عماس للنقط التى لها علاقات مماثلة لعلاقته بهذا المركز . والعلامات المحلية للنقاط أو توتراتها فى هذا المماس تختلف بحيث إنه مما يتعب العين أن تتابعه طول الوقت ، ومن ثم كان التأثير الذى يولده مصطنعاً . ولذلك فللخط المستقيم الطويل طابع جاف جامد ، وقد تجنبه الإغريق لبراعتهم فأدخلوا المنحنيات فى أعمدتهم وفى أروقتهم المعمدة . أما الشعوب المتبريرة فأكثر من الزخرف ومن الأشياء التى من شأنها أن تقطع هذه الخطوط المستقيمة .

وحينما يكون الخط المستقيم موضوع الاهتمام المباشر فإن العين تتابعه لإشك ، ولا تراه الأجزاء النائية من الشبكية فى وضع لا مركزى واحد . وينطبق على هذه الحالة الشائعة نفس التفسير ، فالشعور بأن العين تسير فى خط مستقيم يتكون من الإحساس الذى يظل قائماً أعنى إحساس الرائي بالوضع السابق ، ومن الطريقة التى تتداخل بها توترات المواضع السابقة بعضها فى بعض . أما إذا تغيرت التوترات تماماً من لحظة إلى

أخرى فإنها تولد تأثيراً متجزئاً متقطعاً كتأثير الخط المنكسر حيث تنتهي الحركات المترابطة ثم تبدأ من جديد وتنتهي وتبدأ ثانية وهكذا . أما فى حالة الخط المستقيم البالغ الطول فإننا نجد أن هذه النزعات إلى الحركات المترابطة تأخذ فى التمزق بالتدرج .

ونجد عكس ذلك فى المنحنىات التى نصفها بالانسياب والزشاقة . فمجموعة الحركات التى تحدث فى العضلات البصرية فى حالة هذه المنحنىات أكثر طبيعية وانسجاماً ، وتجد العين البصيرة فى بعض النقط عند مختلف الانحناءات إيقاعاً وعلاقات من التوافق والانسجام . إذ فى كل منعطف فى هذه المنحنىات نحس بالوضع السابق وفى الوقت نفسه نحس بالجلدة والتغيير . ومن السهل أن ندرك لماذا تولد هذه العلاقات من الانسجام والإيقاع لذة فى النفس ولا نحتاج لذلك إلى أكثر من معرفة سطحية بشروط اللذة المعروفة . إننا لم نشأ أن نبحث فى الأساس الفيزيقي للذة الذى هو موضوع عميق حقاً . ويكفي هنا أن نذكر أن المقاييس أو الأوزان سواء فى الكسم أو فى الحدة أو فى الزمن لا بد أن تتضمن تلك العملية الفيزيولوجية التى تتكون اللذة من وعينا بها ، مهما كانت طبيعة هذه العملية .

## ٢٢- السيمترية

ومن الأمثلة الهامة التي توضح هذه المبادئ الفيزيولوجية جاذبية السمات « السيمترية ». فإذا كانت العين لسبب من الأسباب قد عودت الاتجاه إلى نقطة بالذات مثل فتحة الباب أو النافذة أو مثل المذبح أو العرش أو المسرح أو المدفأة وحدث أن الموضوع لم يكن منسقاً بحيث تتوازن توترات العين ، ويكون مركز ثقل العين في النقطة التي يتحتم التركيز عليها ، فحينئذ يحدث تشتيت وإرهاق نتيجة لميل العين إلى النظر في اتجاه مختلف عن الاتجاه الذي يلزم لها النظر فيه . وفي مثل هذه الموضوعات نحتاج دائماً إلى « السيمترية » الثنائية . ونحن لا نشعر بضرورة « السيمترية » الرأسية لأن العين والرأس لا ينظران إلى الموضوعات من أعلى إلى أسفل بنفس السهولة التي ينظران بها من أحد الجانبين إلى الآخر . ولا يولد عدم التكافؤ بين الجزأين الأعلى والأسفل نفس النزعة إلى الحركة ونفس القلق الذي يولده عدم التكافؤ بين الجانبين الأيمن والأيسر من الموضوع المائل أمامنا . فالراحة والاقتصاد في الحركة اللذان يتتجان من التوازن العضلي في العين هما إذن في بعض الحالات مصدر قيمة « السيمترية » (١) .

---

(١) إننا أيضاً نميل إلى بعض أنواع « السيمترية » لعلاقتها بالاستقرار ، إلا أن ذلك اعتباراً عرضي لا يهمننا هنا .



وفى بعض الحالات الأخرى تستهويننا « السيمترية » لما فى التعرف والإيقاع من جاذبية . فحينما تستعرض العين واجهة البناء مثلاً وتجد الموضوعات التى تسترعى انتباهها مورعة على مسافات متساوية فحينئذ يطرأ على الذهن نوع من التوقع يشبه توقع النغمة التى لا بد من حدوثها أو اللفظة المطلوبة ، فإذا لم يشبع هذا التوقع أحسنا صدمة . فإن كان ما يحدث هذه الصدمة هو ظهور شىء جديد يشير الاهتمام على نحو مؤكد فإن الأثر الذى يتولد فى نفوسنا هو أثر الشىء الطريف Picturesque أما إذا لم يوجد ما يعوض هذه الصدمة فحينئذ نحس بما فى الموضوع من قبح ونقص وهو العيب الذى تتجنبه « السيمترية » . وعلى ذلك فهذا الضرب من « السيمترية » فى ذاته مزية سلبية وإن كان غالباً شرطاً لتحقيق أعظم المزايا ، ألا وهى القدرة على توليد اللذة دائماً . فالسيمترية هنا تضىء على الموضوع كمالاً يكون مصدرًا عامًا للسرور الهادئ ، نعود إليه بعد أن تكون حواسنا المتعبدة قد شبعنت نتيجة لانغماسها فى كل ما يثيرها من لذات . ويتميز هذا الجمال الهادئ بطابع باطنى راسخ لا يأتى من الخارج وإنما ينبع من طبيعة اللذة التى يتألف منها ، فحينما تواصل العين استعراضها للموضوع تجد نفس الاستجابة دائماً وتجد ما يشبعها فيه على حد سواء ، وصلاحيه الموضوع للإدراك تجعل من عملية الإدراك ذاتها مصدرًا للذة . وحينما تندمج الأجزاء على هذا النحو تكون موضوعاً واحداً

يعتمد ما فيه من وحدة وبساطة على الروى والانسجام والتطابق بين عناصره .

و « السيمترية » هنا هي ما يسميه الميتافيزيقيون بمبدأ الأفراد . ففى إبرازها للعناصر التى تتكرر تجزئة للمجال إلى وحدات محددة ، فكل ما يقع بين إيقاعين امتداد واحد ، أو قل إنه فرد متفرد ، ولو لم يكن هناك انطباعات متكررة أو نقط متطابقة لظل مجال الإدراك متصلاً على نحو غير محدد ولما أمكن تقسيمه إلى أجزاء محددة يمكن التعرف عليها . وإن الخطوط المسورة لمعظم الأشياء لتكون « سيمترية » لأننا نختار من الخطوط ما نجده سيمترياً فنجعله حدوداً تسور الأشياء . فسيمترية الأشياء إذن هي شرط وحدتها ووحدتها شرط فرديتها ووجودها المستقل .

حقاً إن التجربة لتعلمنا - لا شك - أن نعتبر الموضوع الذى لا يتحقق فيه « السيمترية » كلاً ، لأن عناصر هذا الموضوع تتحرك وتتغير معاً فى الطبيعة ، لكن مبدأ الأفراد فى هذه الحالة يكون « بعدياً » ( مستنداً إلى التجربة ويأتى بعدها ) إذ يبنى على أساس الربط بين عناصر يمكن التعرف عليها . ولكى نعرف على هذه العناصر ونتبين أنها مقترنة بعضها ببعض ، وأنها تؤلف شيئاً واحداً ، فلا بد لنا أولاً أن نميزها ، وقد تمكنا « السيمترية » التى هى فى أجزاء هذه العناصر أو فى أوضاعها مأخوذة على أنها مجموعات ، من تحديدها وملاحظة عددها .

وهكذا فمقولة الوحدة التي تطبقها دائماً على الطبيعة وعلى أجزائها تتخذ من « السيمترية » أداة لها وأساساً يقوم عليها تطبيقها .

وإذا كانت « السيمترية » إذن مبدأ من مبادئ الأفراد يساعدنا على تمييز الموضوعات فلا عجب إذن من كونها تساعدنا على الاستمتاع بالإدراك الحسى . فالعقل الإنسانى يحب الإدراك الحسى ، وليس الماء بالنسبة للحلق المتحرق عطشاً بأعذب من مبدأ الفهم للعقل إذا اختلط عليه الأمر . فالسيمترية من شأنها الإيضاح وكلنا يعلم أن الضوء عذب . ومع ذلك فلا يصعب علينا أن ندرك الأسباب التى تحد من قيمة السيمترية . فلا قيمة للسيمترية مثلاً فى الموضوعات التى يضؤل حجمها أو تسع مساحتها بحيث لا يظهر بسهولة شكلها وتركيبها فالسيمترية فى إحدى طرقات المدينة الكبرى يكون لها وقع جميل فى النفس ، أما فى حديقة عامة كبيرة ، أو فى تخطيط مدينة بأسرها ، أو فى الحائط الجانبى لمبنى متحف كبير فإنها تكسب المناظر المختلفة رتبة أكثر مما تضيف وحدة على أى منها . ولأن المعابد اليونانية قلما تكون كبيرة الحجم فلذلك ظهرت « السيمترية » فى واجهاتها جميعاً ، كذلك صممت الكنائس القوطية عادة بحيث تتحقق « السيمترية » فى صدورها الغربية وفى أجنحتها الفرعية ، فى حين أن جوانبها تخلو من « السيمترية » . وقد يكون ذلك من باب المصادفة البحت ونتيجة لما تطلبه التنظيم الداخلى للكنائس ولكنها كانت مصادفة سعيدة كما يتبين لنا حينما نقابل الأثر الذى تولده فى نفوسنا هذه

الكنائس بأثر مبانيها الكبرى العمامة مثل المحطات والمعارض حيث توجد « السيمترية » حتى فى واجهاتها الشاسعة التى يبلغ ارتفاعها حدًا يتعذر معه اعتبار أى منها وحدة واحدة . فلا تستطيع العين أن تستوعبها كلها فى نظرة واحدة ولا تحصل على أثر الراحة نسيجة للتوازن بين الأضداد ، فى حين أن ما تجده من تكرار آلى فى الأجزاء حينما تنظر إليها الواحد بعد الآخر إنما يولد إحساسًا بجذب القريحة جذبًا لا يعنى شيئًا .

وهكذا تفقد « السيمترية » قيمتها حينما لا نستطيع أن نؤدى إلى وحدة الإدراك نتيجة لحجم الشيء . إذ يتعين على عملية التركيب الموحد التى تساعد السيمترية على إيجادها أن تكون عملية مباشرة لا تتطلب وقتًا طويلاً . أما إذا كانت العملية العقلية التى نوحدها عن طريقها عملية استدلالية كما هى الحال مثلاً فى فهمنا كيفية تنظيم شوارع نيويورك وترقيمها ، أو تصميم قصر متيف معقد ، فحينئذ تكون مزية السيمترية عقلية ؛ فهى ستعيننا على تصور العلاقة بين الأجزاء وعلى تكوين خريطة للكل فى مخيلتنا ، إلا أنه لن يكون فى ذلك أى مزية للإدراك المباشر وبالتالي لن يوجد لدينا أى جمال جديد . والسيمترية فى هذه الأشياء لا حاجة إليها . كذلك لن تكسب صور الحيوان والنبات شيئًا بعرضها فى شكل سيمترى إذا كان المقصود أن نولد إحساسًا بما فيها من حركة وحياة . أما إذا كان غرضنا استخدامها بقصد الزخرف فقط بدلاً من التعبير عما فيها من حيوية فحينئذ نحتاج إلى السيمترية لتأكيد وحدتها

ونسيقها . ويرر لنا ذلك ما نجد في بعض ضروب الفن الدينى - مثل الفن البيزنطى والمصرى - من عادة استخدام الأسلوب التقليدى أو الاصطلاحى فى رسم الصور الحية ومن نزعة إلى استخدام أوضاع تتحقق فيها السيمترية على نحو دقيق . فهذه الوسيلة تزداد وحدة الصورة وقوتها دون أن توحى بالحياة والحركة الفرديتين ، اللتين قد تتنايان والوظيفة الدينية للموضوع باعتباره رمزاً وتجسيدا لإيمان مجرد .

### ٢٣- الشكل هو إيجاد الوحدة من الكثرة

من الواضح أن « السيمترية » نوع من الوحدة التى تتحقق فى التنوع ، فالكل هنا يحدده التكرار الإيقاعى للأجزاء المتشابهة . وقد رأينا أن « السيمترية » تكتسب قيمة حينما تساعد على خلق الوحدة . ويبدو إذن أن الوحدة هى ميزة الأشكال . إلا أن لحظة واحدة من التفكير ستوضح لنا أن الوحدة لا يمكن أن تكون مطلقة وتكون شكلاً فى الوقت نفسه . فالشكل هو جمع لعدة عناصر ولا بد أن تكون فيه هذه العناصر، وطابع الشكل عبارة عن كيفية اتلاف هذه العناصر . والإدراك البسيط بساطة مطلقة والذى لا يوجد فيه وعى بتميز الأجزاء وبالعلاقة بينها لا يكون إدراكاً للشكل وإنما يكون مجرد إحساس . ومن الناحية الفسيولوجية قد تجتمع مثل هذه الإحساسات معاً وقد تختلف قيمتها ، كما هى الحال فى النغمات الموسيقية ، تبعاً لكيفية تجمع العناصر الخاصة مثل

الذبذبات أو العمليات العصبية وما إلى ذلك ، ولكن الإحساس الذى يطرأ على الشعور فى هذه الحالة يكون إحساساً بسيطاً وتكون القيمة التى تتولد لدينا مصدرها لذة المعطيات ، لا اللذة التى نحصل عليها نتيجة قيامنا بعملية بالذات . ولذلك فالشكل لا يستهوى الشخص الذى لا يكون متيقظ الانتباه ، ومثل هذا الشخص لا يستمد من الموضوعات إلا إحساساً غامضاً قد يوقظ فى نفسه ارتباطات خارجية ، وهو لا يقف ليستعرض الأجزاء أو ليتذوق ما بينها من علاقات ، ولذلك فهو لا يحس بما فى طرق توحيدها من جاذبية تختلف باختلاف هذه الطرق وإنما تنحصر القيمة التى يجدها فى الموضوعات فى مادة هذه الموضوعات أو فى وظيفتها ولا يرى ما فى شكلها من قيمة .

غير أن جمال الشكل هو بالذات ما يستهوى صاحب الطبيعة الجمالية فهذا الجمال بعيد عن الإثارة الفجة التى تبعثها المادة التى لا شكل فيها بقدر ما هو بعيد عن أحلام اليقظة بما فيها من انفعالات غير محددة وعن التفكير الذى ينتقل من موضوع إلى موضوع . والانغماس فى العاطفة والإيحاءات على حساب الجمال الشكلى ، وهو الشئ الذى يجرم به عصرنا ، إنما يدل على نقص فى الثقافة لا يقل فى حقيقته عن نقص ثقافة الرجل الهمجى الذى يطرب للفوضى البراقة وإن كنا لا نعرف بذلك .

فعملية التركيب إذن التى يتكون منها الشكل هى عملية عقلية ، فالوحدة تنشأ على نحو واعي وهى إدراك بالبصيرة النافذة للعلاقة بين عدة عناصر حسية يدرك كل منها على حدة . وتختلف عن الإحساس فى الوعى بعملية التركيب كما تختلف عن التعبير فى تجانس العناصر وفى مثلها معاً للحواس .

ويتوقف اختلاف الأشكال على طبيعة العناصر وعلى الاختلاف فى الطرق الممكنة لإيجاد الوحدة . وقد تكون العناصر جميعها متشابهة وحينئذ يكون الاختلاف كميًا ، وتكون وحدتها إذن مجرد الإحساس بتجانسها (١) . وقد تختلف اختلافًا نوعيًا ولكن بحيث إنها لا تجبر الذهن على إدراك نسق خاص يوحد بينها . وقد تتألف العناصر بحيث توحى بالضرورة بالنسق الذى تتم وحدتها وفقًا له ، وفى هذه الحال يتحقق التنسيق فى الموضوع وتكون عملية تركيب الأجزاء عملية واحدة تحددت سلفًا . وفيما يلى سناقش هذه الأشكال المختلفة على التوالى وسنين ما لكل منها من أثر خاص بها .

---

(١) قارن Fechner, Vorschule der Aesthetik, Erster Teil, s. 73 الذى أوحى إلى بتصنيف الأشكال على النحو التالى .

## ٢٤- الكثرة في التجانس

والحالة الأساسية المثلة للنوع الأول من الوحدة في التنوع هي في إدراك الامتداد ذاته . وإذا نحن بحثنا عن أصل هذا الإدراك فقد يتضح لنا أنه فطري . فلا شك أن الإحساس « بالامتداد المحض » إحساس أصيل وكل استدلال وربط وتمييز إنما يطرأ فجأة أمام الذهن ، ويكون في طبيعته وفي حقيقته الفعلية بمثابة معطى أولى لما يجور لنا أن نسميه حساً ، لكي ندل بهذه التسمية على وقعه في أنفسنا وقعاً مباشراً لا سبيل إلى رده وعلى استعصائه على الوصف . فنحن نرى الأشكال ، وإذا ما تأملنا أصل إدراكنا الحسى لها استطعنا أن نقول إن هذه الرؤية إحساس . أما التمييز بين الإحساس بالشكل والإحساس الذى لا شكل له فيتعلق بمضمون الإدراك وطابعه لا بكيفية تكوين الإدراك الحسى ذاته . وكل تمييز وربط أو استدلال إنما هو تجربة مباشرة ، وحقيقة حسية ، إلا أنها تجربة لعملية أو لحركة بين حدين وشعور بوجود هذين الحدين معاً وبما بينهما من فروق أى أنه إحساس بالعلاقة . والإحساس بالمكان إنما هو إحساس من هذا النوع ، فهو في جوهره إدراك لمجموعة من الاتجاهات المختلفة والحركات الممكنة ، التى تحدد حسبها العلاقة بين نقطة وأخرى على نحو حتمى غامض . وهكذا فإدراك الامتداد هو على نحو ما إدراك لشكل وإن كان هذا الشكل من أبسط الأنواع الأولية . فالامتداد أو المكان مجرد وجود منفصل عن أى شيء Auseinandersein وكنا نستطيع أن نسميه المادة



الأولى للشكل *materia prima* لو لم يكن في الإمكان وجود الامتداد بدون أى تحديد . فمن الممكن أن يتولد عندنا إحساس بالمكان بدون إحساس بأسواره التي تحده ، بل إن هذا الحدس ذاته هو الذى يجعلنا نظن أن المكان لامتناه . ولو كانت تجريرتنا للمكان تتضمن فى ذاتها إدراك حدوده لتصورنا المكان على أنه يتركب من عدد متناه من الكتل مرصوصة جنباً إلى جنب .

ويختلف الأثر الجمالى الذى يولده الامتداد اختلافاً كاملاً عن الأثر الذى تولده الأشكال المعينة . فبعض الأشياء يستهويننا سطحها فى حين أن البعض الآخر تستهويننا الخطوط التى تحد هذا السطح . وليس أثر السطح هذا هو بالضرورة أثر المادة التى يتكون منها الجسم أو أثر لونه . فالأثر الذى يبعثه فى نفسنا ستار شاسع ملون بما فيه من تجانس ورتابة واتساع فى الرقعة إنما هو أثر التجانس البالغ فى الكثرة البالغة . فالعين فى هذه الحالة تجول فى مواضع لامتناهية غير محددة ، والإحساس باتصال هذه المواضع ويعددها اللامتناهى هو مصدر انفعال الامتداد . وهذا الانفعال انفعال أولى له أسسه الفيزيولوجية بلا شك بينما تصور الحجم ثانوى ويتضمن عمليات ربط واستدلال . فإذا تأملنا صورة فوتوغرافية صغيرة لكاتدرائية القديس بطرس بروما ، أو إذا نظرنا إلى الكاتدرائية ذاتها على بعد كبير تولدت لدينا فكرة عن حجمها الكبير . إلا أن ذلك يعتمد على إدراكنا للمسافة أو على معرفتنا بنسبة حجم الصورة إلى حجم الموضوع .

ولا تصبح قيمة الحجم قيمة مباشرة إلا حينما نكون قريبين من الموضوع الذى نتأمله ، وحينئذ يحتل السطح حقيقة زاوية كبرى من مجال الرؤية ، ويوجد الإحساس بالحجم الكبير معياره الخاص به الذى نطبقه بعدئذ على الموضوعات الأخرى عن طريق المقابلة والتمثيل . ولا شك أن فى حجم الأشياء أيضاً معنى خلقياً وعملياً يحدد عن طريق الترابط مدى ما فى هذه الأشياء من عظمة وجلال . غير أن الإحساس الخالص بالامتداد الذى يقوم على أساس الأثر المباشر الذى يولده الموضوع فى الإمكانيات الإدراكية للعين هو القيمة الجمالية الحقة التى يهمننا أن نبينها هنا بوصفها أكثر صور الشكل أولية .

ومع أن أثر الامتداد ليس هو أثر المادة. فإن كلا الأثرين يظهران فى أوضح صورهما حينما يوجدان معاً . فلا بد للمادة أن تظهر فى شكل ما ، ولكن إذا كان الغرض هو إبراز ما فى المادة من جمال فيحسن ألا يجتذب الشكل الانتباه لذاته إلا بأقل قدر ممكن . والتجانس المطلق فى الامتداد هو أبسط أنواع الشكل وأقربها إلى المادة ، وهو يضيف على المادة من الشكل ما يكفى فقط لإدراك حقيقتها . لذلك يستحسن أن يتحقق هذا النوع من الشكل فى المادة الجميلة الثمينة ، وإلا فإن ما فيها من جمال يصيبه بعض الفساد إذا فرض عليه جمال من نوع آخر مثلما يحدث حينما يصنع تمثال من الذهب أو يحفر فى عمود من اليشب النفيس أو تطرز عباءة من القטיפفة الثمينة . إن جمال المادة يظهر حينما تخلو من

الزخرف . بل إن الصفة المميزة للحجر ذاته لا تتضح إلا في المساحات الكبيرة المتصلة من الحائط ، فبساطة الشكل تؤكد طبيعة المادة . كذلك لا يبعث أثر الامتداد على الرضا طويلاً إلا إذا أضيف إليه جمال مادي معين . فالستائر الكبرى تفقد بعض ما فيها من روعة إذا كانت مصنوعة من القطن بدلاً من الحرير ، والامتداد الشاسع للسماء كان سيغدو مبعثاً للضيق والكدر لو لم يكن لونه أزرق رقيقاً .

## ٢٥- مثل النجوم

ومصدر آخر لجمال السماء - وهو النجوم - يعطينا مثلاً بارزاً ، جذاباً لأثر الكثرة في التجانس على نحو بالغ يجدر بنا أن نحمله بشيء من التفصيل . وأظن أن معظم الناس يمدون النجوم جميلة ، ولكنك إن سألتهم عن السبب فلن يستطيعوا الإجابة حتى يتذكروا ما سبق لهم سماعه من علم الفلك وعن الحجم الهائل لتلك الاجسام الكروية وبعدها الشاسع وما يمكن أن يوجد عليها من مظاهر حياة . وهذه الأفكار والتصورات الغامضة التي يصعب تحديدها والتي تثار هكذا في أذهاننا تتفق والانفعال الغامض الذي نحسه إزاء النجوم بحيث إننا نعزو الانفعال إلى هذه الصور ونقنع أنفسنا بأن ما في نجوم السماء من قوة على التأثير إنما يرجع إلى ما توحي به من حقائق فلكية .

«لا شك أن فكرة تهاة الأرض التي نعيش عليها وكثرة العوالم التي لا نستطيع أن نسيّر غورها هي من الأفكار التي لها قدرة هائلة على التأثير. بل إنها قد تسبب لنا كدرًا عميقًا. ففكرة اللامتاهي تبث إلى «د ما على الحيرة، وعلى الرغم من أن الإنسان المتناهي يشعر بالتواضع إزاء هذه الفكرة فإنه لا يستطيع أن يستبعد كليا من ذهنه احتمال كونه مخدوعًا بها. وخيالنا الرياضي تضنيه محاولة تصور هذه الفكرة التي يكتسبها ما يكتنف الكابوس من عذاب، وربما لو استطعنا أن نستيقظ لوجدنا فيها من السخف ما يبعث على الضحك. إلا أن تسلط هذا الحلم على أذهاننا إنما هو لغز فكري لا لذة جمالية، وليس ضروريًا لإعجابنا. فقبل أيام كيلر كان من المعتقد أن السموات تعلن عن عظمة الله وجلاله، ولم يكن الناس بحاجة إلى حساب المسافات بين النجوم أو إلى تخيل «عالم كثيرة أو تصور فضاء لا متناه لكي يحسوا بما في النجوم من جلال وجمال رائع.

ولو كنا تعلمنا أن نؤمن بأن النجوم تتحكم في مصائرنا وأن نتذكر القضاء والقدر كلما نظرنا إليها لكان من المحتمل أن نتخيل على نفس المنوال أن هذا الإيمان هو مصدر ما في النجوم من جلال، ولو قدر لنا أن نتخلص من هذه الخرافة لاعتقدنا أن ما في النجوم من تأثير سيذهب أيضًا. إلا أن التجربة كانت سرعان ما تردنا إلى الصواب إذ تثبت لنا أن الطابع الحسي لهذا الموضوع هو ذاته مصدر جلاله. بل يمكننا أن

نختار السماء دائماً كرمز صالح للأفكار الجليلة بسبب ما فيها هي ذاتها من جلال . واشتراك السماء والأفكار الجليلة في صفة الجلال ، هو الذى يجعل كلاً منهما يوحى بالآخر . ولذلك كان من الطبيعى جداً أن يسوق الناس مثل النجوم التى تحدد مصير حياتنا وقت الميلاد لكى يعبروا بذلك عن خضوعنا للظروف ، لكن قد يظهر بعدئذ من الخلف من يحول بغيته هذا المثل إلى مبدأ مقصود بمعناه الحرفى . ولما كان الانفعال الذى تولده النجوم قريباً من الانفعال الخاص بلحظات دينية معينة تحولت النجوم فى نظر الناس إلى موضوعات دينية . وهكذا أصبحت النجوم ، مثلها فى ذلك مثل الموسيقى التى لها أثر عميق فى النفس ، من بواعث التقديس والعبادة . ولكن لحسن الحظ هناك من التجارب ما لا تؤثر فيه النظريات ، فتعيه أذهان الناس على الرغم من تباعدهم فى المذاهب الفكرية والدينية المختلفة . وحينما تتداعى هذه المذاهب يظهر ما تحتها من أسس إنسانية عامة مصدرها الحس والخيال .

وقضلاً عن ذلك فإن الإيحاء العقلى بالطبيعة اللامتناهية تمكن إثارته عن طريق تجارب أخرى ليست جليلة فى شئ . فكومة من الرمال تتضمن فكرة اللامتناهى تماماً كما يتضمنها كون يتألف من الشمس والكواكب . وكل شئ يمكن تجزئته إلى ما لا نهاية ، بل إذا وصلنا بهذه الفكرة إلى نهايتها نقول إنه من الممكن أن يحتوى الشئ الواحد على عدد من العوالم ومن كائنات مهولة مجنحة ومن جمهوريات مثالية

لا يقل عما تحتويه الأقمار التي تتبع الشعرى . ولكن اللامتاهى فى الصغر لا يؤثر فىنا من الوجة الجمالية ، وكل ما يعثه فىنا هو التسلية وحب الاستطلاع . ولا يمكن أن يكون الفرق بين فكرة اللامتاهى واللامتاهى فى الصغر فى مضمون الفكرتين ، لأن المضمون واحد فى الحالتين من الوجة الموضوعية . ولكن الفرق فى الأثر المباشر المختلف للصور الفجة التى هى مصدر معنى وطبيعة كل منهما . فالصورة الفجة التى هى وراء فكرة اللامتاهى فى الصغر هى النقطة وهى أفقر الانطباعات وأقلها طرافة . بينما الصور الفجة التى وراء فكرة اللامتاهى هى المكان ، أو الكثرة فى التجانس ، وهذه - كما رأينا - لها تأثير قوى بسبب ما فى تأثيرها من رحابة وحجم ووجود شامل فكل نقطة فى الشبكية فى هذه الحالة تثار بدرجة متساوية والعلامات المحلية تحس فى الوقت نفسه . وهذا التوتر المتكافئ ، وهذا التوازن والمرونة حيث لا يوجد تحديد وتعيين إنما يولدان هذا الإحساس القوى الغامض الذى نريد أن نصفه . ولو لم يكن اللامتاهى ، عن طريق تأثيره الأولى فى الحواس ، يبهرنا ويجرفنا على نحو ما تفعل بنا الموسيقى الجادة لأصبحت فكرة اللامتاهى عندنا مجرد فكرة مجردة وخلقية مثل فكرة اللامتاهى فى الصغر ، ولما أثار فى نفوسنا سوى العجب المتع .

ولا يوجد شيء مؤثر موضوعياً ، وإنما تصبح الأشياء مؤثرة حينما تتمكن من تحريك حساسية المشاهد وحينما تجد طريقها إلى ذهنه وقلبه .

وتصور الكون مجموعة لا حصر لها من الأجرام الكروية تدور مثل ذرات الغبار فى فضاء مظلم لا حد له ربما كان لا يؤثر فى نفسنا ، إن لم يبعث على الكآبة والملل ، لو أننا لم نشعر بأن هذه الصورة الافتراضية هى بذاتها ذلك الجلال الذى نراه فى النجوم ، وما لها فى أنفسنا من أثر عميق نفاذ ، ومن كثرة محيرة . فليس الموضوع هنا هو الذى يخلع قيمة على الانطباع الحسى ، بل الانطباع الحسى هو الذى يخلع قيمة على الموضوع دائماً فى نهاية الأمر . فكل قيمة إنما تعود بنا إلى شعور مباشر هنا أو هناك وإلا لاستحالت إلى عدم - إذ هى تستحيل إلى لفظة وخرافة .

والسما بما فيها من نجوم مهياة بحيث تزيد من حدة الانفعال الذى لا بد أن يرتكز عليه جمالها . فالفضاء المتصل أولاً يتقطع فى نقط عديدة بحيث تكفى لإيجاد فكرة الكثرة فى أقوى صورها . ومع ذلك فكل من هذه النقط واضح متميز بحيث يصعب عدم إدراك ما فيه من فردية ، وتظل العلامات المحلية المختلفة بارزة دون أن تأخذ أشكالاً معينة تفقد فيها فرديتها . وهذا هو الشئ الذى يجعل هذا الموضوع أكثر قدرة على الإثارة من أى سطح مستو ؛ ومن ناحية أخرى فالتباين الحسى بين الأرضية السوداء - ويزيد السواد حينما يكون الليل صافياً وتظهر فى السماء نجوم أكثر - وبين النار المتألقة التى تصدر من النجوم ذاتها ، إنما هو تباين بالغ لا يمكن المزيد عليه بأية وسيلة ممكنة . وكما سبق أن أوضحنا ، يزيد هذا

الجمال المادى كثيراً من جلال الأثر وعمقه . ولكى ندرك مدى أهمية هذين العاملين لا نحتاج إلى أكثر من تخيل عدم وجودهما ومدى ما سيفقده الموضوع من روعة الأثر نتيجة لذلك .

فلنتخيل خريطة للسماء تبين موضع كل نجم فيها ، حتى تلك النجوم التى لا نستطيع أن نراها العين المجردة . مثل هذه الخريطة مليئة بالإحياءات العلمية ولا تقل فى ذلك عن الحقيقة ذاتها ، ولكنها تركنا جامدين نسبياً . وما هو السبب فى ذلك ؟ لا شك أن الخريطة قد تبعث فى نفوسنا بعض الانفعال ، فأنا شخصياً شعرت بالعجب والدهشة البالغة وأنا أتأمل صوراً فوتوغرافية للنجوم . فالإحساس بالكثرة لا يقل فى الصورة فى شيء ، ولكن حدة الإحساس تختفى كما يختفى ما فى الضوء من حياة ، وحينما يفقد الانطباع حيويته تختفى حدة الانفعال . أو لتتخيل النجوم بعددها الحقيقى دون أن تفقد معناها الفلكى وما فيها من ثبات خالد ، منظمة فى أنماط هندسية : فى شكل صليب لاتينى مثلاً ، وحولها هذه العبارة *In hoc signo vincas* ( ولسوف تنتصرون باسم هذا الرمز ) . فى هذه الحالة ربما يزداد جمال الضوء ، ولا شك أن معناه العملى والدينى والكونى يصبح أكثر وضوحاً ، إلا أن ما فى منظر السماء من جلال سيختفى نهائياً لأن شكل الموضوع حيثئذ لن يثيرنا بما فيه من كثرة بالغة وما يترتب عليها من إحساس جارف بالإثارة والانبهار .



وبالإجمال أن اللامتناهى الذى يشيرنا هو الإحساس بالكثرة فى  
التجانس . ولذلك فالموضوعات التى يتحقق فيها القدر الكافى من الكثرة  
مثل أضواء المدينة منعكسة على صفحة الماء لها نفس الأثر الذى لنا اليوم  
وإن كان يقل عنه حاة ، بينما إذا ظهر فى السماء نجم واحد يكون له  
تأثير مختلف تماماً ، وذلك لانعدام الكثرة . فالنجم الواحد جميل رقيق  
ويمكننا أن نقارنه بأعذب الأشياء وأكثرها تواضعاً : فالشاعر يقول مثلاً :

« إنها مثل زهرة بنفسج بجوار صخرة يغطيها العشب

تكاد تكون مخفية عن العين

جميلة مثل نجم واحد

يتألق فى السماء » .

والنجم الواحد فى الطبيعة تابع حقاً للقمر ، ولا يرتبط به عن طريق  
الجوار فحسب وإنما عن طريق التشابه أيضاً إذا جاز لنا أن نتحدث عن  
هذه الموضوعات الشعرية على هذا النحو ، ويقول شاعر آخر :

« أجمل من النجم الذى يسحب القمر فى المجال الأزرق

أو الزهرة سراج الليل الذى يعشق السماء » .

وهذا الشاعر ذاته يصف لنا محباً متيماً فى موضوع آخر قائلاً :

« لقد نهض أثيراً محمر الوجنت ، مثل نجم ينبض

وسط الهدوء العميق فى السماء الزرقاء » .

وما أبعد كل هذا عن التآلق البارد والجلال القاسى الغريب الذى فى النجوم حينما تظهر بكثرة ! فنحن لا نربط بينها وبين الغرام ولا تذكرنا بسافو شاعرة الحب ، وإنما تذكرنا بالفيلسوف كانط الذى لم يجد شيئاً يشبه به الأمر المطلق غير النجوم . ولربما وجد كانط فى كل من النجوم والأمر المطلق ما يحير الفهم وما يجابه الإنسان بالحقيقة المباشرة القاسية التى لا يستطيع الإنسان أن يهرب منها . وليست هذه المشاعر النهائية إلا إحساسات بالتوتر الفيزيقي .

## ٢٦- عيوب الكثرة الخالصة

ويمثل لنا هذا التحليل المطول تمثيلاً كافياً قوة الكثرة فى التجانس . ونستطيع الآن أن نستمر فى التحليل لكى نبين ما فى هذا الشكل ذاته من قصور . وأوضح عيب فيه هو الرتابة . فصف الجنود أو السياج الحديدى من المشاهد التى لها تأثيرها فى النفس ، إلا أنها لا تستطيع أن تظل تؤثر فى النفس طويلاً ، ولا تستحوذ على انتباهنا وتطوره وتعمقه كما هى الحال حينما تتأمل حشداً من الناس أو غابة من الشجر .

وللرتابة اتجاه مزدوج ، وفى كلا الاتجاهين نجدها تقتل اللذة . فحينما تكون الآثار المكررة حادة ولا يمكن نسيانها لتكرارها الذى لا ينتهى فحيثما تصبح رتابتها مصدر ألم . فالجهاز الإنسانى يصيبه الإجهاد حينما تشغل إحدى حواسه طول الوقت ، وحينما تطلب منه نفس الاستجابة دائماً

ولا نلبث أن نتوق إلى التغيير بقصد التفريح عن النفس . وإذا لم تكن الإثارة المكررة على درجة كبيرة من الحدة فلا نلبث أن نفقد إحساسنا بها ، مثلها في ذلك مثل دقائق ساعة الحائط التي تصبح مجرد عامل من العوامل التي تحدد حالتنا الجسدية ، وسبباً من الأسباب التي تنشر بعض اللذة أو الضيق كييفاً تكون الحال : ولكنها لا تظل بالنسبة إلينا بمثابة شيء متميز قائم .

وهكذا فاللذات التي يبعثها مجال لطيف رتيب غالباً ما تعجز عن خلع صفة الجمال عليه وذلك لسبب بسيط ، وهو استحالة إدراك هذا المجال . وكذلك فقبح الأشياء التي تعودناها - كعيوب المنظر الطبيعي أو قبح ملابسنا أو لون الحائط في بيتنا - لا يسبب لنا ضيقاً ، ولا يرجع السبب في ذلك إلى أننا لا نرى هذا القبح بقدر ما يرجع إلى إغفالتنا له . ويسهل على الموضوعات الرتيبة أن تفقد ما فيها من نواحي الجمال أو العيوب ؛ لأن هذه الموضوعات لا تظهر في الوعي إلا على نحو متقطع . غير أنه من المهم عملياً أن نلاحظ أن انعدام القدرة على التأثير من القيم الرتيبة إنما ينطبق على المظهر أكثر مما ينطبق على الجوهر . حقاً إن الموضوع المعين الرتيب يفقد أهميته ، إلا أن صفته وتركيبه يظلان باقيين من حيث ملاءمتهما للمكاث إدراكنا ، فما ينفك وجود الشيء الرتيب في بيتنا مصدرًا دائمًا لشعور غامض بالضيق والاضطراب ، أو لنشوة لطيفة شاملة . وهذه القيمة وإن كانت غير مرتبطة بصورة الموضوع الرتيب تظل

مائلة فى أذهاننا ، مثلها فى ذلك مثل جميع الإحساسات الحيوية فى جهازنا العضوى ، وتظل على أهبة لأن تضيف جمالاً إلى جمال أى موضوع يثير اهتمامنا ، وهى دائماً تخلع على حياتنا المزيد من العافية والحرية وتسهل علينا عملنا وتجعله أكثر طواعية وجاذبية . فالبيئة التى تبعث على اللذة عوض عن السعادة ، وفى مقدورها أن تزيدنا حيوية من الخارج كما يزيد حيوتنا من الباطن الأمل الراسخ والمحبة أو الإحساس بالحياة الخيرة . ولذلك فتعديل البيئة وتلطيفها بما يتلاءم مع الإنسان من الواجبات التى يتحتم أن يهتم بها الطبيب ، طبيب الجسد وطبيب النفس على حد سواء .

ولكن رتبة الكثرة لا توجد فقط فى الشكل ذاته . والحقيقة التى هى ربما أهم شأنًا من ذلك فى ميدان الفنون هى أن للكثرة الرتيبة قدرة محدودة على الترابط . فالشئ الذى هو فى ذاته متجانس لا يمكن أن تصبح له علاقات متنوعة عديدة . ومن ثم نجد أن التساج الفنى الذى يحتوى على تكرار لا ينتهى لنفس العناصر إنما يكون له تأثير جاف جامد محدود . فعلاقاته قليلة بالضرورة ولا يمكن استعماله لأغراض عدة ، كما أنه ليس فى مقدوره التعبير عن أفكار كثيرة . فالشكل الذى يسمى « بالثنائى الحماسى » <sup>(١)</sup> فى الشعر Heroic couplet الذى يبالغ الناس

---

(١) أحد أشكال الشعر الإنجليزى ووحده التى تتكرر تتألف من بيتين من قافية واحدة كل منهما يحتوى على عشر مقاطع أو خمس « أقدام » من بحر الأيامب . ( المترجم )

فى احتقاره الآن هو شكل من هذا النوع . فتركيزه وحتميته يجعلانه أفضل شكل للتعبير عن الحكم ويجعلانه كافيًا لأغراض الهجاء ، ولكنه يستحيل استعماله فى أغنية ولا يصلح للملحمة ، لما فيه من تقطع دائم وإيقاع غير متغير . وبهو الأعمدة اليونانى الذى يوارى فى عدة نواح هذا الشكل الشعرى ، هو شبيه به فى قصوره . فعلى الرغم من جماله المتزن الذى يوشك ألا يصل الذوق المثقف الحديث إلى درجة تمكنه من تذوقه تذوقًا كاملاً فإنه لا تتوافر فيه إمكانية التطور ، كما تبين لنا ذلك تجارب العمارة الرومانية التى لا ترجع عظمتها إلى ما فيها من زخرف هيلينى وإنما إلى إطارها الرومانى .

وحيثما كان على اليونان أنفسهم أن يجابهوا مشكلة إقامة مبانٍ للعبادة أكبر حجمًا وأشد تعقيدًا لتلائم ديانة غيبية تقوم على فكرة تسلسل مراتب الكائنات الروحية ، فإنهم حوروا عمارتهم حتى أصبحت ما نسميه بالعمارة البيزنطية ، وحلت كنيسة القديسة صوفيا محل البارثينون . وفى هذه العمارة البيزنطية نجد أن بهو الأعمدة قد اختفى وحلت محله قبة هائلة . وطيلة العود استدارت فأصبحت قنطرة تمتد من عمود إلى عمود ، وتغيرت رؤوس الأعمدة من شكل مقعر إلى شكل محدب وأدخلت عدة تغييرات أخرى لا تحصى فى البنية والزخرفة من شأنها أن توجد مرونة وتنوعًا . فلما صارت العمارة على هذا النحو من شدة الغموض وقلة التحضر ، فإنها أصبحت أقدر على التكيف لظروف العصر الجديد . إن

الذوق الكامل فى ذاته لون من القصور لا لأنه يستبعد عن قصد أى كمال ، بل لأنه لا يشجع الفنون على التجوال فى تلك الشعاب الثانوية حيث التزق والبشاعة ، مما قد نستكشف فيه بعض الآثار الشائقة وإن يكن هذا قد يتم على حساب جمال الشكل . وهذا الاعتراض يوجه بصورة أقوى وأشد إلى جمود الذوق فى المراحل الأولى حيث لا تكون التقاليد قد تمكنت من أخذنا فى الاتجاه الصحيح إلا خطوات ضئيلة . فحينئذ تكون الآثار المتفق على صحتها على درجة كبيرة من البساطة ، وإذا كنا لن نسمح بآثار أخرى فإن الفن عندنا سيصبح غير كافٍ على الإطلاق للقيام بالوظائف التى تفرض عليه فى نهاية الأمر . ولعلنا نجد أمثلة لذلك فى الفنون البدائية ، كما أن حالة الشعر الإنجليزى فى عصر الملكة آن مثل كافٍ يبين لنا وجود هذا الاحتمال . أما المدرسة الكلاسيكية الفرنسية التى كانت المدرسة الإنجليزى صدى لها فقد كانت أكثر حيوية وإنسانية لأنها كانت تتضمن ذوقًا أكثر أصالة ومرانة على نطاق أوسع .

## ٢٧- العناصر الجمالية فى الديمقراطية

من الخطأ أن نفترض أن المبادئ الجمالية تنطبق فقط على أحكامنا على الأعمال الفنية أو على تلك الموضوعات الطبيعية التى نهتم بها أولاً بسبب جمالها . فلكل فكرة أو تصور نكوته فى ذهننا البشرى ، ولكل نشاط وانفعال ، علاقة مباشرة أو غير مباشرة باللذة والألم . فإذا كان

الأمر - كما هي الحال في جميع الحالات الهامة - هو أن هذه المناشط والانفعالات الدافقة تكوّن إبان جريانها مواد سيكولوجية جامدة ، إذا جاز هذا التعبير ، هي التي نقول عنها إنها أفكارنا عن الأشياء ، فحينئذ تكون اللذات المصاحبة لهذه الأفكار هي تلك التي كانت أصلاً في الإدراكات الجزئية الحسية وهكذا تكتسب الأشياء لوناً جمالياً . وهذا اللون الجمالي وإن يكن آخر ما نلاحظه من صفات الأشياء التي تهمننا عملياً ، إلا أن ذلك لا يقلل من تأثيره الحقيقي فينا ، بل إنه غالباً ما يفسر لنا الكثير في موقفنا الخلقى والعملى من الأشياء .

فهناك في رأى عنصر جمالي قوى في أهم الأفكار السياسية والخلقية في عصرنا ، ألا وهي فكرة الديمقراطية ؛ ومدى قوة تأثير فكرة الديمقراطية في مخيلتنا إنما هو مثل يوضح لنا تأثير فكرة الكثرة في التجانس التي نحن بصدد دراستها . حقاً ليس هناك ما هو أكثر خطأ وإضحاكاً من أن نوحى بأن الثورة الفرنسية بما فيها من مضمونات هائلة إنما قامت على أساس تفضيل العنصر الجمالي . فلقد نبعت الثورة الفرنسية كما نعلم من كراهية الظلم والطغيان ومن التنافس الطبقي ومن الأمل في إيجاد نظام اجتماعى أكثر حرية ونظام خلقى أفضل . ولكن بينما كانت هذه القوة الخلقية توحى بفكرة الديمقراطية وتسعى إلى تحقيقها جزئياً اتضحت هذه الفكرة في أذهان الناس ، وازدادت معرفتهم بصورة الحياة الإنسانية التي تتضمنها ووجدوا فيها مبرراً لفعالهم وجعلوها غاية

يسعون دائماً إلى تحقيقها . ولا شيء يزيد من الخير في نظرنا أكثر من تضحياتنا في سبيله . وكانت النتيجة أن الديمقراطية ، التي قدرها الناس أولاً من حيث هي وسيلة لتحقيق السعادة قد أصبحت بالتدريج قيمة في ذاتها ؛ وأخذت تظهر على أنها خير في ذاتها ، بل على أنها الوضع المثالي الكامل . وهكذا اكتسب هذا النظام المنفعي صفة التقديس الجمالي . وما حدث للديمقراطية كان قد حدث للنظام الإقطاعي والملكي من قبل . فقد أصبح الناس على مر الزمن يقدرون كلاً من هذين النظامين لذاته ولما وجدوه من لذة في تصورهم المجتمع منظمًا على نسقه عندما اكتسب هذا النسق في مخيلتهم صفة الجمال والتناسب . أما القيمة العملية للنظام والتي يعتمد عليها مصدره وسلطانه فقد نسيها الناس وأصبحوا على استعداد للتضحية برفاهيتهم في سبيل اعتبارات تتعلق بالذوق الجمالي ، أى أنهم سمحوا للخير الجمالي أن يفوق في أهميته الخير العملي . واعتقادنا بالحق المقدس للديمقراطية الآن لا يقل عن ذلك نبأً أو طبيعية وإن كان أيضاً لا يقل عنه خرافة . وليس الحق الذي نراه في جوهر الديمقراطية الآن إلا شيئاً جمالياً صرفاً .

غير أننا غالباً ما نخفى حبنا الجمالي هذا للتجانس تحت اسم خلقى : فنسميه حب العدالة ، وربما نفعل ذلك لأننا لا ندرك أن قيمة العدالة هي أيضاً - مادمت لا نجعلها قيمة فرعية بالنسبة إلى غيرها ،



ولا ننظر إليها نظرة نفعية - أقول إن قيمة العدالة لا بد عندئذ أن تكون قيمة ذاتية أو بعبارة أخرى قيمة جمالية إذ أن هاتين الصفتين مترادفتان تقريباً . ولكن جمال الديمقراطية يظهر لنا على حقيقته السافرة أحياناً . وأبلغ مثل لذلك كتابات وولت ويتمان : وربما لم يشعر أحد بجاذبية التجانس فى الكثرة أو بجاذبية التجانس وحدها كما شعر ويتمان . فأينما بحثت وجدت هذه الجاذبية ووجدت الشاعر يفضلها بكل جوارحه على غيرها ، فلا تجد فى شعره الأزهار وإنما أوراق العشب ، ولا تجد الموسيقى وإنما قرع الطبول وبدلاً من التنسيق تجد التجميع وبدلاً من البطل تجد الرجل العادى وبدلاً من لحظة التأزم تجد أكثر اللحظات ابتداءً . ويشير ويتمان خيالنا إثارة عميقة بإصراره على عرض هذه الجمهرة من الوحدات الثقافية ، ومحاولته أن يسوغ لنا كل شىء باعتباره حركة نابضة مؤقتة فى تيار متدفق غير ذى إطار يوحد بناءه . ولا يسعنا إلا أن نعجب فى قرارة أنفسنا بقدرة الشاعر هذه وإن كنا قد نود لو أننا لم نعجب بها . فمهما كانت الأخطار العملية التى قد نجدها فى هذه العملية التى ترمى إلى إزالة الفروق بين الناس ، فإن ملكتنا الجمالية لا تنتقد ما تولده فى نفوسنا من أثر . ومن ميزات هذه الملكة الجمالية أنها تجد لذة فى المتناقضات وأنها قادرة على أن ترى جلالاً فى الفوضى ، دون أن تكف عن التماس الجمال فى الطبيعة .

## ٢٨- قيم الاتماط وقيم الامثلة

لقد آن لنا أن نعود إلى دراسة الأشكال المجردة . فأقرب مثل فى الطبيعة للتجانس فى الكثرة هو تلك الأشياء التى رأيناها شبيهة بزخرفة لا يتغير نظام وحداتها إذا ما نظر إليها من اتجاهين متضادين ، فكذلك تلك الأشياء التى رأيناها من تنوع الأجزاء بحيث تغرينا أن نستعرض أجزاءها على صور من الترتيب مختلفة ، فنستخدم بذلك ملكة الإدراك الباطنى استخداماً يبرر معالمها .

لقد رأينا أن فى الحواس نوعاً خاصاً من الإثارة ؛ وورثاً وإيقاعاً معينين للموجات ترتبط بهما القيمة الجمالية للإحساس . وهكذا حينما يحدث فى إدراكنا الحسى لشيء ما أن تلعب الذاكرة والعادة العقلية دوراً ملحوظاً فعندئذ لا ترجع قيمة الإدراك الحسى إلى ما فى المؤثر الخارجى من امتاع فحسب ، بل ترجع أيضاً إلى متعة الاستجابة الإدراكية الباطنية ، وتزيد أهمية هذا المصدر الثانى للقيمة كلما كان معنى الشيء المدرك وشكله يعتمدان اعتماداً أكبر على تجاربنا السابقة وعلى ميولنا الخيالية منه على تركيب الشيء الخارجى .

ولا يختلف إدراكنا الباطنى للشكل باختلاف بنيتنا وعمرنا وحالتنا الصحية فحسب ، كما هى الحال فى تذوقنا للقيم الحسية ، لكنه يختلف أيضاً تبعاً لما لنا من عبقرية ولما حصلنا عليه من تربية . وكلما كان

الشيء المدرك أقل تعييناً زاد الدور الذى تلعبه القوى الذاتية فى تحديد إدراكنا الحسى ، لأن كل إدراك حسى هو بالطبع كامل التعين فى ذاته ولا يمكن وصفه بعدم التحديد إلا بالقياس إلى مثل أعلى مجرد نتوقع أن يقترب منه هذا الإدراك . فكل سحابة لها خطوطها التى تحددها وإن كنا نصفها بأنها غير محددة لأننا لا نستطيع أن ندرجها تحت أى نوع من الأشكال الهندسية أو الأشكال الحية التى نعرفها . فهى تظهر أولاً فى صورة الحوت على نحو محدد ؛ ثم لا يتحدد شكلها هنيهة ، ولا يلبث أن يتحدد ثانياً فى نظرنا فى شكل مختلف كشكل الجمل مثلاً . إلا أن السحابة فى تلك الفترة بين قولنا عنها إنها تشبه الحوت وقولنا إنها تشبه الجمل لا يزال لها شكلها الذى ندرسه ، وإن كنا فى عملية إدراكنا له لا نقوم بعملية إدراك باطنى ، بمعنى أن السحابة فى هذه الفترة لا تولد فىنا أيًا من الاستجابات التى تختزنها تجاربنا ، أى أنها لا تبعث فىنا أى إحساس بالشكل . وفى هذه الفترة تكون قيمة السحابة فى لونها وشفافيتها وفى إبحائها بالخفة وبالحرارة المركبة اللطيفة .

غير أننا فى اللحظة التى لنجزم فيها بأن السحابة تشبه الحوت تمامًا تظهر لنا فيها قيمة جديدة ، وحيث لا تصبح السحابة جميلة أو قيحية باعتبارها سحابة فقط وإنما باعتبارها حوتًا أيضًا . ونحن الآن لا نتحدث عن ترابط المعانى فلا نبحث فيما إذا كانت السحابة فى هذه اللحظة تذكرنا بالبحر أو بحكايات الصيادين ؛ لأن هذا موضوع آخر خارجى يتعلق

بالتعبير . وإنما نتحدث فقط عن القيمة الذاتية لشكل الحوت ، لخطوطه وحركته ونسبه . وهذه على نحو تقريبي مجموعة من الصور الفردية تبعث فى الذهن فى عملية الإدراك أو التعرف على الشيء . وليس التعرف على الشيء إلا هذا البعث ، وجمال الشكل هو اللذة التى تولدها عملية البعث هذه ، فكأنما عزفت فى الذهن جملة موسيقية ، أيقظتها عملية الإدراك الباطنى ؛ وانسجام المؤثر الحاضر مع شكل هذه الجملة الموسيقية ، وقدرة الشيء المعين الحاضر أمام الحس على تطوير هذه الجملة الموسيقية العامة فى اتجاه اللذة هما معيار الجمال الشكلى لهذا الشيء . وذلك لأن أمثال تلك الجمل الذهنية لها إيقاع معين ، فإذا ما تأثر هذا الإيقاع بالشيء المائل أمام الحس فإنه إما أن يزداد غنى ودقة وإما أن يصيبه الفساد والنشاز ؛ ويكون شكل الشيء جميلاً أو قبيحاً تبعاً لما يكون بين الحالة الداخلية والمؤثر الخارجى من تضاد أو من مؤازرة .

وتعتمد هذه القيمة الجمالية على شيئين : أولهما الطابع المكتسب للشكل المثار فى الإدراك الباطنى : فقد يكون هذا الشكل ترينماً (a trill) أو محطاً (cadenza) ، أو موسيقى من المقام الكبير أو الصغير ، أو وردة ، أو زهرة بنفسج ، إلهة أو حالبة البقر . وحينما ندرك أحد هذه الأشكال فى الموضوع ، يكتسب الموضوع شأنًا أو لونًا جماليًا معينًا . ولكننا نلاحظ أن مثل هذا الإدراك لا يشير إلا قدرًا ضئيلاً جدًا من اللذة ، أو بعبارة أخرى أن الأنماط الجمالية المختلفة لا تختلف كثيرًا فى جمالها

الذاتى مادامت تظل أنماطاً مجردة ، وإنما تختلف اختلافاً كبيراً حينما توجد فى سياق معين . فالذى يقرر أننا سنعجب بهذا النمط أو لا نعجب به ليس هو طبيعة هذا النمط وإنما اتفاقه مع سياقه فى أذهاننا ، مثله فى ذلك مثل اللفظة فى القصيدة التى تستمد معظم تأثيرها من ملاءمتها لسياقها أكثر مما تستمد من جمالها الذاتى ، وإن كان جمالها الذاتى لازماً أيضاً . فعدم الملاءمة بين طبائع الأشياء يسبب لنا من الكدر ما يفوق اللذة التى يسببها جمال كل طبيعة على حدة ، هذا طالما تظل هذه الطبائع مجردة أى طالما تظل موضوعات ندرکها فقط ، ولا نمنع النظر فيها . وهكذا فالمنزلة الجمالية التى للشكل توضح لنا نوع الجمال الذى نتوقه ، وتؤثر فىنا بما تبشر به من وقع لها فى أنفسنا قبولاً أو نفوراً ، ولكنها لا تعطينا لذة إيجابية فى الجمال ذاته .

هذا هو أول شيء تعتمد عليه القيمة الجمالية للشكل ، أى قيمة النمط ذاته . أما الشيء الآخر الأكثر أهمية فهو العلاقة بين الانطباع الحسى المعين وبين الشكل الذى يندرج تحته ذلك الانطباع فى مقولاتنا الإدراكية . فهذه العلاقة هى التى تحدد قيمة الشيء باعتباره مثلاً للنوع الذى ينتمى إليه . فبعد أن يتهيأ منا العقل لتقبل فكرة معينة ولكن مثلاً فكرة « ملكة » وجب على الانطباع الحسى المائل أمام الحس أن يحقق هذه الصورة العقلية ويضفى عليها سموً وغنى فيجسدها لنا تجسيداً لا يجعل بينه وبينها تناقضاً ؛ فعندئذ نرى أنفسنا إزاء ملكة لها جلال الملك حقاً .

أما إذا خاب رجاؤنا فوجدنا هذه الملكة المعينة قبيحة ، فعلى الرغم من أنها ربما كانت لثمتعنا لو سيقت أمامنا تمثيلاً لساحرة ، إلا أن ما نحسه الآن من خيبة الرجاء إنما يرجع إلى حدوث نشار ذهني مصدره عدم الملاءمة بين الصورة كما تصورناها في إدراكنا الباطني وبين الأثر الحسي الخاص المائل أمام الحس : فالموضوع هنا غير مثالي بمعنى أن العنصر الخارجي الجديد لا يتفق والعنصر الباطني الذي استيقظ في أذهاننا استيقاظاً جعله يوحي إلينا بأن نقيس إليه الشيء المدرك .

#### ٢٩- مصدر الانمط ( المثل )

إذن فمن أهم الأمور في إدراك الشكل كيفية تكوين الانمط ( المثل ) في أذهاننا ، تلك الانمط ( المثل ) التي نحكم على الأمثلة الجزئية بالقياس إليها . أقول تكوين الانمط ( المثل ) لأننا لا نستطيع أن نعتبر النظرية القائلة بأن المثل أبدية من النظريات التي يمكن قبولها في علم النفس . فهذه النظرية الأفلاطونية في هذا الصدد ليست إلا مثلاً بارزاً يوضح لنا أحد الأخطاء الشائعة في التفكير الجمالي كما وضحنا في بداية هذا الكتاب <sup>(١)</sup> ، وهو اعتبار مضمون التجربة مظهراً من مظاهر علتها ، وإحلال نتاج الملكة محل وصف وظيفتها . فالانمط الأبدية وسيلة من وسائل الحياة الجمالية وليست أساسها . فإذا أخذنا بموقف جمالي من

---

(١) انظر المقدمة .

الاشياء فى لحظة من اللحظات امكنتنا ان نتصور معنى او تصورا ابديا ، بمعنى اننا نعتبره معيارا مطلقا ، على نحو ما نفعل حينما نأخذ بموقف إدراكى فتتصور للموضوعات وجودا خارجيا نعتبره وجودا مطلقا . إلا ان الملكة الجمالية ، مثلها فى ذلك مثل ملكة الإدراك ، يمكن دراستها ذاتها ، ويمكن البحث عن أسسها النظرية ، وحينئذ يتبين لنا أن المعنى الأبدى ، مثله مثل الموضوع الخارجى ، ليس إلا نتاجا للطبيعة الإنسانية ، ورمزا للتجربة ووسيلة للتفكير .

حقا إننا لم نقطع بعد بجواب فيما إذا لم يكن فى الطبيعة الخارجية أو فى عقل الله أشياء ومثل أبدية ، بل إننا لن نؤس هذا السؤال على الإطلاق فى بحثنا هذا . غير أننا نبين على نحو غير مباشر أنه سؤال عديم الجدوى وذلك لأنه حتى إذا وجدت مثل هذه الموجودات المفارقة فلن تكون هناك علاقة بينها وبين تصورنا لها . فربما يكون المثال الأفلاطونى للشجرة موجودا حقًا ، إذ كيف لى أن أنكره ؟ كيف لى أن أنكر أنى قد أراتى ذات يوم قد جاوزت حدود السماء شاخصا إليه ، فإذا أمامى جمال الشجر فى كماله ، ذلك الجمال الذى كنت أدركه فى هذا العالم الأرضى باعتباره جوهرًا غامضًا يتردد على ما كنت أراه من الأشجار الجزئية الكثيرة ؟ ولكن فىم يؤثر ذلك فى إحساسى الحقيقى بما يتبغى للشجرة أن تكون ؟ أنفسهم إذن الأسطورة الأفلاطونية بدلولها اللفظى ونقول إن فكرة الشجرة المثلى هى ذكرى تلك الشجرة التى سبقت لى

رؤيتها فى السماء ؟ وإلا فكيف أربط بين ذلك المثال الأبدى وبين النمط الذى يوجد فى ذهنى ؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تختلف الأشجار المثالية هذا الاختلاف الشاسع فيما بينها ؟ هل كانت تلك الشجرة الخالدة ذات الجمال الكامل شجرة بلوط أو أرز وهل كانت شجرة غرغاج إنجليزية أو أمريكية ؟ إن الأنماط الحقيقية التى لدى محددة المعالم ويستبعد أحدها الآخر ، أما ذلك النمط السماوى فهو بالضرورة واحد ولا نهائى . وهكذا يتضح لنا أن المشكلة لا حل لها .

وعلى نقيض ذلك نجد تلك النظرية البسيطة التى تفسر لنا وجود الأنماط على أنها رواسب التجزئة . فتصورنا للشئ الفردى عبارة عن مزيج من تجاربنا الجزئية المختلفة له وعما يترسب فى ذهننا من هذه التجارب . وعلى نفس المتوال نجد أن تصورنا للنوع هو مزيج من تصوراتنا للجزئيات وما يترسب من هذه التصورات . فمن صفات الانطباعات الجزئية أنها تنزع إلى أن يندمج بعضها فى بعضها الآخر ويتحد به ، نتيجة لما فيها من تشابه أو لما لها من علاقات واحدة ، بحيث إن ما تركه الإدراكات الجزئية العديدة فى الذهن هو ذكرى واحدة باهتة تحمل محل هذه الإدراكات جميعاً لأنها تجتمع فيها ارتباطاتها المختلفة . وعلى هذا النحو نجد أنه حينما تشترك عدة أشياء مختلفة فى كثير من الخصائص ، فإن العقل عندئذ يعجز عن الفصل بينها ، فليس فى مقدور العقل أن يحتفظ على نحو واضح بهذا العدد الهائل من الفروق



والعلاقات التي لا بد منها إذا أردنا أن نطلق اسمًا خاصًا وأن نتصور بالذهن تصورًا خاصًا لكل حبة من حبات الرمل على حدة ، ولكل قطرة من قطرات الماء ، وكل ذبابة وكل حصان وكل إنسان شاهدناه . لذلك كان لا بد من تصنيف هذه الكمية الهائلة من تجاربنا حتى يتسنى لنا أن نستعين بها . وهكذا بدلاً من أن تكون لدينا صورة ذهنية واحدة مميزة تقابل كل انطباع حسي من انطباعاتنا الأصلية ، ترانا لا نحفظ إلا نتائج عام واحد لهذه الانطباعات جميعًا ، وهو شيء يشبه الصورة الفوتوغرافية المركبة من عدة صور .

وهذه الصورة الذهنية الناتجة هي التي تصبح مفهوم النوع . وغالبًا ما يشتمل هذا المفهوم على عدد ضئيل جدًا من الصفات الحسية للجزئيات التي ينطوي عليها ، هذا إذا وجد فيه أي من هذه الصفات على الإطلاق . وغالبًا ما يكون العنصر الوحيد الموجود في جميع الأمثلة التي تشتمل عليها الصورة الذهنية النوعية بوضوح هو رمز مصطنع مثل صوت كلمة ( هي الاسم الذي نطلقه على مفردات النوع ) . فلا شك أن السبب في أن الاسم يستطيع أن يحل محل فئة من الأشياء هو أن الاسم أبرر العناصر المشتركة بين تجاربنا المختلفة للمفردات الداخلة في هذه الفئة . إننا نرى جياتًا كثيرة ، ومع ذلك فمن المحتمل جدًا أننا - اللهم إلا إذا كنا من هواة هذا الحيوان وكنا نلاحظه بشغف واهتمام - لن نحفظ في أذهاننا بصورة واضحة لأي من تلك الانطباعات فيما عدا ذبذبات الصوت

فى كلمة « جواد » التى صاحبت هذه الانطباعات إما فى أذهاننا وإما فى عالم الحس . وهذا الصوت إذن هو مضمون المعنى العام للجواد فى أذهاننا ، وتلتصق به جميع الارتباطات التى يتألف منها إحساسنا بمعنى هذه اللفظة . غير أن الشخص الذى يغلب الطابع البصرى على ذاكرته ربما يضيف إلى هذا الصوت الذى يتذكره صورة لهذا الحيوان على قدر متفاوت من التفصيل ، صورة لجواد معين فى وضع معين ، وأغلب الظن أن ما يصاحب هذا الصوت هو صورة كونها عن طريق المخيلة ، ولم يقمها على أساس جواد معين فى الواقع . وهذه الصورة التى لا تنقل بدقة أى جواد جزئى بالذات ، والتى هى خلق تلقائى من المخيلة تقوم بنفس الوظيفة التى يؤديها صوت اللفظة لما لها من علاقات محسوسة . ولا شك أن مثل هذه الصورة تختلف من وقت إلى آخر ، بل إننا إذا توخينا دقة التعبير قلنا إن الصورة ذاتها لا يمكن أن تتكرر أبداً . إلا أن هذه المدركات الحسية - كما يسمونها - التى تنبثق فى العقل كما تنبثق الأزهار من البذور المدفونة فى تجاربنا الماضية تنزع إلى اكتساب جميع القوى الإيحائية التى تتطلبها أى أداة من أدوات التصنيف .

وقد يكون لهذه القوى الإيحائية أساس فى المخ . فالمدرک الحسى الجديد - وأعنى مفهومنا عن نوع ما - يكرر إلى حد بعيد الإثارة التى تتألف منها الانطباعات الأصلية ، يكررها من حيث فحواها ومكان حدوثها معاً ، وطبقاً للعدد الكبير أو الضئيل من هذه الانطباعات الذى

يبعثه المدرك من جديد يكون هذا المدرك كاملاً أو ناقصاً فى تمثيله لها . فليست جميع الإيحاءات التى فى الكلمة أو الصورة على درجة واحدة من النضج ، فغالباً ما يعرض لنا مفهوم النوع أو النمط صورة ناقصة جداً وغير صادقة التمثيل للمجال الذى جاء ليبدل عليه . ويزيادة تفكيرنا ومحاولة إتمام هذا النقص يأخذ المدرك فى التغير تغيراً نلاحظه ؛ فمجرد شعورنا بأن أفراداً آخرين أو صفات أخرى تندرج تحت مفهومنا يحورّ من هذا المفهوم من حيث هو كيان سيكولوجى ، ويغير من تميزه ومجاله . ولتأخذ هذا المثل المعروف :

حينما أتذكر أن المثلث ليس هو المتساوى الساقين ، وليس هو غير متساوى الأضلاع ، وليس هو ذا الزاوية القائمة ، وإنما هو أى واحد من هذه وفى الوقت نفسه هو كلها معاً ، حينئذ أرجع فكرة المثلث عندى إلى لفظ « مثلث » وتعريفها ، وربما يصحّب ذلك إحساس بحركة اليد والعين التى نتحركها بصفة عامة عندما نرسم شكلاً ذا أركان ثلاثة .

وهكذا إذا كانت العناصر الشخصية تدخل فى تركيب المعنى الكلى فإننا لا نتوقع لمثال النوع المعين فى أذهاننا أن يكون دائماً هو المتوسط الدقيق لجميع الأمثلة الجزئية التى ينشأ عنها . إنه المتوسط على وجه تقريبي ، وفى هذا القول أقوى حجة ضد أسبقية المعنى الكلى أو قيامه بذاته . فالجواد الجميل أو الخطبة الجميلة أو الوجه الجميل ليس إلا حدّاً وسطاً دائماً بين طرفين نمذنا بهما التجربة . ويكفى أن توجد إحدى

الصفات المميزة بصفة عامة فى تجريرتنا حتى تصبح عنصراً ضرورياً فى الصورة المثلى . فليس هناك أى شىء فى ذاته جميل أو ضرورى مثلاً فى شكل الأذن البشرية أو فى وجود الأظافر على أصابع اليد والقدم ، ومع ذلك فالمثل الأعلى للإنسان الذى يدفعنا غرورنا المضحك إلى أن نجعل منه مثلاً أديباً مقدساً يتطلب هذه التفاصيل بالذات وبغيرها يصبح شكل الإنسان قبيحاً إلى درجة التقرز .

وكثيراً ما يحدث لتجاربتنا العارضة أن تحملنا على أن نضيف - على هذا النحو - إلى الصورة المثلى عناصر قد تؤدى إلى ضروب من الراحة النفسية المرتقبة تزيد على ما نستمتع به على الوضع الراهن ، وذلك على شرط أن يكون فى استطاعتنا حذف تلك العناصر دون أن تشمئز نفوسنا ؛ وهكذا ترى الذوق كما رسمته مدرسة معينة من مدارس الفن ، قد يجيء ناسخاً لآيات الجمال الرائعة التى خلقتها مدرسة أخرى . ونشاهد هذه الظاهرة ذاتها فى ميدان الأخلاق . فالمثل الأعلى البدائى للحياة يتطلب فعلاً ومخاطر لا تتمشى مع السعادة ، والضمير الفج الذى يقع تحت تأثير الطغيان لا يستطيع أن يرى خيراً فى أى حالة نفسية تخلو من اللذات الحادة التى يجربها . كما أن خيال الرجل المتعصب لا يعتبر أن الله عادل إلا إذا تصوره قاسياً قسوة مطلقة . ولا شك أن الهدف الذى ترمى إليه التربية هو تحريرنا من هذه الآراء المتعصبة والأفكار المستبسة ، وتطوير مثلنا العليا فى اتجاه أكبر خير ممكن . فمن الواضح إذن أن عادتنا

الإدراكية هي التي تكون مثلنا الأعلى ؛ فالمثل الأعلى هو على نحو تقريبي الصورة المتوسطة التي نتوقعها والتي ندركها إدراكًا باطنًا بسهولة .  
 وضرورة المثل الأعلى وصلاحيته من المسائل النسبية تمامًا والتي تحددها تجاربنا وملكة الإدراك الباطني لدينا . والصدمة التي نجدها في الموضوع نتيجة لعدم توقعنا له وعدم ملائمته للتصور الذي كونه سابقًا هي جوهر القبح ومعياره .

### ٣٠- تعديل المتوسط سعيًا وراء اللذة

غير أن مثلنا الجمالية كغيرها من الأنماط العامة لا نكونها بدون شيء من التحيز . فلقد سبق أن لاحظنا أنه من النادر أن يتألف المدرك الحسي على نحو محايد فيتألف من الأشياء الجزئية كافة التي جاء ذلك المدرك ليكون صورة لنوعها . ويرجع هذا التحيز إلى عدة ظروف متنوعة ، منها أن قدرتنا على الملاحظة الدقيقة لا تكون متساوية دائمًا . فإذا ما وجه اهتمامنا بأمر ما انتباهنا إلى صفة خاصة في الأشياء ، فإن هذه الصفة تصبح بارزة في المدرك ، بل قد تصبح المضمون الواضح الوحيد في الفكرة الكلية وأى شيء نصادفه بعد ذلك ، مهما يكن شبيهًا- من نواح أخرى - بالأشياء التي تندرج تحت الفئة السالفة الذكر ، ترانا نسرع إلى عزله وحده زاعمين له أنه ينتمي إلى نوع مختلف ، مادامت تعوره تلك الخاصية التي يتركز عليها اهتمامنا على نحو خاص . وهكذا فمدركاتنا الحسية عادة

متحيزة فى سبيل المصلحة العملية - هذا إن لم تكن المصلحة العملية هى التى تتحكم فى تكوين مدركاتنا تحكماً كاملاً . وبنفس الطريقة نجد أن مثلنا العليا الجمالية متحيزة لصالح الاهتمام الجمالى . فليست جميع أجزاء الشئ المدرك تلائم ملكة الإدراك الباطنى بدرجة متساوية ولسنا نلاحظ جميع عناصر الشئ المعين بنفس اللذة . وهكذا فالأجزاء التى تبعث على اللذة يهتم بها محب الجمال أكثر من غيرها ، والمدرك الذى يؤلفه هذا الشخص إنما يؤلفه من متوسط الأشياء ، مرتكزاً بأكبر اهتمامه على ذلك الجانب الذى يعده جميلاً فيها . وهكذا يتعد المثل الأعلى عن المتوسط ويقترب عما يثير اللذة عند الشخص المشاهد .

ولهذا السبب فإن العالم أكثر جمالاً جداً فى نظر الشاعر أو الفنان منه فى نظر الرجل العادى . حقاً إن الشاعر أو الفنان بتطور إحساسه بالجمال لا يرى جمالاً فى تلك الموضوعات التى تبدو جميلة فى نظر من لا يعرف النقد ، ويصعب إرضاء ذوقه بحيث إنه لا يرضى تماماً إلا عن أرفع الأشياء . ومع أن الموضوعات الفنية والطبيعية تفقد بعض جمالها فى نظره لكثرة مطالبه ولدقة حساسيته إذا ما قورن بالرجل العادى ، إلا أنه يعتبر العالم ذاته وما يحويه من مختلف مظاهر الطبيعة جميلاً جمالاً لا يوصف . فكلما رادت العيوب التى يجدها فى الأفراد زاد ما يراه فى الإنسان العام من مزايا ، وكلما زاد بكاؤه على مصير الروح المفردة مرارة زاد حبه وتقديسه للروح الإنسانية فى جوهرها المثالى . إن النقد والتزعة

المثالية يتضمن أحدهما الآخر : فتعودنا البحث عن الجمال فى كل شىء يجعلنا ندرك ما فى الأشياء من عيوب ، وحينما تكون حواسنا جوعى ترغب فى الإشباع الكامل فإنها تحس إحساسًا عميقًا بانعدام هذا الكمال الذى تطلبه . إلا أن طلب الكمال هذا يصبح فى الوقت نفسه نواة ملاحظتنا ، وسرعان ما يتجمع الجمال من كل جانب ويجتذب بعضه بعضًا ويختزن فى العقل فتتمكن بذلك من تجسيم أشواقنا العمياء أو تجسيدها . وهكذا تتبلور عدة أشياء ناقصة فى شكل كمال واحد ، ويمتلئ عقلنا بمعانٍ عامة أهم مميزاتها هو الجمال : وهذه المعانى هى فى الوقت نفسه أنماط الأشياء ( أو مثلها ) . حقًا إن النمط لا يزال هو النتيجة الطبيعية للانطباعات الجزئية ، إلا أن الذى حدد تكويننا إياه إنما هو عامل ذاتى عميق ، هو تحيزنا لما يسر العين .

ويمكن اختبار هذه النظرية بسهولة بأن نتساءل فى الحالات التى يختلف فيها الشكل المثالى عن متوسط شكل الأشياء عما إذا كان مصدر الاختلاف هو ما فى الصفة المبالغ فيها من قدرة على التأثير وتوليد اللذة . وفى حالة الشكل الإنسانى مثلاً يختلف التصور المثالى اختلافًا شاسعًا عن المتوسط ، وفى نواحٍ عدة نجد أن الحالة المتطرفة أو ما يدانىها هى أجمل الحالات . فيصف المؤرخ اليونانى القديم زينوفون مثلاً نساء أرمينيا بأنهن جميلات وفارعات القوام ، وما يزال حتى الآن نقول عن المرأة إنها جميلة وطويلة القيد أو أنها جميلة لكنها ضئيلة . فالحجم إذن ، حتى حيث

لا تكون له ضرورة كبرى ، من الصفات التي تزيد في الصورة المثلى عنها في المتوسط . والسبب في ذلك - بغض النظر عن ارتباطات الحجم بالقوة - هو أن الحجم الكبير يجعل الأشياء بارزة : وأول ما يلزم للموضوع لكي يولد أثراً في النفس أن يكون بارزاً ، والحجم من العوامل التي تجعل الشيء بارزاً . ولذلك نجد المثل الأعلى الجمالي يبالغ في المتوسط فيزيد من حجمه لأن في هذا التغيير ما يزيد من اللذة وهكذا يصبح الحجم الكبير من عناصر الجمال (١) .

وعلى هذا النحو أيضاً نشاهد أن العيون التي هي في ذاتها جميلة يبالغ في حجمها في النمط المثالي . وبصفة عامة نقول أن كل ما يثير انتباهنا خاصة ويزيد من اللذة التي نحس بها في الموضوع سواء أكان ذلك عن طريق صفاته الحسية أم شكله المجرد أم تعبيره يكتسب أهمية كبرى في النمط المثالي ، أهمية لا تقتضيها حقيقته في حالات ظهورها . وهكذا فنحن في تركيبنا للصورة الذهنية الممثلة للنوع إنما نقوم بعملية اختيار لما يثير اهتمامنا في الأشياء الجزئية لقيمتها الجمالية .

---

(١) إن ما يدعو إليه بيرك Burke من أن الجمال هو صغر الحجم مصدره تعريفه التسفي للجمال . فالجمال في نظره هو الجاذبية والرشاقة وكل ما من شأنه أن يولد اللذة ولا يؤثر في النفس تأثيراً جارفاً . وفي ذلك لا يفعل بيرك أكثر من أنه يطور الفكرة الشائعة في عصره عن التمييز بين « الجمال » *the beautiful* و « الجلال » *the sublime* .



وحيثما تمتدح الشيء لاقترابه من المثل الأعلى فى نوعه فإننا إذن ، عن طريق غير مباشر ، نحدد ميزة هذا الشيء الذاتية ونعبر عما له من تأثير مباشر فى حساسيتنا . ولو لم نحلل الشيء الواقعى على هذا النحو حينما نشير إلى الصورة المثلى لأصبح المثل الأعلى نافلة بغير معنى . فإننا لا نعرف ما هو المثالى إلا لأننا نلاحظ ما يسرنا فى الواقع . وإذا نحن سمحنا للفكرة الكلية أن تتحكم فى الانطباعات الجزئية على نحو تعسفى وأن تعميها عما قد يكون فى هذه الانطباعات من نواحي الجمال الجديدة التى لا تنتمى إلى أى من الأنواع التى عرفناها من قبل ، فإننا حينئذ لا نفعل أكثر من أن نحل الألفاظ محل المشاعر ونجمل التصنيف اللفظى يأخذ مكان الحكم الجمالى . وفى هذه الحالة يصاب الإحساس الجمالى بالضياع والتلف . إن للمثل العليا فوائدها بلا شك ، ولكن سلطانها كله هو فى أنها تمثل شيئاً سواها ، فهى تمثل لذات جزئية معينة ، وإلا لكانت غير دالة على شيء قط .

والواقع أن جهازنا العقلى كله ، وكل ما لدينا من معانٍ عامة وقوانين وموضوعات ثابتة خارجية ومبادئ وأشخاص وآلهة ليس إلا عدة من رموز وتعبيرات جبرية . فكلها تمثل التجربة ، تلك التجربة التى لا نستطيع أن نحتفظ بها ونستعرضها فى صورتها المباشرة البالغة التنوع . ولو لم تتمكن من أن نطفو ونسير مجرانا عن طريق هذه الوسائل الفكرية لغرقنا كما تغرق الحيوانات . إن مهمة النظريات هى أن تساعدنا على تحمل جهلنا بالواقع .

ومثل هذا يحدث على نحو من الأتحاء فى الميادين الأخرى ،  
فجيوشنا وسائل حتمها ضعفنا ، وامتلاكاتنا أعباء تطلبتها حاجتنا . ولو  
لم يكن موقفنا مهدداً لما اخترعنا هذه الآلات الهائلة التى تسبب الموت  
والحياة . وليس ذكاؤنا إلا سلاحاً آخر نحارب به القضاء . على أنه ليس  
ثمة ما يدعونا إلى الأسف لهذه الحقيقة لأن بناء هذه النظم المختلفة هو  
إلى حد ما من الوظائف الطبيعية للإنسان . إلا أن المشكلة ليست فى أن  
هذه النظم التى نتجها ذاتية دائماً ، وإنما هى فى أنها تكون أحياناً غير  
ملائمة وتسبب العذاب للروح الإنسانية . ولا تظهر الناحية المحزنة فى  
موقفنا إلا حينما تتعلق بتلك الأوهام الضرورية الناقصة بحيث نرفض  
الحقيقة التى تتبع منها تلك الأوهام التى ما جاءت إلا لتنبئ عنها .  
فعدتد نخطئ بإحلال الوسائل محل الغايات ، وهو ما يسمى بالوثنية فى  
الدين ، وبالتناقض فى المنطق ، وبالطيش فى الأخلاق . ومع أن هذا  
الشيء لا اسم له فى ميدان الجمال إلا أنه شائع جداً فيه ، إذ نصادفه  
كلما تحدثنا عما ينبغى أن يسرنا بدلاً من أن نتحدث عما يسرنا فعلاً .

### ٣١- هل جميع الأشياء جميلة ؟

وتقودنا هذه المبادئ إلى إجابة مفهومة عن سؤال لا يخلو من الأهمية  
فى ذاته وله أهمية بالغة فى أى مذهب فى علم الجمال . هذا السؤال  
هو :

هل جميع الأشياء جميلة ؟ أتكون الأنماط كافة على درجة واحدة من الجمال حينما نتخلص من تمييزنا العملى ؟ إذا كان القارئ قد قبل قضايانا السابقة فسيوضح له بسهولة أنه لا بد لنا من القول أنه بمعنى من المعانى لا يوجد شىء فى جوهره قبيح . فإذا كانت الانطباعات الحسية مدعاة للألم فمن الصعب علينا أن نحيلها إلى موضوعات ؛ فإدراك الشىء بالحواس إذن فى الظروف الطبيعية ، حينما لا تكون الحواس قد أصابها الإعياء ، يكون دائماً مصدراً للذة أكثر منه للألم . فإذا ما نشأ عن إدراكنا المتكرر لفئة من الأشياء المتشابهة غط إدراكى باطنى ، أى حينما يتكون لدينا مثل أعلى للنوع ، فإن إدراك هذا النمط أو التعرف عليه فى موضوع جزئى سيولد درجة من اللذة تتفق ودرجة الاهتمام والدقة التى لاحظنا بها الأشياء . ولهذا فدارس الطبيعة يرى من مواطن الجمال فى الطبيعة ما لا يحس به الفنان الأكاديمى ، ولا بد أن كل بيئة جديدة ستفتح أمامنا كنزاً من الأشكال الجميلة إن نحن سمحنا لها بتنمية إدراكنا .

غير أننا لسنا مضطرين لهذا السبب أن نقول أن جميع الفروق فى الجمال والجلال مصدرها التحيز الشخصى والميول العارضة . حقاً إن هناك ما يسوغ قول الصوفية إن الله لا يميز بين قيم الأشياء وإن تمييزنا البشرى فقط هو الذى يجعلنا نفضل الورد على المحار أو الأسد على القرد . فلو خلعتنا عن أنفسنا طبيعتنا البشرية لوجدنا أنفسنا بلا شك عاجزين عن هذا التمييز كما سنجد أنفسنا عاجزين عن التفكير والإدراك والإرادة على النحو

الذى يمكننا أن نسلك به الآن . ولكنه لن يهمننا أن نعلم كيف كانت تبدو لنا الأشياء لو لم نكن بشرًا . وحتى الصوفى الذى يكره الهيئة المعينة التى سوى فيها عقله لا يستطيع أن يسمو على ملكاته ، وإنما كل ما يمكنه أن يفعله هو أن يشل هذه الملكات ويقفها عن النشاط . فهو ينكرها بكل جوارحه إنكارًا مفهومًا وإن كان غير سليم ، إنكارًا لا يزال يتسم بالإنسانية رغم رعمه العكس ، ويصرف كل طاقته فى عملية الإنكار هذه ، وحينما يكفل مجهوده بالنجاح ، فأقصى ما يصل إليه هو أن يشل هذه الملكات عن العمل شللاً كاملاً .

وما يصدق على التصوف عامة يصدق أيضًا على الجمال . فلو استطعنا أن نغير من ذوقنا بحيث نحمد الجمال فى كل شيء ( لأن الطبيعة النهائية للأشياء ربما كانت ممثلة تمثيلاً صادقاً فى جميع الأشياء على السواء ) فحينئذ نكون قد قضينا على الذوق قضاء تامًا . وبدلاً من التسلسل التصاعدى فى اللذات الجمالية يكون لدينا حكم واحد رتيب . فإذا لم تكن الأشياء جميلة لما فيها من فروق وإنما لاشتراكها جميعاً على السواء فى شيء واحد فحينئذ لا يكون هناك تمييز فى الجمال . ويصبح الجمال كالجوهر هو نفس الشيء فى كل مكان ويصبح أى ميل إلى تفضيل شيء على شيء آخر دليلاً على الخداع والوهم والقصور . وحينما نحاول أن نجعل من أحكامنا أحكاماً مطلقة فإننا نضحى بمعايرنا ومقولتنا الطبيعية ونتخطى طبيعتنا حتى نفقد أنفسنا فى مجرد الوجود الغامض الذى نجد لذة فى غموضه .

وهكذا فالنسبية التي توجد لها طبيعتنا المتحيزة ضرورية لجميع أفكارنا وأحكامنا ومشاعرنا المحددة . وحينما نعتزف بالتحيز الإنساني باعتباره أساساً مشروعاً للمفاضلة لأنه لا غنى لنا عنه ، فحينئذ نرتب كل ما فى الطبيعة الغنية من موضوعات حسب هذا المعيار بحيث نجعل منها نظاماً من القيم المسلسلة . وكل شىء جميل لأن فى مقدور كل شىء إلى حد ما أن يثير اهتمامنا ويجذبنا إليه . إلا أن الأشياء تختلف اختلافاً شاسعاً فيما بينها فى مقدار ما يولده تأملنا لها من لذة فى نفوسنا . وهكذا فهى تختلف اختلافاً شاسعاً فى جمالها . ولو ثبتت طبيعتنا البشرية وتحددت فى كل أجزائها إلى الأبد لأصبح مقياس القيم الجمالية مؤكداً ، ولما تجادلنا فيما يتعلق بالذوق وليس ذلك لأنه لن يمكننا فى هذه الحال الوقوف على مبدأ عام للمفاضلة وإنما لأنه سيستحيل حينئذ كل اختلاف .

إلا أن الطبيعة البشرية هى فى الواقع تجريد غامض ، وليس ما هو مشترك بين جميع البشر إلا أضال جزء من مواهبهم الطبيعية . ولذلك فليست القدرة الجمالية مورعة توزعاً عادلاً على جميع البشر ، كما أن عالم الجمال يتفاوت اتساعاً وتعقيداً عند الناس . حقاً لو كان الاختلاف بين الناس مقصوراً على تفاوتهم فى درجات الثقيف والتطوير ، بحيث نستطيع أن نتبين فى أحكام أكثر الناس خبرة بالجمال مجرد تطوير لأحكام الفلاح الفج لما تأثر مبدؤنا الجمالى ، وطالما كان الأمر كذلك فإتنا

نستطيع أن نقول إن لدينا معياراً مشتركاً يطبق على نطاق يتفاوت سعة وضيقاً . ويعنى إمكان هذا المعيار وجود طبيعة مشتركة بين الناس تتفاوت فى درجة تطورها .

غير أن الناس لا يختلفون فى درجة حساسيتهم فحسب وإنما يختلفون أيضاً فى اتجاه هذه الحساسية . فالطبيعة الإنسانية تنقسم إلى طبائع متعارضة متباينة ، ويتبع الذوق هذه القسمة . ولا يستطيع الرجل المتزن أن يقول أن تذوق الموسيقى أسمى أو أدنى من تذوق النحت . فقد يكون الرجل الواحد موسيقياً ونحاتاً فى آئين مختلفين ، بل إن ذلك يعنى اتساعاً لنطاق العبقرية الإنسانية لا يصعب علينا تصوره . إلا أن الجمع بين هذين الذوقين ليس جمعاً بين نوعين من الجمال فى الموضوع الواحد وإنما هو جمع بين الموهبتين فى الشخص المتذوق ذاته . ويظل جمال النحت منفصلاً تمام الانفصال عن جمال الموسيقى ومختلفاً عنه . ولا يوجد شبه بين الصوت واللون إلا على أدنى مستوى باعتبارهما مجموعة من الذبذبات والإثارات . أما عندما يتطوران ويتميزان ويتحولان إلى موضوعات فإنهما حينئذ ينفصلان . ومع أن وعى الشخص الواحد يدركهما إلا أنه يدركهما باعتبارهما موضوعين لا يجتمعان ولا علاقة بينهما .

وهذا الاتساع المثالى للقدرة الإنسانية لا ينزع إذن إلى إيجاد معيار واحد للجمال فمعايير الجمال تظل تعبر عن عادات حسية وتخيلية

مختلفة . حقاً إن الرجل الذى يفوق غيره فى رحابة الأفق واتساعه وفيما أوتى من موهبة فى تمييز كل دقيقة من الدقائق هو عادة الناقد الذى يحترمه الناس أكثر من غيره : فهو سيعبر عن مشاعر عدد أكبر من الناس . إلا أن ميزة سعة الأفق فى النقد ليست فى أنها ترقى بحواسنا فى جميع الميادين ، بل غالباً ما يقع هاوى الفنون فى أخطاء يسهل على الفنان المتخصص اكتشافها . ومع ذلك فلا يوجد أحد متخصص بكل جوارحه ؛ فلا بد للشخص المتخصص أن تكون لديه بعض القدرة الكامنة على إدراكات من أنواع أخرى غير أنواع تخصصه . وإن من يتخصص فى دراسة نوع واحد من الجمال ليلجأ إلى من يهوى جميع الأنواع لكى يثير فى نفسه هذه الإدراكات وينظمها وينسقها .

إن من يميل إلى القول بأن جميع الأشياء متكافئة حقاً فى الجمال إنما يفعل ذلك نتيجة تحليل ناقص لعمليات الوعى الجمالى . فعلى الرغم من أن هذا الشخص يدرك اعتماد « درجات » الجمال على الطبيعة البشرية فإنه يغفل اعتماد « جوهر » الجمال أيضاً على هذه الطبيعة . ونحن لا نستطيع أن نقول أن جميع الأشياء متكافئة فى الجمال لأن التحيز الشخصى الذى يميز بينها هو ذاته السبب الوحيد الذى يجعلها جميلة على الإطلاق . ومبدأ المفاضلة الإنسانية هو ذاته مبدأ الذوق الإنسانى ، والجمال الحقيقى الموضوعى المتميز عن أهواء الأفراد لا يعنى أكثر من القرب من حساسية أكثر شيوعاً وأطول أمداً ، أو لا يعنى أكثر من استجابة إلى رغبة إنسانية

أكثر عموماً وأساسية . وليست القدرة الكبرى على التمييز التى ينشأ عنها اتساع الشقة بين الأشياء الجميلة والقييحة هى فقدان للقدرة على رؤية الجمال ، وإنما هى تطوير للملكة الجمالية التى يولد تنشيطها الجمال فى العالم .

### ٣٢- تأثير النظام غير المحدد

إن النشاط الحر للملكة الإدراك الباطنى هو الذى يخلق أهمية وطرافة خاصة على الموضوعات الغامضة الموحية التى لم تتحد ولم تتخذ شكلاً واحداً متسقاً ، وإنما يمكن تفسيرها على أنحاء متباينة . وكلما زاد اعتماد الفنان على توليد هذا التأثير زاد مقدار التفكير الذى يفترض وجوده لدى المشاهد وقلت البراعة التى يظهرها الفنان . فالذهن الفقير الذى تغلب عليه حرفة التفكير لا يستطيع أن يستمتع بما تتيحه الموضوعات غير المحددة من فرص لأحلام اليقظة وللإبداع ؛ ذلك لأنه تعوزه المصادر اللازمة لذلك . فهو يقف أمامها حائرًا قلقًا وسرعان ما يتحول عنها إلى ما هو أبسط منها وأكثر وضوحًا ، وغالبًا ما يتحول شعوره بالعجز أمامها إلى إحساس باحتقارها . كذلك نجد أن الفنان الموهوب الذى لا يمتاز بالصنعة والبراعة الفنية هو بلا شك الذى يخلق فى هذا المجال من الموضوعات غير المحددة . فهو يرسم لنا رسومات تقريبية ولكنه لا يصور لنا الأشياء تصويرًا دقيقًا أبدًا ، وهو يوحى ولكنه لا يفصح ، ويشيرنا



ولكنه لا يخبرنا أبداً . وهذا هو المنهج الذى يتبعه الأفراد والأمم التى تتميز بالعبقرية أكثر مما تتميز بالصنعة والبراعة الفنية .

والذى يصاحب هذه الخاصية هو إحساس بالعمق ، وبالمدلولات الهائلة وليس هذا الإحساس بالضرورة وهماً من الأوهام . فطبيعة موادنا - الفاظاً كانت أو ألواناً أو مادة تشكيلية - تفرض على تعبيرنا حدوداً معينة، بحيث لا يمكن التعبير عن حقيقة التجربة تعبيراً دقيقاً كاملاً بوساطة هذه المواد . ولذلك فحتى أعظم البراعة الفنية والصنعة يعجز عن الأداء الكامل والتعبير الشامل . وهكذا فلا بد من وجود منطقة ظليلة من الإيحاء حتى فى أكثر التصوير إيضاحاً وإفصاحاً لكى يتمكن هذا التصوير من توصيل الحقيقة . وحينما يكون هناك عمق حقيقى - أى حينما يتمكن الفنان من القبض بحق على المركز النابض للأشياء - يحس الفنان إذن بمدى قصور التعبير وبالتالي يطلب من المشاهد أن يسد ما فيه من نواحي النقص بوساطة أفكاره هو . غير أن هذا يجب ألا يحدث إلا بعد أن يكون الفنان قد تعلم أصول فنه جيداً واستغل كل طاقته استغلالاً صبوراً ، وإلا كان ما يحس به من العمق هو فى الحقيقة عجز وتخبط وغموض . وإن أبسط الأشياء ليستحيل التعبير عنه إن نحن نسينا الكلام . والانغماس الدائم فى ميدان لا يمكن التعبير عنه إنما هو دليل قاطع على أن الفيلسوف لم يتعلم كيفية التفكير وعلى أن الشاعر لم يتعلم كيف يكتب ، وعلى أن الرسام لم يتعلم كيف يرسم ، وعلى أن المرء لم

يتعلم كيف يعبر عن مشاعره - وكل هذا لا يتعارض مع ما فى الروح  
التي لا يمكن التعبير عنها من عبقرية هائلة .

ولقد تعود عصرنا هذا الانغماس فى هذا الغموض للسببين المذكورين  
هنا ؛ فالجمهور عندنا - وإن لم يكن فى الحقيقة مدرباً ( لأننا نخاطب  
جمهوراً أكبر مما يتطلبه التدريب ) - لهو على قسط كبير من المعرفة  
ويستجيب بحماسة إلى كل شىء ، وهو على استعداد للجد والكدح  
والأخذ بنصيبه لكي يحصل على متعته ومصالحته . وإنه ليفخر بفهمه  
وتذوقه كل شىء . والفن عندنا بدوره لا يغفل هذه الفرصة . ولذلك فقد  
أصبح عديم النظام والاتساق ، فردياً يقوم على الغريب من الأهواء ويتميز  
بتجريب الجديد دائماً . وما فى الأعمال الفنية من عناصر فجة لم يتوافر  
لدى الفنانين التركيز اللازم لتشيدها وثقيفها إنما نقبله ونعتبره من أمارات  
الأصالة كما أن ما فيها أيضاً من عناصر غامضة ، منعنا غرورنا من  
توضيحها وضبطها إنما نعتبره من علامات الجلال . وهذا هو سر النزعة  
الحديثة إلى محاولة كتابة الأعمال العظيمة على أساس مبادئ جديدة ،  
كما هو سر سهولة كتابة الكتب الصعبة .

### ٣٣- مثال من المناظر الطبيعية

وتعوضنا القدرة غير العادية على تذوق المناظر الطبيعية عن هذا  
الجهل بما هو رفيع ممتاز فى الفنون . فالمنظر الطبيعى غير محدد ، ففيه

دائمًا تقريبًا ما يكفى من التنوع لإعطاء العين حرية كبرى فى انتقاء عناصره وتأكيدا وتنسيقها فى مجموعات معينة ، وفى الوقت عينه إنما هو غزير بالإيحاءات وله قدرة كبيرة على إثارة الانفعالات الغامضة . فلكى نرى المنظر الطبيعى يتحتم علينا أن نألفه نحن ، ولكى نحبه ينبغي لنا أن نضفى عليه مدلولاً خلقياً . وهذا هو السبب فى أن الناس غير المثقفين أو ذوى الذوق المنحط لا يعيرون بيئتهم الطبيعية أى اهتمام ، ولا يعنّ لهم أن فى الإمكان تأمل العالم العادى الذى يعيشون فيه كل يوم تأملاً جمالياً . وهم لا يقفون لكى يتأملوا أثر العالم فى نفوسهم إلا فى أثناء عطلاتهم حين يخلعون على أنفسهم وعلى ممتلكاتهم رينة وبهجة غير عاديتين . أما ذلك الجمال الأكبر الذى فى النواحي اليومية من بيئتهم فإنهم يغفلونه تمامًا . ولكننا حينما نتعلم كيفية الإدراك الباطنى ، وحينما نهوى متابعة الخطوط وتطوير المناظر ، وأهم من ذلك كله حينما تتحول التأثيرات الدقيقة للأماكن فى طابعنا الذهنى إلى قدرة تعبيرية فى هذه الأماكن ، وتكتسب صفات شعرية عن طريق أحلام اليقظة ، وتجعلها مخيلتنا توحى بعالم بديع تقطنه الجنيات وتملؤه السعادة والمغامرات الغامضة ، حيثئذ نحس بأن المنظر الطبيعى جميل ، وتمتلئ الغابة والحقول وجميع المناظر الريفية والأراضى البور بملذات الصبغة والتسلية .

وهذا الجمال يعتمد على الأحلام والخيال والانفعال الذى يتحول إلى موضوعات . ولا يمكن الاستمتاع بالمناظر الطبيعية غير المحددة على نحو

آخر . فليس فى المنظر الطبيعى آية وحدة حقيقية ، ولذلك لايد للخيال أن يضىف عليه شكلاً ما . ويسهل على الخيال أن يصنع ذلك لأن الأشكال الممكنة فيه عديدة ، ولأن ما يصيب الموضوع من تغيرات طول الوقت يقدم للعين إحياءات متنوعة . وفى الواقع من الوجهة السيكولوجية لا يوجد شىء معين اسمه المنظر الطبيعى ، وإنما ما نسميه بالمنظر الطبيعى عبارة عن كثرة لا نهائية من جزئيات ومناظر تظهر لنا على التوالي . وحتى المنظر الطبيعى المرسوم ، مع أنه ينزع إلى اختيار بعض أجزاء الحقل وتأكيدھا ، فإنه يتألف عن طريق جمع العديد من المناظر . وحينما ننظر إلى الرسم فإننا نستعرض فيه أيضاً أجزاءه الواحد بعد الآخر وندرکه كما ندرك المنظر الطبيعى . ولكن الرسم بالطبع يقدم لنا مادة ليست فى غنى مادة الأصل الحى ، ولذلك فالأصل يفوقه بكثير .

والمدرسة التى تسمى بالتأثيرية فى صورتها المتطرفة هى وحدها التى تحاول أن ترسم على الرقعة منظرًا واحدًا عابرًا مطلقًا . والتتبيجة هى أن المشاهد لا يتأثر بهذا الرسم تأثرًا بالغ القوة ولا يكون للرسم فى نظره قيمة عاطفية كبرى إلا حينما يكون ذاته قد أثار انتباهه فعلاً هذا الجزء من المنظر الطبيعى الأسمى الذى يحكيه الرسم - فتكون قدرة الرسم على التأثير فيه شبيهة بقدرة الروائح على استرجاع الماضى على نحو واضح قوى . إلا أن هذا التناج فارغ تافه للغاية ، فهو صورة فوتوغرافية لانطباع منفصل ، ولا يعقبه كما تكون الحال فى الطبيعة صور منه مختلفة . ولا

يمكننا إدراك هذا الموضوع الغريب عادة إذا لم يكن قد ظهرت لنا هذه الرؤية المنفصلة الشاذة فى تجربتنا فى صورة بارزة . أما المدرسة التى تتبع عكس هذا الأسلوب - والتى يمكننا أن نسميها مدرسة المناظر الطبيعية الواثبة من منظر إلى منظر - فإنها تجمع عدة مناظر وتعطينا المجموع الكلى للملاحظات الإيجابية لمنظر معين ، بحيث يستطيع المشاهد بالتأكيد أن يتبين الموضوع بوضوح . وإذا كان المنظر يبدو غير حقيقى وغير طريف فى هذه المدرسة فإن ذلك يرجع إلى كونه لا شكل له ، مثله فى ذلك مثل الموضوع الحقيقى الكامل الذى يمثله ، بينما تموزه الحدة الحسية والحركة التى قد تجعل الحقيقة تؤثر فى نفوسنا .

إن المنظر الطبيعى لا شك يحتوى على أشياء عدة ذات أشكال محددة . غير أنه إذا اتجه انتباهنا إليها بالذات فلن يتولد لدينا ما نسميه حب الطبيعة . لقد كان من المعتاد منذ وقت ليس بالطويل أن يدخل رسامو المناظر الطبيعية أشخاصًا أو مباني أو أطلالاً لكى يضيفوا إلى جمال المكان بعض الارتباطات الإنسانية . أما إذا أرادوا رسم الطبيعة البور الوحشة فكانوا يعتقدون أنه ينبغى لهم على الأقل أن يظهروا مسافراً منهكًا جالسًا على أحد الأعمدة المتهدمة . وإذا ارتدى هذا الرجل الزى الرومانى لظهر أنه ماريوس جالسًا بين أطلال قرطاجنة . وظن هؤلاء الرسامون أن المنظر الطبيعى الذى يخلو من الأشخاص لا معنى له ، وأن المشاهد سيظل يتوقع ظهور شيء طول الوقت ، كما يتوقع النظارة ظهور

أشخاص حينما يرتفع الستار عن مسرح خاوٍ . وشعروا بأن عدم تحديد الإيحاءات التي يشيرها منظر طبيعي يخلو من العناصر الإنسانية إنما هو عيب فيه . بينما نحس نحن الآن بأن هذا هو ذاته مصدر المشاعر السامة التي يولدها في أنفسنا . فنحن نرغب في الحرية ، ونكتفى بمشاعرنا ، ولا نطلب وصفاً للموضوع يهمنا كجزء من أنفسنا . ونخجل من أن نقول أن « الجبال في نظرنا ليست إلا مشاعر » لما في ذلك القول من بساطة ووضوح ، ولا نرى داعياً للاعتذار عما لدينا من رومانطيقية كما فعل الشاعر بيرون حين قال :

« إن حبي للإنسان لا يقل ، وإنما حبي للطبيعة يزيد

لمقابلاتنا هذه ؛

وفيها أهرب مما أكون عليه أو مما كنت عليه من قبل لأمتزج

بالكون ولأحس بما لن أستطيع أبداً أن أعبر عنه » .

ولاشك أن هذه القدرة على الارتياح إلى الطبيعة وحدها بدون الحاجة إلى أى شيء آخر يزينها ، وعلى التمتع بثتى نواحيها إنما هي كسب عظيم . وتتألف تربيتنا الجمالية من تدريب أنفسنا على رؤية أكبر جمال ممكن . ورؤية الجمال في العالم الطبيعي الذي يحوطننا دائماً بالضرورة إنما هي خطوة كبرى في سبيل امتزاج الخيال بالواقع الذي هو هدف التأمل .

غير أنه يجب علينا ، ونحن نكتسب القدرة على تذوق ما لا شكل له ، ألا نفقد تلك القدرة الأخرى الأكثر لزوماً على رؤية الشكل في تلك

الأشياء التى يتحقق فيها . فنحن عادة فى حالة عدم وعى جمالى لإراء معظم الأشياء التى هى محددة وطبيعية فى الوقت نفسه ، حالة أشبه بحالة الفلاح إراء المنظر الطبيعى . فنحن ننظر إلى الحياة الإنسانية وإلى البيئة التى نعيش فيها بنفس النظرة المنفعية التى ينظر بها الفلاح إلى الحقل والجبل . فلا يجد فيهما إلا ما يعبر عن الثروة والفائدة ، أما ما هو خلاف ذلك فلا يشير اهتمامه . وإذا قصدنا بحب الطبيعة اللذة الجمالية التى نجدها فى شتى أنحاء العالم الذى تعيش فيه مصادقة ( وأى شىء أكثر « طبيعية » من الإنسان وجميع فنونه ؟ ) فنستطيع أن نقول أن حب « الطبيعة » المطلق نادر بيننا . فالذى نحبه هو إثارة.مشاعرنا وأحلامنا الشخصية ، ويستهوينا المنظر الطبيعى كما تستهوى الموسيقى أولئك الذين لا إحساس لديهم بالشكل الموسيقى .

ويبدو أنه ليس صحيحًا القول الذى يزعم أن حب القدامى للطبيعة كان أقل من حبنا إياها . حقًا إن حبهم للمناظر الطبيعية أقل من حبنا ، على الأقل ، أقل بالنسبة لحبهم لما تحتويه المناظر الطبيعية من أشياء محددة . فلم يكن تجذبهم التأثيرات الغامضة المتغيرة للجو ، ولا الحجم الهائل للجبال أو ما فى الغابات من تعقيد الحياة اللامتناهى . ولم يكن يغلب عليهم تذوق الموضوعات غير المحددة الذى يجعل المناظر الطبيعية من موضوعات التأمل الأثيرة . غير أنهم كانوا يحبون الطبيعة ويفهمونها إلى درجة كبيرة حقًا . بل إن تحويل الروح الإنسانى إلى موضوعات

خارجية في الطبيعة ، هذا التحويل الذى لا يزال الشاعر الرومانطيقى يوحى به على نحو غامض متغير ، قد اتخذ عندهم مظهرًا واضحًا كل الوضوح ، وعبروا عنه بالتصريح أكثر من التلميح . فليست الآلهة السماوية والأرواح التى جسدها وجعلوها تسكن الطبيعة بشتى صورها من بحار وأنهار وغابات وجبال إلا إدراكًا باطنياً محددًا لتلك الروح الغامضة التى نشعر بأننا نراها فى السماء والجبال والغابات . وقد نعتقد أننا ندرك عن طريق الحدس الغامض تلك الحقيقة التى عبروا عنها بخيالهم الطفلى عن طريق الخرافة . إلا أن اعتقادنا هذا - إن كان اعتقادًا - لا يقل خرافة عنهم ولا يقل فى كونه إسقاطًا للطبيعة البشرية على الموضوعات المادية . وإذا نبذنا كل تصور إيجابى لما فى الطبيعة مما يشبه المبادئ ، وأرجعنا ما خلغناه عليها من العناصر الخلقية إلى أصله فاعتبرناه مجرد تعبير شعرى عن إحساساتنا ، فلن نستطيع أن نقول أن ما لدينا من صور لفظية غامضة يمكن مقارنته كتصوير حياة الطبيعة بالأساطير اليونانية بما فيها من تحديد وتنوع وخفة روح وجمال .

### ٣٤- امتداد ذلك إلى موضوعات لا تعتبر عادة جمالية

وربما يلزمنا أن نذكر هنا بعض الميادين المتشابهة التى يضيف العقل الإنسانى فيها سلسلة من الأشكال المتغيرة على موضوعات غير محددة فى



ذاتها<sup>(١)</sup> . وواضح أن التاريخ والفلسفة الطبيعية والخلقية والدين هي من هذه الميادين . إن جميع النظريات مثلاً هي أشكال ذاتية نفرضها على مواد غير محددة . فالمادة هي التجربة ومع أن كل جزء من هذه التجربة في ذاته محدد تماماً بالطبع وتتألف منه هذه التجربة دون غيرها فإن تذكر التجارب المتتالية وربطها ببعضها ببعض هو من وظائف الملكة النظرية . فالمخيلة هي التي تربط بين الأشياء في الزمان والمكان على نحو منهجي وتجعلها يعتمد بعضها على بعضها الآخر . لذلك لا يمكن للنظرية أبداً أن تتحقق فيها درجة الصدق التي تتسم بها التجربة المباشرة ، وكما قال هوبز : لا يمكن لأى بحث نظري أن يؤدي بنا إلى معرفة مطلقة للحقيقة الواقعة .

ويمكننا أن نتصور وجود نظريتين مختلفتين لهما نفس الدرجة من الصدق بالنسبة لنفس الوقائع . فكل ما يلزمهما هو أن تكون كل منهما

---

(١) حينما نتكلم عن أشياء محددة في ذاتها إنما نقصد بالطبع أشياء أصبحت محددة نتيجة فعل تحديد إنساني . فالحواس هي وسائل تحدد الإحساس وتميزه . والموضوع المحدد الذي ينتج عن هذه العملية الأولى ( عملية الإدراك الحسى ) يكون بمثابة المادة التي تطبق عليها عملية ثانية . فالذاكرة مثلاً تصنف في الزمان ما تكون الحواس قد صنفته في المكان . ولسنا معنيين بموضوعات غير موضوعات التجربة الإنسانية ، وتشير الصفات « محدد » و « غير محدد » بالضرورة إلى علاقة هذه الموضوعات بمختلف مقولاتنا في الإدراك والفهم .

مساوية للأخرى فى كونها خطة كاملة فى الربط بين الحقائق التى تدرسها وفى القدرة على التنبؤ بها . وحينئذ يكون الاختيار بينهما قائماً على أساس شخصى صرف ، وذلك لأنه مادام الشيء الخارجى فى ذاته غير محدد ، فإن عناصره يمكن إدراكها بالتصور العقلى موحدة على كافة الصور الممكنة لتوحيدها . إن النظرية صورة من صور الإدراك الباطنى ، وحينما نطبقها على الواقع فإننا نتأثر بدرجة أكبر مما نعتقد بمدى السهولة واللذة اللتين نجدهما فى التفكير بوساطتها ، أى بجمال النظرية ، هذا على الرغم من أن أول شيء نعتبره فى النظرية هو طبعاً مدى صلاحيتها من حيث هى وسيلة كافية للتفكير .

وقد تبدو حالة النظريتين المتكافئتين فى الصدق والشمول اللتين نفسر بهما الطبيعة حالة خيالية إلى حد ما . فليس العقل الإنسانى من الغنى وعدم التعين بحيث يسوق عدة جياذ صفاً واحداً دفعة واحدة ، كما يقول المثل السائر ، بل يود أن يكون لديه إطار عام واحد فقط من المدركات العقلية ، يحاول أن يضع فيه جميع الأشياء . غير أن الفلاسفة الذين هم رواد الذوق الفطرى قد تبينوا إمكان وجود مناهج عدة لتفسير مجموعة بعينها من الوقائع . وكما أن فى بداية التطور توجد عادة أنواع عدة لا يثبت منها إلا بعضها دون بعض ، فكذلك فى بداية التصور العقلى توجد نظريات عدة يطورها العقل معاً ، وتراها فى معظم مراحل التفكير تنقسم العقل فيما بينها : فيفكر فى هذا المجال على أساس معين وليكن

الأساس الميكانيكى ، بينما يفكر فى مجال آخر على أساس مختلف مثل الأساس الغائى . والعقول التى تتميز بالنزعة النظرية ، أى تلك العقول التى ترجح فيها الرغبة فى وحدة الفهم على الضرورات العملية ، هى وحدها العقول التى لا تحتل الصراع بين التفسيرين المتضارين . ففى هذه العقول تنزع إحدى هاتين النظرتين إلى ابتلاع التجربة بأسرها وإن كانت عادة تعجز عن ذلك .

إن النصر النهائى لفلسفة واحدة لم يحرز بعد ، وذلك لأنه لم توجد حتى الآن فلسفة واحدة تكفى لتفسير التجربة بأسرها . ولو قدر لنا أن نصل إلى وحدة ما فلن يكون اتفاقنا جميعاً دليلاً على اكتشافنا للحقيقة كما يتخيل العامة ، وإنما يكون دليلاً على أن العقل البشرى قد وجد طريقة محددة لتصنيف تجاربه . ومن المحتمل جداً أن الإنسان ، لو ظل محافظاً على عادته المتأصلة فى تشخيصه لأفكاره ، فسيجعل هذه الخطة المحددة مصورة للعلاقات الموضوعية بين الأشياء . غير أنه لن يكون حينئذ دليل واحد على صدق ذلك ، بل لن يكون ثمة ما يوحى بوجود أشياء خارجية ، ناهيك بوجود علاقات بينها فكما أن الأشياء الخارجية ليست إلا مدركات جسدت فكذلك العلاقات بينها هى عمليات للعقل الإنسانى قد جسدت أيضاً .

وهكذا فوصولنا إلى فلسفة واحدة نهائية معناه فقط أننا استطعنا الوصول إلى صورة مثالية مقنعة للإدراك الباطنى الإنسانى ، وتظل هذه

الفلسفة مجرد نظرية أى أداة للفهم والنظر تلائم العين البشرية ، وتظل مختلفة اختلافاً كلياً عن الواقع ، وعاجزة كلية عن تمثيل أى من التجارب التى تربط فيما بينها على نحو صناعى بحيث تخلق منها نسقاً أو نمطاً معيناً . والأساطير والديانات أبرز الأمثلة لهذا المنهج الذى يتبعه الإنسان فى وضع الكثير من التجارب المائجة فى صور ورسومات محددة بديعة . ولكننا إن فكرنا باتزان فى هذه الأمور أدركنا أنه لا يمكننا أن نجد فى نظريات العلم والفلسفة شيئاً أكثر من ذلك . فهذه النظريات بدورها ليست إلا نتاجاً من خلق العقل الإنسانى ولا وجود لها إلا فى حركات التفكير كما أنه لا مبرر لها إلا اتفاقها مع تجاربنا .

يبد أنه قبل أن نستطيع أن نصل إلى هذا التوحيد المثالى للتجارب بأسرها فى نظرية واحدة لا يبد لنا أن نستمعرض ميادين الفكر المختلفة أولاً ؛ فنحن مجبرون على تأمل الحياة فى أفعال متنوعة منفصلة لا رابطة بينها ، مادام محالاً على مادة الحياة بأسرها أن تمثل أمامنا ونحن أحياء . كما أنه محال على الذاكرة أن تحتفظ بما قد مثل منها احتفاظاً منزهاً عن التحيز ؛ لكن الفكر البشرى بروعة صوره قد يعوضنا عن قصوره دون الكمال .

فالتاريخ مثلاً ، الذى يحسبه الناس عرضاً للوقائع ، إنما هو فى الحقيقة مجموعة من الإدراكات الباطنية لمادة غير محددة . إذ أن مادة التاريخ ذاتها ليست واقعاً وإنما تتألف من ذكريات والفاظ يمكن تفسيرها

على أنحاء مختلفة دائماً ؛ فلن نحمد المؤرخ الذى يخلو من التحيز لأن التحيز هو ما يحدد التاريخ . فالذاكرة - أولاً - من شأنها أن تختار شيئاً وتدع شيئاً ، وكذلك من شأن المدونات الرسمية وغيرها أن تختار ما تثبته ، وغالباً ما تكون متحيزة عن قصد . إن المصادقة وحدها هى التى تبقى على الآثار والأطلال ، وحينما يلجأ المؤرخ إلى دراسة هذه الآثار الضئيلة المتبقية من الماضى يبدأ عقله الخاص نشاطه . فلا بد للمؤرخ من اهتمام خاص يوجهه فى عمله ؛ فليس التاريخ سجلاً لكل حادثة معروفة بدون تمييز ، وليس ما توحى به كليو ( آلهة التاريخ ) شبيهاً بمجموعة محفوظة من الجرائد اليومية . بل التاريخ نظرة فى مصير نظام اجتماعى أو شخص معين ، وهو يتبع اهتماماً معيناً فى طريق سيره ، وهذا الاهتمام هو الذى يدنا بالمعيار الذى ننتقى على أساسه الوقائع ونقيس به أهميتها . وبعد أن ينتقى المؤرخ الوقائع على هذا النحو ويرتبها ويقومها ينتقل إلى مرحلة تبيان العلاقات والعلل ، وفى هذا الجزء من عمله ينغمس المؤرخ فى عملية يعترف بأنها عملية نظرية ويصبح المؤرخ شاعراً فلسفياً . وكل شئ حيثئذ يعتمد على عبقريته وعلى مبادئه وعواطفه ، وبالإجمال على تلك الصور التى هى وسيلة عقله فى الإدراك ؛ فقيمة التاريخ تشبه قيمة الشعر ، وتفاوت حسب ما فى الشكل الذى يعرض فيه المؤرخ مادة الحياة الإنسانية غير المحددة من جمال وقوة وكفاية .

### ٣٥- ما فى عدم التحديد من أخطار أخرى

إن شخف جنس من الأجناس أو عصر من العصور بتأثير من نوع خاص إنما هو تعبير طبيعى عن مزاجه وظروفه ، ولا يمكن انتقاده أو تصويبه بسهولة . ومع ذلك لنقف هنا برهة لتتأمل بعض المساوئ التى تنتج عن تذوق الموضوعات غير المحددة . فإننا بذلك نقرر حقيقة ثابتة ، وفى الوقت نفسه قد نشجع ما قد نحس به فى أعماقنا من ثورة ضد هذه النزعة المتطرفة السائدة . إن الشئ غير المحدد مبهم بطبيعته ولذلك فتأثيره غامض وليس مؤكداً ، وإذا استعمل للتعبير عن معنى معين كما هى الحال فى فنون عدة فما من شك فى أنه يكون تعبيراً فاشلاً . أما إذا لم يقصد منه التعبير عن معنى كما هى الحال فى المنظر الطبيعى وفى العمارة أو فى الموسيقى فإن غموض الشكل لا يكون موضع انتقاد ، وإن كانت النزعة إلى ملاحظة الشكل والمطالبة به فى جميع هذه الموضوعات دليلاً على مقدرة أكبر على التذوق . فالجهلاء لا يستطيعون أن يروا ما فى الموسيقى والعمارة والمنظر الطبيعى من شكل ولذلك فهم لا يعون القيم الفنية المتفاوتة فى هذه الأشياء وإنما يعتبرون هذه الأشياء مجرد مؤثرات تواد فى نفوسهم استجابات عاطفية هادئة أو منبهة . ولكن القيم الحسية والترابطية لهذه الأشياء ولا سيما الموسيقى كبيرة بحيث أنه من الممكن أن يوجد قدر كبير من الجمال بها حتى ولو لم يتوافر أى تذوق للشكل .

أما في ميدان الأدب حيث تكون التيمة الحسية للألفاظ ضئيلة نسبياً فإن عدم تحديد الشكل يقضى على الجمال ، وإذا انعدم التحديد تماماً فإن ذلك يقضى على قوة التعبير . لأن المعنى في الأدب ينقل إلى الغير عن طريق « شكل » الألفاظ ووضعها ، وليس عن طريق الألفاظ ذاتها ، ولا يمكن الوصول إلى المعنى الدقيق إلا عن طريق الأسلوب الدقيق . ولذلك فلا يوجد كاتب له شأنه يعتمد إلى غموض التركيب في ألفاظه عن قصد ، ولا يفعل ذلك إلا من يقلد البدع الأدبية . والكتاب عبارة عن جملة كبرى ، وإذا انعدم الشكل فيه فإنه لا يعنى شيئاً لنفس السبب الذي يجعل مجموعة الألفاظ التي لا شكل فيها عديمة المعنى . حقاً قد يكون هناك بعض المعنى في أجزائه كما يكون للألفاظ التي تستعمل بدون دقة معنى ولون معروفان ؛ ولكن الكتاب في مجموعته لن يوصل لنا أى رسالة .

وفي الواقع هناك مرحلتان لانعدام الشكل في التأليف . الأولى هي ما نجده في أعمال إمرسون Emerson مثلاً وهي مرحلة نضم فيها شذرات ذوات معنى بعضها إلى بعض ، بحيث لا تؤلف هذه الشذرات فيما بينها أى مذهب أو فكرة متكاملة . والمرحلة الثانية هي ما نجده في كتابات الرمزيين في أيامنا ، وفيه يقصر كل المعنى على الألفاظ المفردة ، بل يقصر على المقاطع التي تتألف منها . ولا شك أنه يمكن لهذه الفسيفساء من القيم اللفظية أن تولد أثرًا في النفس ، ذلك لأن انعدام

الشكل لا يقضى على المادة ، وإنما هو كما لاحظنا يمكّن الانتباه من التركيز عليها ، ولهذا السبب كان انعدام الشكل من الوسائل التي تبرر جمال الصوت والإيحاء اللفظي . غير أن هذا المثل يوضح كيف أن النزعة إلى إهمال البنية والتركييب في الأدب تؤدي إلى التضحية باستعمال اللغة من حيث هي أداة للفكر . فمن السهل أن ينحط الغموض ويسهب إلى منزلة انعدام المعنى .

إن ما هو غير متعين شكلاً يكون غير متعين قيمة كذلك . إذ يحتاج هذا الشيء إلى ذهن المشاهد ليكمّله ، ولما كانت هذه التكملة تتفاوت فلا بد إذن أن تتفاوت قيمة النتيجة . وهكذا فالموضوع غير المحدد جميل فقط في نظر من يجعله جميلاً ، وقبيح في نظر من لا يستطيع أن يضمن عليه الجمال . وهو يستهوى قليلاً من الناس ويستهوهم على أنحاء مختلفة . والواقع أن ذهن المشاهد هو المستودع الذي يجب أن يستمد منه الشكل الجميل . وإذا لم يوجد فيه الشكل فلا يمكن تطبيقه على الموضوع الذي لم يتم تكوينه مثلما يعجز الرجل الذي تعوزه البراعة الفنية عن أن يكمل النتاج الفني لرجل آخر . وهكذا يحتاج الموضوع غير المحدد إلى ذهن نشيط غنى وإلا أصبح عديم القيمة .

وفضلاً عن ذلك فالموضوع غير المحدد لا يعود بالفائدة على الذهن الذي يتقبله ؛ فهو يبعث هذا الذهن على النشاط ولكنه لا يقدم إليه



موضوعًا جديدًا . فنحن لا نستطيع أن نستجيب إزاءه إلا عن طريق الأشكال الإدراكية الباطنة التي تعودناها من قبل . والموضوع الذى يعوره الشكل لا يستطيع أن يدخل شكلاً جديداً على الذهن أو يصوغ الذهن فى قالب عادة جديدة ، فذلك يحدث فقط حينما تحجر المعطيات العين والمخيلة بما فيها من تحديد واضح على السير فى مسالك جديدة وعلى رؤية علاقات جديدة ، وحينئذ يقدم إلينا جمال جديد ويقدر هذه الجدة نزداد غنى . أما الموضوع غير المحدد فهو مؤثر غامض مثله مثل الموسيقى بالنسبة للشخص المسرف فى عاطفته : فهو يبعث بدون تمييز على كل ما يمكن بعثه من المعانى والذكريات ، ومع أنه يثير الذهن إلا أن لا يدرجه على شىء ولا يعرفه بموضوع جديد . وقد تكون لهذه الإثارة مزاياها كالمزايا التى كانت فى تحريك الماء فى بركة بيت حسدا<sup>(١)</sup> . فحينما يقع العقل الخلاق الغنى بالتجربة والملاحظة تحت تأثير هذا المؤثر فإنه يقفز إلى فكرة جديدة ويؤتى ثمرة من ثماره . إلا أن البذرة المخصصة فى هذه الحال أتت من مصادر أخرى ، من الدراسة والإعجاب بتلك الأشكال المحددة التى تحويها الطبيعة والتى أوجدها الفن فى تقليده للطبيعة وأصلح منها حتى بلغت الكمال .

---

(١) انظر أنجيل يوحنا - الإصحاح الخامس ( المترجم ) .

## ٣٦- وهم الكمال اللامتناهى

المزية الكبرى إذن للكيان غير المحدد هي في أنه ينمى التلقائية والذكاء والمخيلة التي بدونها يظل كثير من الأشياء الهامة غير مفهوم وبالتالي غير مثير للاهتمام . ويرجع إلى هذه الموهبة الإدراكية الباطنة جمال المناظر الطبيعية وأشكال الديانات والعلوم وأنماط الطبيعة البشرية ذاتها . ولولاها لواجهتنا الفوضى ؛ فمن طريق نشاطها الصبور المتجدد أبداً نحت من سيال المادة أشكالاً مختلفة عديدة . والشئ الذى يثير فينا هذه الفاعلية يبدو لنا أكثر جمالاً وجلالاً من الشئ الذى يعرض لنا شكلاً واحداً لا يتغير مهما كان كاملاً . ويبدو أن فى الشئ الناقص حياة ولا نهاية لا يعرفها الشئ المحدد بحكم اكتمال تكوينه وتحجره . ومع ذلك فهذه الفاعلية ذاتها تسعى إلى بلوغ التحدد ، فنحن لا نستطيع أن نرى جمالاً فى الموضوع غير المحدد إلا بقدر ما ندخل فيه من شكل . ولا يمكن أن تكون قلقلة الشكل ميزة فى العمل الفنى ؛ فالموضوع المحدد يحافظ دائماً على ما لا يتمكن الموضوع غير المحدد من الوصول إليه إلا فى تلك اللحظات التى تكون المخيلة فيها نشيطة على نحو خاص . وإذا كنا نحس بشئ من خيبة الظن فى الحدود الرتيبة للشكل المحدود وفى رسالته الواحدة الثابتة التى لا تتغير بتغيرنا ، أفليس من المحتمل أن نحس إحساساً أعمق بالحزن لسرعة زوال مناظر الجمال التى نراها فى الموضوع غير المحدد والتى لا نستطيع أن نقبض عليها مهما حاولنا ؟

ليس من المحتمل أن يصيبنا الملل في حالة تأملنا للموضوع غير المحدد ،  
لما يصحب هذا التأمل من مشاعر العذاب وعدم الطمأنينة وغياب اليقين  
ومن الوعي بالذات ، أكثر مما يصيبنا في حالة تأملنا الهادئ للموضوع  
الثابت ؟ أليس من المحتمل أن نفضل الشيء الثابت على الشيء الذي  
يضيع ولا يمكن استرجاعه ؟

إنه لمن المحتمل جداً أن يحدث لنا ذلك ، وكان يسهل علينا أن  
نحس بوضوح بأن المحدد شيء مفضل على غير المحدد لولا ذلك الوهم  
الذي يميز المزاج الرومانطيقى ، والذي يضيف جاذبية غامضة على الأشياء  
غير المحددة والتي لا يمكن تحديدها : وهذا هو الإحشاء بالكمال  
اللامتناهي . وفي الحقيقة أن الكمال مرادف للمتناهي ؛ فلا يمكن لأي  
شيء سواء في الطبيعة أو في الخيال أن يكون كاملاً دون أن يتحقق فيه  
نمط محدد يستبعد كل ما هو متغير ويختلف اختلافاً تاماً عن أي ممكن  
آخر من إمكانات الوجود فلا كمال بغير نمط معين أو صورة من صور  
الإدراك الباطني . ولذلك تتعدد ضروب الكمال بتعدد الأنماط أو صور  
الإدراك في الذهن .

وضروب الكمال المختلفة هذه يخارج بعضها بعضاً ، ولا يمكننا أن  
نخلط بينها إلا في حالة من الشمالة الجمالية أو الخيال المجنون . وكما أن  
الامبراطور الروماني ود لو كان للشعب الروماني بأسره عتق واحد حتى  
يتمكن من قطعه بضربة سيف واحدة كذلك نحن أحياناً نود لو كان

لضروب الجمال المختلفة شكل واحد حتى يمكننا أن نراها جميعاً في نظرة واحدة . إلا أن ضروب الجمال بطبيعتها لا يمكن التوفيق بينها ، فلا يمكن للربيع أن يوجد مع الخريف ، ولا لليل أن يوجد في الوقت نفسه الذي يوجد فيه النهار . وما هو جميل في الطفل يعد قبيحاً في الرجل ، والعكس بالعكس . فلكل سن ولكل بلد ولكل جنس جمال خاص به ، جمال ذو حدود ويستعصى على الانتقال إلى غير موطنه ، وكلما قرب الموضوع من هذا الجمال ازداد مخارجه لضروب الجمال الأخرى . ومن الواضح أن هذا الكلام يصدق أيضاً على مدارس الفن والأساليب واللغات وكل تأثير آخر . فالجمال يوجد في صورة متناهية ويزيد كمالاً بزيادة تحديده .

يبد أن هناك حالة شعورية غير محددة تتسم بالعجز إلى حد ما ، حالة لا نستطيع فيها أن ندرك فكرة أو رؤية معينة في وضوح كامل وجمال مطلق ، ومع ذلك نحس أنها كامنة في مؤخرة شعورنا وأن وجودها يعاودنا دائماً . ومن الأسباب التي تجعل الفكرة لا تظهر من مكمنها الغامض كونها لا توجد بمفردها في العقل ، وإنما هي توجد في حالة مختلطة مع آلاف من المعاني الأخرى ومن الأفكار الناقصة الطبيعة . وإذا عرضت للعقل أي صورة محددة استجابة لهذا الانفعال الغامض في الروح فإننا نحس بقدور هذه الصورة عن سد حاجتنا العاطفية على الرغم مما في هذه الصورة من كمال خاص ، ولربما كان ذلك بسبب هذا

الكمال . وحيثذ نقول أن الصفات الكلاسيكية لا تشيع حاجتنا ، أو أننا « سرعان ما نمج الفن الإغريقي لكماله » . إننا غير قادرين على الاهتمام المركز الجدى بشيء واحد بحيث ننغمس فى كيانه ونستمع بما فى ذات شكله من تناسق وتناغم ، وبالنشوة التى توجد فيما يفتح لنا فيه من آفاق . حقاً إننا نتخبط فى الغامض ، غير أننا فى الوقت نفسه نملؤنا الأشواق والمعانى التى لم تتم وأشبه الرؤى ، وما فى حالتنا النفسية من مشاعر وانفعالات سامية ونزعات تدفعنا إلى أعلى يفوق بكثير عجزنا عن التفكير والتعبير والتخيل .

إن ما فىنا من معانٍ وتصورات مفككة وناقصة كثير جداً ، وربما كان لهذه المعانى والتصورات اتجاه عام واحد وإن كان غامضاً . وإننا نحس بأننا يثقلنا حمل لا نهائى ، وبأن ما يبهجنا أكثر من غيره ويبدو لنا أنه أدنى إلى المثل الأعلى ليس الشيء الذى يحتوى على شكل ممكن واحد ، بل هو ذلك الذى يوحى بأشكال عدة لخلوه من شكل خاص واحد ، والذى يثير مجموعة تخيلاتنا البكماء وينشر فيها هزة شاملة . فكل شيء مهما خلا من الجمال فى ذاته فقد يصبح فى نظرنا موحياً ومعبراً عن جمال لامتناه حينما يثير فى نفوسنا انفعالات غير محددة ، وهكذا يمكن الإحياء بالجمال اللامتناهى الذى يستحيل تحقيقه لما فيه من تناقض . ويسبب هذا الإحياء تجردنا قد نعتبر التأثير غير المحدد أسمى وأهم بل وأجمل من التأثير المحدد .

غير أنه من الواضح أن هذا وهم باطل . فليس هذا الكمال اللامتأهى الموحى به إلا تناقضاً مضحكاً . فليس فى الواقع إلا انفعالاً غامضاً قوامه موضوعات لو تمكنت من الظهور من فوضى الخيال المضطرب لاتضح أنها ليست إلا عدداً كبيراً من موضوعات مختلفة كلها محدد وجميل . وهذا الانفعال بالكمال اللامتأهى هو المادة الأولية *materia prima* أو المواد الخام *rudis indigesta que moles* التى يستمد منها الإلهام والانتباه والفن عدداً لا يحصى من ضروب الكمال الجزئية المحددة . وكل نجاح جمالى سواء فى ميدان التأمل أو فى ميدان الإنتاج إنما هو ميلاد لإحدى هذه الإمكانيات التى يتضمنها الإحساس بالكمال اللامتأهى . والعمل الفنى الغامض أو الملاحظة التى تظل غير محددة يتسمان بالفشل مهما كان عمق الانفعال الذى يشرانه فينا . ويتسمان بالفشل لسببين : أولهما أنه من النادر أن يكون هذا الانفعال مبعثاً للذة الخالصة فهو يوجد الحيرة والاضطراب ، ويولد رغبة جديدة فى النفس أكثر مما يشبع الرغبات الماثلة ، وثانيهما أن هذا الانفعال لا ينجح فى أن يصبح جمالاً لأنه انفعال غير مجسد ، وهكذا لا يتبقى لدينا إلا مجرد عاطفة أو شعور بوجود قيم أو باحتمال وجودها ، ولكننا نعجز عن تخليص هذه القيم أو عن جعلها قيماً صريحة من الممكن التعرف عليها فى شىء يلائمها .

ولهذه التحسسات التى نلتبس بها سبيل الجمال قيمتها من حيث هى علامات تدل على النشاط الجمالى كما أنها أمارات تشير إلى ما يمكن أن يتم أدائه فى المستقبل . إلا أنها فى ذاتها ناقصة وتدلل على عجز الخيال . ومن أمثلة هذا العجز الجمالى تأثر المشاهد بعواطفه وتأثر الفنان بخياله الشاطح ؛ فحيثما رأى الإنسان الجمال وأحبه حقاً ، كان جمالاً متجسداً ، ومن ثم دقت نظرة العين واكتسب الأثر الفنى أسلوبياً معيناً ، وبلغ الشيء غاية كماله .

نعم إنه قد يكون كمالاً من نوع جديد ، فإذا كان الكشف عن كمالات جديدة هو ما يسمى بالرومانطيقية ، كانت الرومانطيقية إذن هى بداية الحياة الجمالية بأسرها . أما إذا كنا نقصد بالرومانطيقية الإغراق فى الإيحاءات الغامضة المضطربة والإسراف فى إظهار القوة المضخمة كنا بحاجة إلى تهذيب وإلى جهد واع ، حتى نخلص ضروب الجمال التى نحس بها على هذا النحو الغامض ونجسم كلاً منها بالقدر الكافى . ولا تعنى عملية التوضيح هذه بالضرورة الحد من مجال الإلهام الواسع ، لأنه لا يوجد حد لعدد الأشكال المختلفة التى من الممكن أن نخلعها على العالم . غير أننا لا نستطيع أن نرى العالم عالماً من أشكال إلا إذا تذوقناه تذوقنا للشيء الجميل ولم نكتف بمجرد الإحساس به إحساسنا بما لا نستطيع أن نعبر عنه . وهكذا يعطينا شكسبير فى أعماله صوراً كثيرة شديدة التباين من شخصيات كثيراً ما تبلغ الدقة فى رسمها حد ما يدعو

إلى العجب ، والأشكال التي تصادفها في فنه محددة المعالم على الرغم من سعة مجاله .

وإنه لمن عجيب المفارقات أن نتوقع أن نجد أكبر قدرة على التعبير في الشيء الذي يظل غير محدد ، والذي هو في الحقيقة لا يعبر عن شيء . وكما سبق أن لاحظنا أن الإحساس بالعمق وأهمية الدلالة إحساس يمكن أن يقوم بذاته وأن يصاحب خليطاً مضطرباً من المشاعر الغامضة بنفس السهولة التي يصاحب بها الفهم التام للحقيقة . وإن وهم الكمال اللامتأهي لقادر بصفة خاصة على إيجاد هذا الإحساس ؛ وينشأ هذا الوهم نتيجة لتيقظ عدة أفكار ومعانٍ معاً في مرحلتها البدائية الغامضة ؛ ويهز هذا الإحساس أعماق العقل كما تهز الريح أشجار الغابة ؛ والوعى الغريب بما في الروح من حياة وحنين ، ذلك الوعى الذي تحدته عصفة الإحساس هذه ، يجعلنا ندرك في الموضوع قوة فريدة ومعنى ملغزاً .

ولكن الإحساس بأهمية الدلالة لا يعنى إلا قليلاً . فكل ما لدينا في هذه الحالة هو إحدى إمكانات الخيال ، ولا يظهر في العقل أى معنى حقيقى أو أى شيء يرمز إليه هذا المعنى إلا حينما تبدأ هذه الحالة في التحول من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل ؟ فالخير الجمالى الأسمى ليس هو هذا الوجود بالقوة فى إبهامه ، كلا ولا هو ذلك الكمال اللامتأهي المتناقض الذى تشتد بنا الرغبة فيه ، بل هو أكبر عدد وأكثر تنوع يمكن من ضروب الكمال المحدد المعالم . وإن غاية التأمل هى أن



تعلم كيف نرى الأشكال المثالية للأشياء فى الطبيعة وأن نبشها فى الفنون، وأن ندرس ونتبين هذه الأشكال فى صورها المختلفة ، ونقيد الخيال بقيود العالم الواقع بحيث تمكن رؤية الجمال فى كل شىء فيه ويصبح كل شىء فيه مصدراً للإبداع الفنى . إن التقدم فى الجمال إنما يسير فى اتجاه التمييز والدقة ، ولا يسير فى اتجاه أحلام اليقظة والانفعالات التى لا شكل لها .

### ٣٧- الطبيعة المنظمة مصدر الأشكال الإدراكية . مثل من فن النحت

إن شكل العالم المادى هو دائماً بمعنى من المعانى شكل محدد تماماً ، لأن كل ذرة من الذرات التى يتكون منها هى فى كل لحظة فى موضع معين بالنسبة للذرات الأخرى . إلا أن العالم الذى لا شكل له غير ذلك الشكل الذى تكونه التجمعات الذرية هذه سيظل لا شكل له فى إدراكنا ، لأنه لن يمكننا أن نستعرضه باعتباره كلاً ، أو أن نحافظ على انتباهنا بقسط متساوٍ ونحن نتأمل أجزاءه التى لا حصر لها . ولكن نظرية التطور تقول لنا إن الضرورة الآلية قد جعلت العناصر تتجمع وتتوزع بحيث كونت الأشياء الجزئية ، التى نراها جزئية من وجهة نظرنا ؛ فثمة نسقات ذرية معينة تتحرك معاً على أنها وحدات ، وهذه النسقات التى هى الكائنات العضوية تتناسل وتتكرر غالباً فى بيئتنا بحيث تعودت حواسنا

رؤية أجزائها مجتمعة معاً . وهكذا أصبح شكلها شكلاً طبيعياً من الممكن التعرف عليه . ونشأ في مخيلتنا ترتيب وتصال نتيجة للترتيب والتتالي اللذين تصل بهما الانطباعات المماثلة إلى حواسنا . وهكذا نستطيع تذكر الأشكال التي اتخذتها إدراكاتنا واسترجاعها بحيث ندخل تغييرات عديدة في هذه الأشكال عن طريق ما للمخيلة من حيل .

وهكذا فالتنظيم الآلى للطبيعة الخارجية هو مصدر ما فى الذهن من أشكال إدراكية . ولو لم تتكرر تلك التابعات المعينة تكراراً متصلاً فى إحساسنا ، ولو لم يتكرر النظام بالدقة الرياضية التى فى علاقاتها ، أقول أنه لولا ذلك التابع والتكرار الذى يساعد إحساسنا على أن يجعل خيالنا واضحاً متجدداً ، لأخذتنا غمرة من خدر يصيب الخيال ؛ وعندئذ تفسد قدرتنا على أن نعلو بالشئ إلى مثله الأعلى فساداً يجعلها عملية تشيع فيه الإبهام ، وعندئذ كذلك تضعف فينا الذاكرة بحيث نحلم بعالم يزداد معنا كل يوم فقراً وغموضاً .

ونستطيع أن نلاحظ هذه العملية من وقت إلى آخر فى تاريخ الفنون . فالطريقة التى نرسم بها جسم الإنسان مثلاً إنما تدل على كيفية إدراكنا العقلى له ، لأن الفنون لا تعيد إلينا من الطبيعة إلا بقدر ما استطاعت العين أن تلم به إلاماً تاماً . وتصور المرحلة البدائية فى الرسم والنحت الإنسان بذراعيه وساقيه وأصابع يديه العشر وأصابع قدميه العشر متفرعة فى الهواء . ويدل ذلك بوضوح على أن إدراك الجسم الإنسانى

إدراكًا عقليًا كان حينئذ قائمًا على المنفعة العملية وعلى نوالى مراحل الإدراك ، وأن الفنان كان يرسم معرفته بدلاً من أن يرسم أيًا من الإدراكات الحسية الخاصة التى عن طريقها وصلت إليه هذه المعرفة . لقد اختفت هذه الإدراكات الحسية من رسومه لأنه كان يرغب فى أن يصل بسرعة إلى المفهوم المنفعى العملى للموضوع . ونجد تعبيرًا ساذجًا عن هذا المبدأ ذاته فى بعض الرسوم الأشورية حيث نجد العين فى المنظر الجانبى للوجه مرسومة كما تظهر لنا حين نواجهها من أمام ، وحيث نجد كل عنصر ممثلًا على الصورة التى تسهل ملاحظتها وتذكرها . ويعطينا تطور النحت الإغريقى مثلًا جيدًا لتوغل الطبيعة بالتدرج فى العقل ، أى لزيادة الإدراك الباطنى للموضوع . لقد اختفت الصلابة التى تشبه صلابة النحت المصرى من التماثيل أول ما اختفت من أجسام الأشخاص الثانوية وبعد ذلك من أجسام الآلهة ، وأخيرًا تنوع الوجه وكادت الابتسامه المدسدة أن تختفى (١) .

---

(١) فى التماثيل الموجودة فى « آثار ايجينه المرمرية » (Aegina Marbles) نلاحظ أن المحاربين الجرحى الذين هم على وشك الموت لا يزال يظهر على وجوههم هذا التعبير الذى يشبه تعبير بوذا : إلا أن أجسامهم على الرغم مما فيها من تقليدية تبين تقدمًا كبيرًا فى الملاحظة إذا ما قورنت بتمثال الآلهة أثينا الذى يتوسطهم والذى لا يبدو مقتنعًا على الإطلاق بسبب قدميه المقاسمتين اللتين فى صورة الأقدام الجانبية المصرية ووجهه الذى يشبه وجه البومة .

إلا أنه سرعان ما يصل هذا التقدم فى الإدراك إلى نهايته القصوى ،  
ومتى ما وصل الفنان إلى أجمل الإدراكات وأشملها ، ومتى ما تمكن من  
إيجاد أجمل الأشكال فى أجمل لحظاتها ، حينئذ يبدو للفنان أنه لم يعد  
لديه ما يستطيع صنعه . فمن الخطأ فى نظره أن يعرض ما فى الأشخاص  
من عيوب بينما الجمال هو الشيء الذى ينشده ويرغب فيه فى نهاية  
الأمر . والمثل الأعلى الذى وصل إليه الفنان الكبير عن طريق الإلهام  
أجمل بكثير مما يستطيع تلاميذه أن يجدوا فى الطبيعة . وهكذا يهبط الفن  
من عليائه ويسير فى أحد هذين الاتجاهين المختلفين : فهو إما أن يصبح  
فناً مدرسياً ويهجر دراسة الطبيعة وينزل إلى مستوى التقاليد الجوفاء ،  
وإما أن يهجر الجمال والتبل ويأخذ بأسلوب لا ذوق فيه ولا خيال .  
والطريق الأخير هو الذى اتخذه فن النحت فى العصور القديمة ، بينما  
كان المصير المخيف الذى لقيه هذا الفن على يد المحدثين هو المصير  
الأول ، هذا وإن كان يتخلل العصر الحديث بعض فترات بعث فيها فن  
النحت .

ولقد حدث هذا البعث كلما عاد الفنانون إلى الطبيعة باحثين عن  
شكل إدراكى جديد ومثل أعلى مختلف . ولا شك أن الفنون كافة ما  
تتفك بحاجة إلى مثل هذه العودة ، التى بغيرها تصبح إدراكاتنا العقلية  
بالية نحيلة وتسيطر عليها التقاليد وألوان البدع ، فترانا نغضى فى إطلاق  
أحكامنا على الجمال فى الوقت الذى نكف عن البحث عنه . وعلاج هذا

الأمر هو العودة إلى الواقع لدراسته دراسة الصابر لكي نتيج الفرصة لما فيه من نواح جديدة أن تفعل فعلها في عقولنا ، وترسخ فيها ، لعل تنرخ فيها نتاجاً من نوعها . وحينئذ يمكن أن يظهر فن جديد قد يبلغ درجة الكمال التي للفن القديم ، لأنه يكون نابعاً مثله من الإعجاب بالطبيعة .

والواقع أن من الأخطار التي يتعرض لها الفنان الحديث هو تضليل أسلافه له فإذا رأيتنا نتخبط في ذوقنا الفني ، وإذا رأيت تجاربنا في فن العمارة تنحرف عن جادة السبيل ، فاعلم أن منشأ ذلك كثيراً ما يكون المجدابنا إلى هذه المدرسة التاريخية أو تلك ؛ فعلة عجزنا عن تكوين أسلوبنا الخاص بنا هي أن سيرنا معوق بآيات الجمال التي أبدعها كثيرون غيرنا . ونتيجة لذلك ترانا نصل إلى أسلوب تلفيقي من شأنه - على الرغم من أهميته التاريخية والسيكولوجية الكبرى - ألا تتحقق فيه الوحدة الجمالية أو القدرة الدائمة على توليد اللذة . وهكذا قد تصبح دراسة المدارس الفنية المتعددة عقبة تحول دون الإجابة في أي منها .

### ٣٨- المنفعة مبدأ التنظيم في الطبيعة

إن المنفعة أو الصلاحية ( أو كما تسمى الآن التكيف والانتقاء الطبيعي ) تنظم العالم المادي في هيئة أنواع وأفراد محددة . ولا تستطيع المادة أن تصل إلى توازن مع القوى المهيمنة في البيئة إلا في شكل تجمعات معينة . فالجاذبية مثلاً في ذاتها قوة فوضوية ، لأنها تجذب جميع

الذرات بدون تمييز وبدون اعتبار للشكل الكلى الذى تجمع العين هذه الذرات فى إطاره . ومع ذلك فليست نتيجة ذلك هى الفوضى ، فالنزعة التى تجعل المادة يتلاصق بعضها ببعض حينما ترتب أجزاؤها على نحو معين هى نفسها التى تفتت المادة وتحللها حينما ترتب على صور أخرى . وهذه الصور التى تم انتقاؤها لتوافقها مع الجاذبية تثبت فى الطبيعة وتصبح أنماطاً . وهكذا يحافظ ثقل الصخور على بقاء الهرم قائماً : وفى هذا مثل لشكل معين يضمن الثبات أمام قوة هى فى ذاتها آلية عديمة التمييز . وإن صلاحية الشكل الهرمى ، أى قدرته على الصمود ، هى التى جعلت منه نمطاً من أنماط البناء . وحينما اختار المصريون شكل الهرم فإنهم لم يفعلوا أكثر من أنهم كرروا عملية كان فى مقدورهم ملاحظتها فى الطبيعة ذاتها حين تبنى هرمًا كلما كونت تلاً ، ولا تصنع الطبيعة ذلك لأنها تود أن تبنى أهرامات أو لأن بناء الأهرامات هو الغاية التى ترمى إليها من عملياتها ، وإنما تفعله لأنه لا توجد فيها أية قوة تستطيع أن تزحزح بسهولة المادة التى تأخذ شكل الأهرام . وفى هذا الشكل الذى اكتشفته الطبيعة عفوًا ، والذى يضمن الثبات فى عالم صفته الحركة ، مبدأ كافٍ للثبات والفردية . ومثل هذه المبادئ الآلية - فى صور أكثر تعقيدًا - هى التى تضمن بقاء أشكال الحياة وتحول دون أى انحراف دائم عنها . وما يسمى بمبدأ المحافظة على البقاء ، والعلل الغائية والصور الجوهرية فى فلسفة أرسطو ليس إلا وصفًا لنتيجة هذه العملية . فالنزعة التى هى فى

جميع الأشياء إلى المحافظة على طبيعتها وإلى التكاثر ليست إلا قوة الاستمرار التي توجد في وضع معين للعناصر التي لا تسبب لها الظروف العادية العارضة من الاضطراب ما يجعلها تفقد توازنها ، بينما يحدث وقوع اضطراب أكثر مما ينبغي توقعاً عن الحركة نسميه موتاً ، أو اختلافاً كبيراً عن النمط نسميه انحرافاً لعدم قدرته على البقاء بصفة دائمة . وهكذا تنظم الطبيعة ذاتها في شكل أنواع من الممكن التعرف عليها ، والعين الجمالية حينما تدرس هذه الأشكال تنزع كما أوضحنا إلى تحديد النمط بدرجة أكبر مما تقتضيه ضرورات الحياة الخارجية .

### ٣٩- علاقة المنفعة بالجمال

وهذا التناقض الطبيعي بين المنفعة والجمال يصبح بلا شك موضوعاً محيراً في نظرية الجمال حينما لا يفهم مصدره . ويقال لنا أحياناً إن المنفعة هي ذاتها جوهر الجمال ؛ أي أن وعينا بالميزات العملية لأشكال معينة هو أساس إعجابنا الجمالي بها . فالذي يجعل الناس يقولون إن أرجل الجواد جميلة هو في الحقيقة أنها صالحة للعدو ، والعين جميلة لأنها مخلوقة للإبصار ، والبيت جميل لأنه ملائم للمعيشة بداخله . ومن الأمثلة التي تطبق فيها هذه النظريات الحمقاء على نحو مضحك لما فيها من مبالغة ما نجد في الكلام الذي وضعه زانوفان على لسان سقراط ؛ إذ يقارن سقراط نفسه بأحد الشبان الحاضرين في نفس الحفل والذي كان

يوشك أن يحصل على جائزة فى مسابقة الجمال فيعلن أنه أجمل من هذا الشاب وأنه أجدر منه بالتاج . وذلك لأن الصلاحية أو المنفعة هى التى تخلق الجمال . وهكذا فالعيون البارزة التى تكاد تخرج من محاجرها كعيني سقراط هى أكثر العيون صلاحية للإبصار ، والخياشيم الواسعة المفتوحة للهواء كخياشيمه أكثر الخياشيم صلاحية للشم ، والفم الواسع الغليظ مثل فمه أكثر من غيره قدرة على الأكل والتقييل (١) .

وبما أن هذه الأشياء فى الحقيقة قيحة فلا بد أن تكون النظرية التى تبين أنها « يجب أن تكون » جميلة نظرية ضالة مضحكة . ومع ذلك فهذه النظرية تحتوى على الحقيقة الآتية : وهى أنه لو كانت صلاحية ملامح سقراط صلاحية كبرى بحيث أن جميع الرجال الذين لم تتحقق فيهم هذه الملامح لم يتمكنوا من البقاء لأصبح سقراط جميلاً . وحينئذ كان سقراط سيصبح ممثلاً للنمط الإنسانى ، وكانت العين ستعود شكله ، والخيال سيتخذ أساساً لكل تحسين وتطوير ، ويؤكد ما فيه من مواضع التأثير الطبيعى . إن الجمال لا يعتمد على الصلاحية لأنه ينشأ فى المخيلة عن جهل بالميزات العملية ، بل ويقوم على احتقارها ؛ ومع ذلك فهو غير مستقل عن الضرورة ، لأن الشئ الضرورى هو بالضرورة الشئ المألوف الذى نعتاده ، ومن ثم فهو أساس النمط وأساس كل ما يدخله الخيال عليه من تعديلات .

---

(١) انظر الجزء الخامس من ندوة زانوفان .



وهناك أيضاً فى مرحلة متأخرة فرعية من مراحل حكمنا الجسمالى حالات معينة تدخل فيها معرفتنا بالصلاحية والمنفعة فى إحساسنا بالجمال. إلا أنها تفعل ذلك على نحو غير مباشر جداً ، عن طريق اقتناعنا بواجب احتمال ما تفرضه الظروف العملية على الفنان ، أو طريق إثارة إعجابنا بيسرته وحسن تصرفه ، أو عن طريق الإيحاء بتلك الموضوعات الطريفة التى من المعلوم أنها مرتبطة بالشئ . وهكذا فمدخنة الكوخ بطولها وحجمها الكبير وبما يرتفع منها من دخان يخلق أعلاها ، تسرنا لأننا نتخيل أن معناها مكان التدفئة داخل الكوخ والوجبة الريفية والأسرة التى تعيش فى سعة . إلا أن كل هذه ارتباطات خارجية . والطريقة المألوفة التى تؤثر بها الصلاحية فى نفوسنا إنما هى الطريقة سلبية: فحينما نعلم عن الشئ أنه خيالى صرف لا نفع فيه فإن إحساسنا بما فيه من مضيعة وخداع باطل يعاودنا ، ويحول بيننا وبين المتعة كلية وبذلك يستبعد الجمال . إلا أن هذا أيضاً تعقيد عرضى ولا تتأثر به القيمة الجوهرية للشكل على الإطلاق .

وتعارض نظرية المنفعة هذه النظرية الميتافيزيقية التى تجعل من جمال الأشياء الذاتى أو لياقتها مصدر كفايتها وقدرتها على البقاء . وإذا فهمنا هذه الفكرة على حرفيتها ، كما هو المقصود أن تفهم عادة ، فإنها تبدو فكرة حمقاء من وجهة نظرنا . فالجمال واللياقة من الأمور النسبية التى تعتمد على حكمنا وانفعالنا ، ولا يوجدان بأى معنى من المعانى فى

الطبيعة أو يهيمنان عليها . فالطبيعة تبدو لنا دائماً متحركة طبقاً لقوانين آلية . وأنماط الأشياء توجد بمحض المصادفة وبغض النظر عن موافقتنا أو عدمها ، فدالكاتنا هي التي عليها أن تكيف ذاتها حسب البيئة وليست البيئة هي التي تكيف نفسها حسب ملكاتنا . وهذه هي وجهة النظر الطبيعية التي أخذنا بها هنا .

غير أنه لا يلزم أن يبدو القول إن الجمال بمعنى من المعاني أساس الصلاحية العملية خالياً تماماً من المعنى . فقلما يكون عيب الأفلاطونيين الذين يقولون مثل هذه الأشياء أنهم يقولون كلاماً لا معنى له . أن لديهم لا شك حدساً ، وأحياناً يكون لديهم إحساس قوى بحقائق الشعور . بيد أنهم يحيلون اكتشافاتهم إلى حالات من الكشف الصوفي؛ ثم سرعان ما ينسدل حجاب اللامتناهي والمطلق فيخفى ما للحقيقة الجزئية المعينة التي يكتشفونها من بصيص الضياء . وأحياناً يعثر الدارس بعد أن يطيل التنقيب صابراً ، على كثر مماثل في إحدى الحقائق البسيطة أو التجربة العامة ، يعثر عليه دقيماً تحت كل ما لديهم من العقائد المألوفة والأسرار المقدسة . وربما كانت الحال هكذا هنا أيضاً . فإذا تجاوزنا عن الميل إلى التعبير عن التجربة بالأسطورة والرمز ، وجدنا أن الفكرة القائلة بأن الجمال والتفكير المعقول يهيمنان على الطبيعة ويرشدها - إن صح هذا التعبير - لكى يزيدا جلالاً وعظمة ، إنما هي مجرد إسقاط وتعبير واضح عن مبدأ سيكولوجى .

إن العقل الذى يدرك الطبيعة هو ذاته العقل الذى يفهمها ويستمتع بها . بل إن هذه الوظائف الثلاث ( الإدراك والفهم والاستمتاع ) هى فى الحقيقة عناصر فى عملية واحدة . ومجرد إدراك الشيء دليل على وجود قدر من الجمال فيه ، فلو لم يكن الشيء فى طريقه إلى الجمال ، ولو لم يكن ملائمًا للمكائنا الإدراكية ، لظل غير مدرك إلى الأبد . وهكذا فالإحساس بأن العالم بأسره مصنوع لكى يكون غذاء للروح ، وبأن الجمال لا يسوغ ذاته فحسب وإنما يسوغ وجود الأشياء جميعًا ، وبأن الرغبة الكلية فى الكمال هى مفتاح العالم وسره ، هذا الإحساس هو صدى شعري لحقيقة سيكولوجية ، وهى أن العقل البشرى نظام حيوى ينزع إلى الوحدة وإلى عدم الشعور بما لا يطاوعه فى نشاطه وفى تمثله وتحويله عن طريق التعاطف لكل ما يقع فى نطاقه . وهكذا فمع أنه يجب علينا أن نرفض الرأى القائل بأن العالم تتحكم فيه الرغبة فى الجمال لما فيه من خلط وإبهام ، إلا أنه ينبغى لنا أن نسلم بأن هذا الخلط قائم على أساس الوعى بالعلاقة الذاتية بين إمكان إدراك الأشياء وبين ما فيها من معقولة وجمال .

#### ٤٠- المنفعة مبدأ التنظيم فى الفنون

غير أن هذه العلاقة الذاتية علاقة غامضة جدًا . فمعظم الأشياء التى يمكن إدراكها لا ندرکها بدرجة من الوضوح والتمييز بحيث يتسنى لنا

فهمها ، ولا بقدر من اللذة يمكننا من أن نعدّها جميلة . ولو كانت للعين قدرة لامتناهية على التوغل فى رؤية الأشياء ، أو لو كانت للمخيلة قدرة على المرونة ، لما أصبحت الأمور هكذا ، ولأصبحت الرؤية معناها الفهم والاستمتاع . ولكن درجة الموضوع والتحديد التى نحتاج إليها للإدراك أقل بكثير مما يلزمنا لأجل الفهم والتصور المثالى ، ومن ثم كانت الحاجة إلى الافتراض والفرن . فكما أن الافتراض ينظم التجارب تنظيمًا خياليًا على نحو لا يتسنى للملاحظة أن تقوم به فكذلك الفن ينظم الموضوعات على أنحاء لا نجدها فى الطبيعة ، وربما لم تتنازل الطبيعة فتستخدمها .

وأهم ما تضيفه فنون المحاكاة إلى الطبيعة هو الثبات . وعدم تحقق الثبات هو أكثر ما فى عيوب ضروب الجمال الطبيعى مدعاة للحزن . وهكذا فالقوى التى تحدد الأشكال الطبيعية تحدد أيضًا أشكال فنون المحاكاة . إلا أن الفنون الأخرى التى لا تقوم على المحاكاة تقدم لنا نظمًا تختلف فى نوعها عن النظم التى تقدمها لنا الطبيعة . وإذا بحثنا عن المبدأ الذى تنظم حسب هذه الموضوعات وجدنا أنه على العموم هو مبدأ المنفعة أو الصلاحية أيضًا . فجميع الأشكال فى فن العمارة مثلاً قد أوحى بها المقتضيات العملية ، وقضت المنفعة بأن تأخذ المبانى أشكالاً محددة معينة ، وفرضت الصفات الآلية للمواد التى نستخدمها كما فرضت ضرورة المأوى والضوء والاقتصاد والسهولة والملاءمة ذلك النظام الخاص الذى تتبعه مبانيها .

لقد تطورت البيوت والمعابد مثلما تطورت الحيوانات والنباتات :  
 فظهرت أشكال مختلفة أولاً مثل الكهف والمأوى تحت الأغصان المتدلية  
 نتيجة للضرورة الآلية ، وبقيت هذه الأشكال نتيجة لعملية الانتقاء التي  
 كانت فيها حاجات الإنسان وملذاته بمثابة البيئة التي يتحتم على شكل  
 البناء أن يتكيف معها . وهكذا فرضت الأشكال المحددة ذاتها وألفت  
 العين رؤيتها . وطبقاً لإحدى عادات الإدراك الباطنى يصبح الخط النافع  
 هو الخط الجميل . ومن الأمثلة البارزة على ذلك القوصرة التي توجد فى  
 واجهة المعبد اليونانى ، والجملون الذى نجده فى البيوت فى الشمال ؛ فقد  
 حددت مقتضيات المناخ ذاتها هذين الشكلين المختلفين ، ولكن العين فى  
 كل من هاتين الحالتين قبلت ما فرضته الضرورة أو المنفعة . ففى الحالة  
 الأولى نجدنا نعجب بالاتساع بينما فى الحالة الثانية نعجب بالارتفاع ،  
 وسرعان ما نجد أن القوصرة العالية ثقيلة أكثر مما ينبغى وأن الجملون  
 المنخفض قبيح لا يبعث على الإحساس بالسمو والنبيل .

غير أنه من الخطأ أن نستنتج من ذلك أن العادة وحدها هى التى  
 تفرض النسب الصحيحة فى هذه الأنواع المختلفة من العمارة . فهناك  
 العناصر التى هى فى ذات الشكل نفسه والتى نجدها فى الأشكال  
 الطبيعية . أى أنه إلى جانب وحدة النمط وتوافق الأجزاء اللذين تفرضهما  
 العادة هناك أيضاً تلك السواحى التى تستهوى الميول الجوهرية للعين  
 والخيال ؛ فهناك مثلاً قيمة الشكل المجرد التى يحددها ما فى التواتر

العضلية والشبكية من لذة وانسجام . وتوحى الأشكال المختلفة بهذا الجمال بدرجات متفاوتة ونفاضل بينها حسب درجة الجمال التي توحى بها . وهكذا يمكننا أن نرتب الأشكال الصناعية ترتيباً مسلسلاً حسب قيمتها مثلما نفعل مع الأشكال الطبيعية ، وذلك حسب ما فى كتلتها وحدودها من قيم مطلقة . وبهذا المعنى نقول إن الآنية اليونانية أسمى من الآنية الصينية أو الآنية المصنوعة من الطراز الغوطى أو العربى . وهكذا على الرغم من أن كل شكل نافع فى مقدوره أن يصبح جميلاً متناسقاً حينما ينشأ له نمط معين ، فإننا لا نستطيع أن نقول إن الأشكال النافعة لها جميعاً جمال متكافئ بالقوة . وربما لن يصبح الجسر المصنوع من الحديد أبداً مساوياً فى الجمال للجسر المصنوع من الحجر ، على الرغم مما للجسر الحديدى من قدرة على إثارة المشاعر الجمالية قدرة تزداد يوماً عن يوم .

## ٤١- الشكل والزخرف العرضى

إن جمال الشكل هو آخر شىء نعجب به فى الموضوعات الصناعية كما هو الشأن فى الموضوعات الطبيعية ؛ إذ يلزمنا وقت طويل لكى ندركه ، كما تلزمنا المرونة ودقة الإدراك حتى نستمتع به . فأول ما يثير اهتمام الطفل باللعب والحيوانات معاً هو الحركة واللون ، كما أن الفنان

البدائى يزخرف قبل أن يصمم . فالرجل البدائى يزين كهفه أو كوخه بالألوان ويعلق عليه نصب الانتصار قبل أن يستمتع بشكل هذا الكوخ . كما أن إثارة الحواس المنفصلة وارتباطات الأبهة والغنى تسبق بكثير الاهتمام بالتناسق الإدراكى فى الشكل . ونشاهد نفس التدرج فى الموسيقى ، إذ نتذوق فيها أول ما نتذوق قيمتها الحسية والعاطفية ، ولا نستطيع الاستمتاع بشكلها إلا بعد التربية والثقيف . وهكذا فالفتون التشكيلية تبدأ إذن بالزخرف العرضى وبالرموز وترجع اللذة الجمالية فى البداية إلى غنى المادة ووفرة الزخرفة ومعنى الشكل وإلى كل شيء آخر ما عدا الشكل ذاته .

وهكذا نجد فى الأعمال الفنية مصدرين مستقلين للتأثير . أولهما الشكل المفيد الذى يولد النمط وفى نهاية الأمر يوجد جمال الشكل حين نعلو بالنمط فنجعله مثلاً أعلى عن طريق تأكيد ملامحه التى تبعث على اللذة فى ذاتها . أما المصدر الثانى فهو جمال الزخرف الذى يأتى من إثارة الحواس أو الخيال عن طريق اللون أو كثرة التفاصيل أو دقتها . ومن الوجهة التاريخية نجد أن المصدر الثانى هو الذى نشأ أولاً وطبق على شكل كان لا يزال مجرد شكل نافع . غير أن وجود الزخرف فى ذاته يثير التأمل ، فالشئ الذى يحظى بقدر كبير من الاهتمام لزخرفته يثبت شكله فى الذهن وهكذا تتمكن من التمييز بين الأشياء حسب جمالها . وهكذا نحس بهذين النوعين من الجمال ، ثم لا نلبث أن نخضع لتلك

الزخرفة إلى الوحدة التي يظهرها العقل دائماً ، فنبداً في تنسيق هذين الجمالين ونخضع أحدهما للآخر . ونورع الزخرفة بحيث تؤكد الجوهر الجمالى للشكل بل نزيد من مثالية هذا الشكل عن طريق إضافة مواضع اهتمام عرضية تمتشى مع الاهتمام الذاتى الذى تثيره خطوط التكوين فى بنية الشيء .

ولاشك أن هنا مجالاً واسعاً للاختلاف فى الجمع بين هذين الجمالين والتوفيق بينهما . فبعض الفنانين تخليهم الزخرفة ويتصورون الشكل على أنه مجرد الأرضية التى تصلح أكثر من غيرها لإبراز الزخرفة فى أحسن صورها . وهناك آخرون أكثر من هؤلاء صرامة أو صفاء فى الذوق لا يسمحون بالزخرفة إلا حينما تؤكد الزخرفة الخطوط الرئيسية للشكل أو لكى يخفوا تلك العناصر غير المتناسقة التى تمنعهم الطبيعة أو المنفعة من حذفها (١) . وهكذا قد تتذبذب بين الدوافع الزخرفية والدوافع الشكلية ،

---

(١) من الخرافة أن نفترض أن الذوق المهذب يعتقد بالضرورة أن الشيء الكامل هو الشيء الواقعى النافع . فلإخفاء الشكل أو البناء من الأمور المشروعة ولا يقل فى ذلك عن توكيدهما ، والسبب واحد فى كلتا الحالتين . فنحن حينما نؤكد إنما نقصد الجمال المجرد أو اللذة المطلقة ، كما أن هذا هو هدفنا أيضاً حينما نخفى أو نحذف ، فمثلاً أثر الذوق اليونانى الرائع أن يحجب النصف الأسفل من جسم المرأة ، كما هى الحال فى تمثال فينوس ميلو Milo ، كما فضل أن يزيل ما على وجه الرجل وجسده من شعر حتى يحافظ على نقاء الخطوط وقوتها . وفى الحالة الأولى نخفى الشكل بينما فى الحالة الثانية نظهره ، محورين فى ذلك فى الطبيعة حتى تمتشى مع ملكاتنا الإدراكية =



ولا توجد إلا نقطة واحدة يتحقق فيها التوازن المثالى فى كل أسلوب ،  
وهى النقطة التى يجتمع فيها أكبر مقدار من القوة والوضوح وأكبر درجة  
من الأبهة والغنى .

ويجتمع هذا النوعان من الجمال على نحو أقل دقة وإن كان لا يزال  
له تأثيره القوى فى الكثير من فن العمارة الشرقى والغوسطى وربما وجد  
أيضاً هذا الجمع بالمصادفة فى الكثير من المباني التى هى من الطراز المصفح  
(Plateresque style) . ففى هذه الأمثلة نلاحظ أن كلا الزخرف  
والشكل مؤكدان وإن لم يجتمعا فى نفس المكان ، فالعناصير العريضة  
الهائل الخشن يمثل جمال الشكل بينما يمثل جمال الزخرف تلك التفاسيل  
الزخرفية العديدة المكدسة على نحو جنونى حول الباب الرئيسى أو النافذة  
الرئيسية .

ويعطينا فن العمارة القوطى فى أبراجه وسوانده مثلاً بارزاً لاستخدام  
ظاهرة آلية وتحويلها إلى عنصر من عناصر الجمال . ولا يبدو هناك شىء

---

= على نحو أكثر إرضاء ، إذ أننا يجب أن نتذكر أن الجمال أو اللذة اللذين تجدهما العين  
ليسا من المبادئ التى توجه العالم الطبيعى أو عالم الفنون العملية . فالجمال فى الطبيعة  
هو نتيجة للتكيف الوظيفى لحواسنا وخيالنا مع النتائج الآلى لبيئتنا ولا يكون هذا التكيف  
كاملاً أبداً ، ولذلك كانت هناك الحاجة إلى الفنون الجميلة حيث يكون الجمال نتيجة  
للتحويل الإرادى فى الأشكال الآلية بحيث تتكيف مع تلك الوظائف التى اكتسبتها فعلاً  
حواسنا وخيالنا . وهذا الإخضاع لما تقتضيه مطالبنا الجمالية هو جوهر الفن الجميل .  
فالطبيعة فيه هى الأساس غير أن الإنسان هو الهدف .

لأول نظرة أكثر قبْحًا من نصف القنطرة الخارجى الذى يسند جانب الرافدة أو من ذلك العيب الراح من الأحجار الذى يشبه المدخنة ويضغط عليه من أعلى ، غير أن قبول هذه العناصر الضرورية بشجاعة ودراسة شكلها قد أظهرها ما لها من تأثير غريب جديد ، وهو ما فى هذه الكتل المعلقة فى الهواء من تعقيد مثير محير ، من خطوط بالغة الكثرة ومن تنوع فى السطح وجمال فى الأضواء والظلال . ولكى يصبح البناء قصيدة تثير انفعالات لا تنفد كان يلزمه فقط قليل من الزخرف مورع توريعاً معقولاً ، وتزيين للأقواس ، وظلة مزركشة وتمثال وسط السواند ، وبعض الكائنات الخرافية الغريبة تبرز على نحو غير متوقع من الأركان مكشرة عن أسنانها ، والأبراج العليا تظهر قممها ، وبعض الشرفات أو الجواجز تبرز هنا وهناك بحيث تطرر الأفق . وإذا أضفنا إلى ذلك سحابة عابرة تسقط ظلها المتحرك على البناء ، وطيوراً تحلق فوق الأبراج ، فإننا نحصل على غمط لا ينسى من الجمال ، غمط ربما هو ليس أسمى وأبقى أنماط الجمال ، إلا أنه يزيد وجوده الخيال غنى ويجعل العالم أكثر طرافة .

وبهذه الطريقة نقبل الأشكال التى تفرضها علينا المنفعة ، وتدريب أنفسنا على إدراك ما فيها من جمال بالقوة . فالألفة لا تولد الاحتقار ( كما يقول المثل السائر )<sup>(١)</sup> ، إلا حينما تولد عدم الاهتمام . فحينما

---

(١) أحد الأمثلة فى اللغة الإنجليزية . ( المترجم )

يشغل العقل بإدراكاته بحيث تستوعب كل اهتمامه فإنه يضمّن هذه الإدراكات قيمتها الأدائية شيئاً فشيئاً ، ويكسبها فى نهاية الأمر جمالاً وقدرة على التعبير . ولذلك فليست أية لغة قبيحة فى نظر من يجيدون الحديث بها ، ولن يكون أى دين عديم المعنى فى نظر أولئك الذين تعلموا أن يصبوا حياتهم فى قوالبه .

ولا شك أن هذه الأشكال تتفاوت فى جمالها الذاتى . ويختلف كل منها حسب طبيعته فى مدى ملاءمته بيسر لعقلية الرجل المتوسط . ولكن يندر أن يوجد الرجل أو العصر الذى يتتقى طريقه بمفرده ، بل يقتصر اختيارنا على العموم على واحد من اثنين : إما أن نسبق غيرنا فى الطريق الذى تم اختياره لنا فعلاً ، وإما أن نقف فى الطريق ففسده أمامهم . وما يمكننا أن نقوم به من إصلاح لا يتعدى عادة الإصلاح الداخلى الذى يتم فى حدود معينة ، ويكون نتيجة دراسة الأشكال التقليدية دراسة أكثر عمقاً واستخدامها استخداماً أكثر ذكاء . وأى ثورة على التقاليد أو على المنفعة ، التى هى أساس ذوقنا وتقدمنا ، إنما تعقبها نتائج وخيمة . أما إذا بقينا فى حدود مدرسة من المدارس وأخذنا نعبر عن روح هذه المدرسة فإننا حينئذ قد نستطيع أن نكيف نتاجنا ونزيده كمالاً إن تصادف أن كنا أكثر إلهاماً من سابقينا . فكلما زادت معرفتنا بالشىء ، وكلما أدركنا ما فيه من نواحي القوة والضعف ، رادت قدرتنا على تصويره تصوراً مثالياً .

## ٤٢- الشكل فى الالفاظ

يتألف التأثير الرئيسى للغة من المعنى ، أى مما تعبر عنه من أفكار ، إلا أن التعبير يستحيل بدون العرض ولا بد للعرض أن يكون له شكل ما . وهذا الشكل الذى تأخذه وسيلة التعبير هو ذاته أحد العناصر التى يتألف منها تأثير اللغة ، وإن كنا فى الحياة العملية قد نغفل عنه فى اهتمامنا العاجل بما توصله لنا الوسيلة من معنى . وهو فضلاً عن ذلك شرط يحدد نوع التعبير الممكن ، وغالبًا ما يحدد الطريقة التى ندرك بها الموضوع الموحى به . ولا يوجد لأية لفظتين نفس القيمة سواء فى اللغة الواحدة أو فى لغتين مختلفتين <sup>(١)</sup> . غير أن التأثير الذاتى للغة لا ينتهى

---

(١) ليس الأمر مجرد استحالة ترجمة الالفاظ حينما لا يوجد للموضوع المعين اسم فى لغة أخرى كما هى الحال فى (home) و (mon ami) . ولكن حتى حينما يكون الموضوع واحدًا فى اللغتين فإنه يستحيل ترجمة ذلك الموقف من الموضوع الذى يتضمنه أحد الالفاظ فى لغة ما إلى لفظ فى لغة أخرى . ولذلك فنحن نشعر بأن كلمة (bread) الإنجليزية ( الخبز ) لا تكفى لنقل ما فى اللفظة الأسبانية (pan) من عزارة عاطفية ، مثلها فى ذلك مثل كلمة (Dios) الأسبانية ( الله ) التى تعجز عن نقل ما فى كلمة (God) الإنجليزية من غموض رهيب . فالكلمة الإنجليزية هنا لا تعبر عن موضوع على الإطلاق وإنما تعبر عن عاطفة وحالة سيكولوجية إن لم تكن تعبر عن فصل كبير فى تاريخ الدين . إن اللغة الإنجليزية لغة تسترعى الانتباه لما فى ألفاظها من غزارة وتنوع فى الألوان ، ولا اعتقد أن أى لغة أخرى تضاهيها فى كمية ألفاظها التى هى شعرية فى ذاتها .

هنا ، فليست اللفظة الواحدة إلا حلقة فى سلسلة التركيب التى تتكون منها اللغة والتى تحتفظ للناس بشمار تجاربههم مقطرة ومركزة فى شكل رموز .

وتبدأ هذه التراكيب بالأصوات الأولية ذاتها التى يلزم التمييز بينها وجمعها بحيث تتكون منها رموز يمكن التعرف عليها . وتتطور هذه الرموز تلقائياً ويشجعها على ذلك ميلنا إلى نطق الأصوات بشتى أنواعها ، وتحافظ على هذا التطور سهولة تمييز الأذن لهذه الأصوات حينما ننطقها . ولو لم تكن المنفعة هى التى تسيطر على الكلام لأصبح كالموسيقى فناً مطلقاً منفصلاً عن الموضوعات . حقاً إن الأصوات لا تشبه فى شىء ما ترمز إليه من الموضوعات ، ولكن لا بد أن يكون هناك تطابق بين تنسيق الأصوات وتنسيق الموضوعات قبل أن يستطيع نظام الأصوات أن يمثل نظام الموضوعات . وهكذا يصبح تركيب اللغة ، غيره فى الموسيقى ، مرآة تعكس تركيب العالم كما يعرض للعقل .

وإذا درسنا النحو دراسة فلسفية وجدناه قريباً من أشد ضروب الميتافيزيقا عمقاً ، لأن النحو عندما يظهر تركيب الكلام إنما يظهر تركيب الفكر ، وطريقة تسلسل المقولات التى عن طريقها نفهم العالم . ولما كان تطور اللغة يوازي تطور الفكر فإننا نجد أن وظيفة اللغة هى التعبير الدقيق عن التجربة ، وأن الشاعر - الذى يستخدم اللغة أداة لفنه - يتحتم عليه أن يستعمل هذه اللغة بالإشارة دائماً إلى المعنى والصدق ، أى يجب عليه

أن يكون مسيطراً على التجربة قبل أن يصبح مسيطراً على الألفاظ . ومع ذلك فاللغة أولاً ضرب من الموسيقى ، وما توجده من آثار جميلة إنما يرجع إلى تركيبها وإلى كونها تخلع شكلاً غير متوقع على التجربة حينما تتبلور في صورة جديدة .

ويمكن تقسيم الشعراء إلى طبقتين : الموسيقيين والسيكولوجيين . والطبقة الأولى تتكون من الذين يسيطرون على اللغة بوصفها إيقاعاً فيعرفون متى يجمعون الأنغام ومتى يفردونها على تتابع . وهم يستطيعون أن يولدوا آلفاً من ضروب التأثير الرائعة المختلفة عن طريق تنسيق الأصوات والصور ، والتدرج بالعاطفة والانتقالات الفطنة المفاجئة . ونجد أمثلة لهذا الفن في خطابة شيشرون ، وفي شعر الحكم ، وفي القصائد الغنائية والمرثيات . أما السيكولوجيون فهم لا يولدون تأثيرهم عن طريق ما في اللغة من كمال ذاتي وإنما عن طريق تكييفهم اللغة للموضوعات تكييفاً دقيقاً . وطبيعي أن الشعراء المسرحيين هم مثل ذلك النوع الثاني من الشعراء .

غير أننا مهما أردنا أن نجعل لغتنا شفافة ، تخلو ألفاظها من التأثيرات الذاتية ، ومهما حاولنا ألا نهتم إلا بما فيها من قدرة على التعبير ، فإننا لن نستطيع أن نتجنب ما في هذه الوسيلة الخاصة من قصور . فطبيعة اللغة التي يتكلمها المرء ومدى براعته فيها لهما أهمية كبرى في تحديد القيمة الجمالية لنتاجه . فمهما كانت قوة ملاحظاته وعمق

تفكيره وإحساسه فلا مندوحة عن أن يشين هذه الأشياء جميعاً الأسلوب  
الردىء وأن يزيد من تأثيرها الأسلوب الجيد . واللغات على اختلافها وبما  
فيها من قيم جمالية ذاتية تبدأ بأصوات حروفها ذاتها وبطريقة نطقها  
وبالصفات المميزة لإيقاعها . لاحظ مثلاً الأثر الخاص للغة الفرنسية فى  
هذين البيتين لألفريد دى موسيه :

Jamais deux yeux plus doux n'ont du ciel le plus pur  
Sondé la profondeur et réfléchi l'azur.

وقارن هذا الأثر الرقيق الذى يشبه أثر الناي بما فى اللغة الألمانية من  
عمق ورحابة وغزارة كما يتضح فى هذا الموشح الذى لا مثيل له لجوته :

Ueber allen Gipfeln  
Ist Ruh,  
In allen Wipfeln  
Spürest du  
Kaum einen Hauch;  
Die Vögelein schwiegen im Waide  
Warte nur, balde  
Ruhest du auch.

وحتى لو كان من الممكن عزف نفس اللحن على هاتين الآلتين الصوتيتين المتبايتين فإن الاختلاف فى كيفية النغمة (timbre) سيؤثر على قيمة اللحن ويجعلها متميزة تماماً فى كلتا الحالتين .

### ٤٣- الشكل فى التراكيب اللفظية

إن ما هو معروف عن استحالة الترجمة الكاملة يظهر هنا فى أساس اللغة ذاتها ، أى فى الأصوات التى تتألف منها اللغة . واختلاف اللغات فى أصواتها يضاف إليه اختلافها فى النواحي الأخرى . وبعد تأثير الصوت يأتى تأثير التراكيب . فأى شعر أجمل من شعر هوميروس ، ومع ذلك فهل هناك ما هو أقبح من ترجماته إلى اللغات الأخرى ؟ وهذا الكلام يصدق حتى على تلك اللغات التى هى قريبة قرابة وثيقة من اليونانية مثل اللغات الهندية الأوروبية ، التى يوجد فيها ما يقابل اليونانية فى التراكيب والصرف . ولو افترضنا وجود لغة لها أجزاء من الكلام غير ما فى لغتنا ، لغة لا توجد فيها أسماء مثلاً ، فكيف يتسنى لنا أن ننقل إليها تلك التجارب التى يحتويها كل أدب وتلك الصورة التى يرسمها للعالم ؟ إن تلك اللغة الافتراضية مهما كان لديها من ضروب الجمال الأخرى فستعجز عن التعبير عن أى من الآثار التى توجد فى نفوسنا الطيبة ذاتها ، ناهيك بتلك التى يثيرها الشعراء .



وليس من المستحيل تصور مثل هذه اللغة . فبدلاً من تلخيص كل تجاربنا للشيء الواحد فى كلمة واحدة ، أى فى اسم هذا الشيء ، فسنعمد إلى استرجاع الإحساسات المختلفة التى ولدها فينا الشيء عن طريق استخدام صفات مناسبة . حينئذ ستصبح الموضوعات التى نفكر فيها مفككة متحللة ، أو على الأصح لن تتحقق الوحدة فيها أبداً . وبدلاً من كلمة « الشمس » نقول مثلاً : « مرتفع ، أصفر ، متألق ، كروى ، متحرك ببطء » . وتعدد هذه الصفات ، كما نسميها ، بدون أن نوحى بوجود مصدر واحد لها ، قد يعطينا تصويراً للحقائق أوضح وأعمق ، وإن كان أكثر مضايقة ، من التصوير الحالى . لكن كيف يمكن للمخيلة فى هذه الحالة بما لها من أدوات أن تنقل تأثراتنا نحن إلى هذه اللغة حينما تكون الموضوعات التى هى واضحة حقيقية فى نظرنا من المستحيل تماماً وصفها فى نظر من يتكلمون هذه اللغة الافتراضية ؟

وفى اللغات العادية التى نعرفها يوجد نفس الاختلاف وإن كان على درجة أقل . فوجود الصرف فى الأسماء والصفات أو عدمه ، ومدى الصرف فى الأفعال وتعدد أدوات الوصل وغيرها من الجزئيات - كل هذه الصفات المميزة تجعل اللغة الواحدة تختلف عن غيرها اختلافاً كلياً فى عبقريتها وقدرتها على التعبير . ولعل اللغة اليونانية تفوق غيرها من اللغات فى الموسيقى والغزارة والطواعية والبساطة ، بحيث إنها على الرغم من تعقيد صرفها يجدها المرء بعد أن يتعلم مفرداتها أيسر وأكثر طبيعية

من اللاتينية التي كان يتحدث بها أجداده . فاللاتينية أكثر جموداً من اليونانية وهي بطبيعتها تتميز بالإيجاز والجلال ، وما فيها من قدرة غريبة على التركيز والتقديم والتأخير يجعل تأثيرها غريباً كل الغرابة على من يتحدث بلغة حديثة لا يكاد يوجد فيها أى صرف . ولنأخذ مثلاً هذه الأبيات لهوارس .

me tabula sacer

votiva paries indicat uvida

suspendisse potenti

vestimenta maris deo,

أو هذه الأبيات للوكريشيوس :

Jamque caput quassans grandis suspirat arator

Crebrius incassum magnum cecidisse laborem.

كيف تستطيع أى لغة من لغاتنا الشمسية الخليطة أن تعبر عما فى كلمات لوكريشيوس هذه من جلال وفخامة والتي تتسم كل كلمة منها بالنبل وتبدو كأنها ترتدى الوشاح « الطوجة » الرومانية ؟

وقد نستعيض عما فى أبيات هوارس من تداخل لا مثيل له فى الألفاظ بروابط القافية الخارجية ، بل إن من مسوغات القافية فيما يبدو أنها إلى جانب ما تضيفه إلى الموسيقى وإلى جانب توزيعها لأجزاء

القصيدة توجد رابطة صناعية بين العبارات التي تتخللها . وبدون القافية تشتت هذه العبارات وتتباعد بسرعة دون أن تتحقق أية رابطة بينها . وفى شكل شعري مثل « السونيتة » "sonnet" نجد أن التوافق الصوتي يفرض وحدة حقيقية على الفكر . فالسونيتة التي لا يورع فيها الفكر توزيعاً مناسباً على الأجزاء التي تتكون منها القصيدة لا مسوغ لها ، وكان الأحرى بكتابها أن يستخدم شكلاً آخر . إن السونيتة أكثر الأشكال الشعرية الحديثة كلاسيكية وذلك بفضل ما فى أجزائها من تداخل أو ترابط سببه القافية التي يزيد استخدامها فى السونيتة عن أى شكل شعري آخر . إنها أكثر كلاسيكية فى روحها من الشعر المرسل ( غير المقفى ) blank verse الذي تكاد تعوره تماماً القدرة على توحيد العبارة وعلى جعل ما هو غير متوقع يبدو حتمياً .

ولا يصل المحدثون إلى هذا الجمال الذى أوتيه القدامى عن طريق تراكيب لغتهم إلا من خلال تنسيقهم للقوافى . وربما لم تكن القافية أحسن بديل ، إلا أنها أفضل من انعدام الشكل كلية - الشيء الذى تدعو إليه طبيعة الفاظنا الذرية ورتابة عباراتنا . إن الفن الذى كان فى مقدوره أن يجعل من كل جملة ثرية ذرة فريدة ، الفن الذى تطور على يد تاسيتوس (Tacitus) حتى لربما أصبح فناً واعياً أكثر مما ينبغى ، وأصبحت عبارات هذا الكاتب سلسلة من الجواهر المنقوشة ، هذا الفن لا يمكن تطبيقه على لغتنا التي يعورها إيجاز اللاتينية وجمودها . فلن

نستطيع أن نحقق الإتقان والدقة فى الفخار كما نفعل فى المرمر . وهكذا  
 ف شعرنا وكلامنا عامة يبدآن من مستوى أدنى من المستوى اللغوى الذى بدأ  
 منه القدامى ، ولذلك فلن نستطيع الآن أن نصل بنفس المجهود إلى ما  
 بلغوه من جمال . وإذا كان من الممكن تحقيق نفس القدر من الجمال فلن  
 يكون ذلك إلا عن طريق غزارة إحياءاتنا أو تشقيف عواطفنا ودقة  
 إحساسنا . أما فن الكلام فسيظل دائماً أدنى بكثير عندنا . ولا أدل على  
 ذلك من أننا الآن سرعان ما نهبط إلى مستوى المبالغة والغموض والتصنع  
 حينما يودى استيقاظ حب الجمال فى نفوسنا إلى تشذيب لغتنا الشعرية .  
 إن لغاتنا الحديثة عاجزة عن تقبل الجمال الشكلى العظيم .

#### ٤٤- الشكل الأدبى . العقدة

إن الأشكال التى تستعمل فى التأليف شعراً ونثراً فى كل اللغات هى  
 مرحلة متقدمة من تنسيق الألفاظ ولها قيمها الشكلية . والمسرحية هى أكثر  
 هذه الأشكال دقة وكمالاً فى تطورها . إلا أن البحث فى طبيعة آثار هذه  
 الأشكال يتنى إلى ميدان الشعر والبلاغة ، وقد بينا هنا بالقدر الكافى  
 المبدأ الذى تقوم على أساسه . والعقدة (plot) التى يجعلها أرسطو بحق  
 أهم عنصر فى تأثير المسرحية هى العنصر الشكلى فى المسرحية من حيث  
 هى مسرحية . أما الشخصية أو الأخلاق والعواطف والأفكار فهى  
 التعبير ، بينما الشعر والموسيقى والمناظر هى المادة أو الأدوات . ومما يتفق

والنزعة الرومانطيقية فى العصور الحديثة أن كتاب المسرحية المحدثين ، مثل شكسبير وموليير وكالديرون وغيرهم ، يجيدون تصوير الشخصية أكثر مما يجيدون حبك العقدة ، لأن من أوضح مميزات العبقرية الحديثة دراسة التعبير والاستمتاع به ، أى الإيحاء بما هو غير معطى ، أكثر من دراسة الشكل والاستمتاع به أى دراسة ما فى المعطى من تناسق .

وأهم أسباب الطرافة فى الشخصية أنها تلخص وتبرز ملاحظاتنا الفردية أو أنها تخاطب تجاربنا الفعلية والخيالية . وهى نوع من التصوير أو رسم الشخص ، نجبه لذاته بغض النظر عما قد يجتذبنا فيه فى لحظة ومكان معينين . وهى تجتذب عواطفنا ولكنها لا تشكلها . أما العقدة فهى تضع الفعال فى شكل موحد وترسم صورة لتلك التجارب التى تنبع منها فكرتنا عن البشر والأشياء فى أول الأمر ، لأنه لا يمكن ملاحظة الشخصية فى العالم إلا حينما تظهر ذاتها فى الفعال .

حقاً إننا نكون أكثر دقة من حيث الأساس حين نقول إن الشخصية رمز وتلخيص عقلى لمجموعة معينة من الفعال من أن نقول إن الفعال هى مظهر للشخصية . وذلك لأن الفعال هى المعطيات وأما الشخصية فهى المبدأ المستنبط من هذه المعطيات ، والمبدأ على الرغم من اسمه لا يكون أبداً أكثر من مجرد وصف يستند إلى التجربة (a posteriori) وتلخيص لما هو مدرج تحته . وفضلاً عن ذلك فإن العقدة تعطى المسرحية ذاتيتها أو فرديتها وتتطلب نشاط الملكة الإنشائية . وهى كما يقول أرسطو أيضاً

أصعب أجزاء الفن المسرحى ولا غنى فيها عن التدريب والمرانة . ولما كانت بطبيعتها تعطينا صورة معينة للتجربة البشرية فإنها تتضمن الشخصيات التى تقوم بالفعال وتوحى بها .

والذى يصنعه كبار مصورى الشخصية مثل شكسبير لا يتعدى تطوير وتنمية الإيحاء بالفردية الإنسانية الذى تحتويه العقدة ( إلى درجة تخرج عن نطاق مقتضيات العقدة ) . فكما لو كنا بعد أن نصل عن طريق الملاحظة اليومية إلى معرفة طبائع أصدقائنا وأمزجتهم نصورهم وهم يفعلون ويقولون أشياء تميزهم أصدق التمييز وأحياناً نجعلهم يناجون أنفسهم على نحو يكشف لنا فى صورة أوضح من أى من فعالهم تلك الشخصية التى ننسبها إليهم نتيجة لملاحظتنا لسلوكهم . وابتكارنا هذا لما لم يقلوه لنا أو يصنعوه أماننا ينم عن براعة تخيلنا وهو مصدر لذة لنا لأننا نكتشف فيه بوضوح الشخصية الخفية . بيد أن تطوير العقدة على نحو جاد متكافئ له قيمة أكثر ثباتاً وذلك لمشاكلته للحياة ، فالحياة تمكثنا من رؤية نفوس الغير من خلال الأحداث لا الأحداث من خلال نفوس الغير .

#### ٤٥- الشخصية باعتبارها شكلاً جمالياً

لقد وصلنا الآن إلى تلك الوحدة التى يسعى الأدباء المحدثون إلى تحقيقها أكثر من غيرها ، وحينما يبلغونها يقدرونها ويخلعون عليها قيمة

كبرى وهى وحدة الصورة أو الفردية أو الشخصية . ونحن نطلق على بناء العقدة لفظة الاختراع بينما نطلق على رسم الشخصية اسماً نمجده به وهو اسم الخلق . فقد يكون من المفيد إذن أن ننهى مناقشتنا للشكل بتكريس بعض الصفحات لمناقشة موضوع سيكولوجية رسم الشخصية . كيف تنشأ تلك الوحدة التى نسميها الشخصية ؟ وكيف توصف هذه الوحدة وما هو الأساس الذى يقوم عليه ما توجده من تأثير ؟

نستطيع أن نقرر هذه الحقيقة البينة وهى أن أماننا هنا حالة من حالات النمط : فنحن نضم مواضع الشبه بين الأشخاص المختلفين أحدها إلى الآخر ونلغى ما بينهم من اختلاف ، وفى المدرك الناشئ عن ذلك نؤكد تلك النواحي من الشخصيات التى أثارت اهتمامنا أو ولدت فينا لذة بصفة خاصة . ونستطيع أن نعتبر هذا وصفاً مجرداً لنشأة فكرة الشخصية كما هو وصف لنشأة فكرة الشكل المادى . إلا أن الطبيعة المختلفة لمادة الشخصية - أى كون الشخصية ليست أمراً مائلاً أمام الحس ، بل هى تكوين ذهنى معقول لفعال ومشاعر متعاقبة يستحيل ضمها جميعاً فى صورة ذهنية واحدة - هذه الطبيعة المختلفة تجعل وصفنا هذا قاصراً فى هذه الحالة أكثر منه فى حالة الأشكال المادية . فنحن لا نستطيع أن نفهم على وجه التحديد كيف تحدث عمليات الجمع والإلغاء حينما لا يكون الشيء موضوعاً مرتباً ، بل ونحس أن فى تطوير بعض الشخصيات المثالية شيئاً من اكتمال الوحدة ولدنية الفاعلية ، يجعل مثل هذا التفسير

خاطناً رائقاً في أساسه . فالعنصر الذاتى هنا ، أى التعبير التلقائى عن عواطفنا وإرادتنا له أهمية كبرى بحيث أن خلق الشخصية المثالية يصبح مشكلة خاصة جديدة .

إلا أن هناك طريقة لتصور الشخصيات ورسمها تشبه إلى حد بعيد العملية التى ينتج بها الخيال أنماط الأنواع المادية جميعاً . فقد نجتمع مثلاً حول نواة كلمة من الكلمات تعنى حالة إنسانية معينة أو نشاطاً خاصاً عدداً من الملاحظات المتفرقة . وقد نحتفظ بمذكرة فى حافظتنا أو فى جيبنا نكتب فيها ملاحظاتنا الدقيقة عمّن نقابلهم من الناس بلغتهم وعاداتهم وملابسهم وحركاتهم وتاريخهم ، ونصنفهم إلى فئات معينة مثل أصحاب الحانات ، والجند والخادما والمريبات وصاحبات المغامرات ، والألمان والفرنسيين والإيطاليين والأمريكيين والممثلين والقساوسة والأساتذة . وحينما تسنح الفرصة لعرض أحد هذه النماذج البشرية أو لوصفه أو إدخاله فى كتاب أو مسرحية فحينئذ لا نفعل أكثر من أن نستعرض مذكراتنا ونتقى منها ما يستحق وحاجات اللحظة ، وإذا كنا بارعين فى نقل الصورة الأصلية فإننا سنحصل بهذه الوسيلة على صورة مشاكلة للحياة لهذا النموذج من الناس الذى نود أن نصوره .

وهذه العملية التى يقوم بها الروائيون وكتاب المسرحيات عن وعى تقوم بها جميعاً بدون قصد منا . ففى كل لحظة تترك التجربة فى أذهاننا ناحية من نواحي الشخصية أو أحد التعابير أو إحدى الصور فتظل هذه



الأشياء مرتبطة باسم الشخص وطبقته أو جنسيته . وإن ما نحب ونكرهه في الأشخاص ، ومجمل أحكامنا على فئات بأكملها من الناس ليست إلا نتيجة لتبقى مثل هذا الأثر في أذهاننا في صورة واضحة . وتميز نواحي الشخصية هذه التي تركها التجربة في أذهاننا بالحوية . ومع أن الصورة التي ترسمها للشخصية قد تكون ناقصة وغير كافية إلا أن الإحساس الذي تولده في نفوسنا قد يكون إحساسًا واضحًا يوحى بنواحٍ أخرى من الشخصية . فعلى الرغم من أن الصفات التي يذكرها هوميروس مثلاً لا تصف جوهر الموضوع غالبًا مثل قوله عن الإلهة أثينا ( أثينا ذات العينين المتألفتين » أو عن الإغريق أنهم « ذوو الدروع المصقولة » فإنها فيما يبدو تسترجع الإحساس وتكسب القصة حيوية . فمن طريق إحضار القارئ أمام الموضوع من خلال حاسة واحدة توحى هذه الصفات بأن هناك نواحي أخرى سيتم اكتشافها ، كما توحى بذلك التوقع للتجربة الذي نحس به حينما نرى ما نسميه الموضوع الحقيقي .

وهكذا نرى أن لهذا المنهج في الملاحظة وتجميع الصفات المميزة قدرة تصويرية كبرى . إلا أن أشهر الشخصيات وأكثرها حياة لم يتم تكوينها على هذا النحو . فهذا المنهج لا يعطينا سوى المتوسط أو على الأكثر النقاط البارزة في النمط ، بينما الشخصيات الشعرية الكبرى مثل شخصية هاملت ودون كيشوت وأخيل ليست بالشخصيات المتوسطة ، بل إنها ليست مجرد تجميع للنواحي البارزة التي تشترك فيها بعض فئات الناس .

وإنما تبدو أشخاصاً فى ذاتها ، بمعنى أن فعال كل منها وكلماته تبدو كأنها تتبع من الطبيعة الباطنية لروح فردية . وقد روى عن جوته أنه قال إنه لم يعتمد مطلقاً على مشاهدة أى أصل حينما صور شخصية جريتشين . ولربما ما استطاع جوته أن يجد أصلاً لهذه الشخصية فى العالم الحقيقى . بل إننا نقول إن شخصية جريتشين التى من خلقه هى ذاتها الأصل الذى قد نجد من يشبهه أحياناً فى الفتيات الحقيقيات ؛ فالموضوع الخيالى هنا هو معيار الطبيعة ، ويجدر بنا أن نذكر فى هذه المناسبة تلك العبارة التى نردها فى مواضع أخرى كثيرة والتى تقول إن الشعر أصدق من التاريخ . إذ ليس من المحتمل أن جوته وجد فتاة حقيقية تكلمت وسلكت أبداً بهذه الدرجة من الطبيعية التى نجدها عند جريتشين .

وإذا وجدنا تناقضاً فى هذا الكلام وجب علينا أن نذكر أن معيار الطبيعية والفردية والصدق ( ليس معياراً خارجياً وإنما ) هو فى ذاتنا . فنحن نرى فى الرجل الحقيقى شخصية واتساقاً حينما يكون سلوكه بحيث يترك فى أذهاننا صورة محددة بسيطة . ولو تمكنا من أن نحصى جميع الدوافع المجهولة لدى الناس لقلنا إن الناس جميعاً لهم شخصيات وفيهم اتساق على السواء ، وكلهم صالح لأن يكون نموذجاً بنفس الدرجة التى يصلح بها سواه . ولكنه لا يسهل علينا فهم شخصيات الناس جميعاً بنفس الدرجة ولا يمكن تفسير سلوكهم جميعاً على حد سواء ، كما أننا

لا نستطيع أن نقدر دوافعهم نفس التقدير . وهؤلاء الذين يجتذبوننا أكثر من غيرهم سواء لذاتهم أو لما يكتسبونه من أهمية لمشابهتهم لغيرهم هم الذين نتذكرهم ونعتبر كلاً منهم بمثابة مركز يتذبذب حوله من يختلف عنهم . هؤلاء الناس وحدهم هم في نظرنا الطبيعيون ، ومن عداهم غريون بدرجات متفاوتة .

### ٤٦- الشخصيات الخيالية

وإذا كان معيار الطبيعة هكذا ذاتياً تحده قوانين مخيلتنا ، استطعنا إذن أن نفهم لماذا قد يكون ما يخلقه الذهن تلقائياً أكثر حيوية وأبلغ أثراً من أية حقيقة خارجية أو أى تجريد من حقائق خارجية ؛ فيستطيع الفنان أن يتكرر شكلاً فيجىء مستقماً مع الخيال ولذلك تراه يعلق به ويصبح مرجعاً لجميع الملاحظات ومعياراً للطبيعية والجمال . ومن الممكن أن يعرض النمط على الذهن فجأة وذلك عندما تشاء المصادفة لشكل ما أن يمثل ، فتكون له القدرة الذاتية على التأثير ، كما يكون له فى الخيال اتساق بين أجزائه ، فيكتسب مكانة بارزة كتلك التى تخلعها العادة غالباً ، أى تخلعها التجارب المتجمعة حول شىء فيزيد بعضها من قوة بعض ، تخلعها على مدركات الحس فى التجربة .

وهذا المنهج فى توليد الأنماط هو ما نصفه عادة بأنه الخلق أو الإبداع الفنى . ويدل اسمه على الفجائية والأصالة والفسردية التى تميز التصور

الذى نصل إليه عن هذا الطريق . وما نسميه بالتصور المثالى هو عادة ضرب من هذا التصور ، وإن كان ما يحدث فى التصور المثالى الحقيقى هو أننا نستبعد المميزات الفردية البحتة بحيث نحصل فى النهاية على ما هو مجرد ، وبالتالي ما هو نحيل . وغالبًا ما نحس أن هذه التحولة عيب أكبر من ذلك النقص الذى يميز الجزئيات العرضية الحسية فى العالم الفعلى . ولذلك يفضل الفنان أن يتجه إلى الواقع الخام فيدرسه ويقلده بدون تمييز عن أن يعرض لنا نمطًا يخلو من الفردية والقوة ولا قدرة له على التأثير . فهو فيما يبدو مجبر على الاختيار بين جمال مجرد من ناحية ومثل فردى غير جميل من ناحية أخرى .

غير أن التصوير الرائع العظيم للمثل الأعلى ليس واحدًا من هذين الطرفين ؛ فهو يعرض لنا الجمال المثالى بنفس الدرجة من التحديد التى تعرضه بها الطبيعة ذاتها أحيانًا . فحينما نعثر بين حشد من الناس على وجه جميل حقًا لا مثيل له حيثئذ نعرف فى التو أنه تجسيد للمثل الأعلى . وفى الوقت الذى يحتوى فيه هذا الوجه المثل أو النمط ( لأنه لو لم يشمل لوجدناه قبيحًا مضحكًا ) نجده يلبس هذا النمط صورة فخمة معينة لها شكلها ولونها وتعبيرها ، فله فرديته إذن . وربما على هذا النحو تكتسب الشخصوس الخيالية فى الشعر والفنون التشكيلية فردية عن طريق تناسق عناصرها فى الخيال . فليست هذه الشخصوس إذن تصورات مثالية

وإنما هي صور تلقائية تظهر في الذهن بيسر وسهولة كما تظهر في العالم . فهي تطراً على حد قول الشاعر في :

« أفنان الذهن المورقة المشعبة إبان نشاطه ،

مع كل ما يبدعه الخيال ، ذلك البستاني الذي

لا يولّد زهرتين متشابهتين أبداً » .

وبالإجمال نقول إن الخيال يولد كما أنه يجرد ؛ فهو يلاحظ ويجمع ويلغى ، إلا أنه كذلك يحلم . وتظهر فيه تركيبات تلقائية ليست هي المتوسط الرياضى للصور التى يستقبلها من الحواس ، وإنما هي نتيجة لما تخلقه الحواس فى الذهن من انفعالات تنتشر فى شتى أنحاءه . وتتفاوت هذه الانفعالات دائماً فى مدى تجددتها ، ومن وقت إلى آخر تأخذ شكل جمال لا مثيل له يظهر فى الرؤية الباطنة وتفاجأ به الروح . وإذا كانت هذه الرؤية الباطنة واضحة ثابتة فحينئذ يوجد لدينا الإلهام الجمالى والحافز على الإبداع والخلق . فإذا كنا أيضاً نسيطر على الوسائط الفنية لفن يناسب ذلك الإلهام فعندئذ نسرع إلى تجسيد هذا الإلهام وتحقيق هذا المثل الأعلى . وبالتدريج نتبين أن هذا المثل بالغ الجمال لنفس السبب الذى كان سيجعلنا نتبين ما فيه من جمال بالغ لو تحول إلى موضوع موجود بالفعل ، لأنه حينئذ كان سيحتوى بدرجة غير عادية على تلك الجاذبية المباشرة التى تستحوذ على اهتمامنا بالإضافة إلى ما تضمنه نمطاً معروفاً من أنماط الشكل ، أى بالإضافة إلى كونه إنساناً أو حيواناً أو نباتاً .

وهكذا لا تتفاوت الأشكال الخيالية شأنًا وجمالاً تبعًا لقبها بما فى الطبيعة من حقائق أو أنماط ، بل تتفاوت تبعًا للسهولة التى يولد بها الخيال تلك التراكيب التى تتضمنها هذه الأشكال . فمثلاً من تخيلاتنا الطبيعية دائماً إضافة الأجنحة إلى جسم الإنسان ، إذ يتخيل الإنسان بسهولة أنه قادر على الطيران ، وفكرة الطيران من الأفكار التى تستهويه . ولذلك فالإنسان المجنح من الأشكال التى تجمع كثرة الناس على جمالها ، وإن كان يحدث أحياناً ، كما هى الحال عند مايكل أنجلو ، أن يكون تادوقنا للشكل الفعلى لجسم الإنسان كبيراً حاداً بحيث يمنعنا من الاستمتاع بهذا التصور الخيالى الذى هو على جاذبيته فيه قدر من المبالغة والتحويل . ومن الأشكال الجميلة الأخرى الحصان الخرافى الإغريقى Centaur الذى له جسم ورأس وذراعاً إنسان . إذ يسهل على الخيال أن يتتبع تركيب هذا الخلق الذى ينصهر فيه الحصان والإنسان بحيث يصبحان كائناً واحداً والذى كان أول ما أوحى بامتزاج حيويتهما على نحو رائع .

ويحدد نفس الشرط ما فى الشخصيات الخيالية من قيمة . فهى جميعاً - من الآلهة إلى الشخصيات الكوميديّة - ( طبقاً لما فيها من جمال ) تعبيرات طبيعية حيوية عن النشاط الإنسانى الممكن . فلتن كنا أحياناً نعيد تشكيل الأشكال المرئية بحيث نصنع منها مخلوقات خيالية ، إلا أن أصالتنا فى هذا المجال أصالة ضئيلة إذا ما قورنت بتلك الكثرة الوافرة من صور الفعال التى تطرأ فى أذهاننا فى اليقظة وأثناء النوم .

فإننا دائماً نحلم بمواقف جديدة وبخاطرات غريبة ، وبعواطفنا . مبالغ فيها . وحتى أفكارنا التي تنسم بقسط أكبر من الاتزان إنما تنزع إلى حد بعيد إلى تخيل النتائج الممكنة للفعل وإلى الاستمتاع مقدماً بشرات الحب . والطموح . فالعقل إذن ذو حساسية خاصة لصور الفعل والشخصية ، ولهذا يسهل إغراؤنا بتنبع مصير البطل كائناً من كان . وبمشاركته في عواطفه .

إن إرادتنا ، كما قال ديكرت في مناسبة تختلف عن هذه ، لا متناهية ، ولكن ذكاءنا متناه . فنحن في تصورنا للأشياء إنما نتبع التجربة عن كثب ؛ بل إن ذلك العالم الخيالي الذي تسكنه الجنيات والذي نحلم به يحتوي للأسف على أشياء تشبه بعض الشبه ما في عالمنا الحقيقي . أما عواطفنا فهي مرنة ولا حد لها ، ونحن نحب أن نتخيل أنفسنا ملوكاً وشحاذاً ، قديسين ومجرمين ، شباباً أو شيوخاً ، سعداء أو تعساء ، ويبدو أن في كل منا قدرة غير محدودة على التطور تحددها ظروف الحياة وتوجهها في مجرى ضيق . ولذلك فنحن نحب أن نتقم لأنفسنا لهذا التحديد في أحلام يقظتنا ، وذلك عن طريق تخيل أنفسنا ضمن تلك الفئات من الناس التي تختلف عنا والتي كان من الممكن جداً أن ننتمى إليها ، وملتوينا العطف على كل مظهر من مظاهر الحياة مهما كان غريباً ؛ وحتى تصور المعرفة أو السعادة غير المتناهية الذي لا يوجد ما هو أبعد منه

شقة عن ظروفنا أو أصعب منه تحقيقًا في أحلامنا ، حتى ذلك التصور يظل إلى الأبد يثير اهتمامنا .

وهكذا لا يحتاج الشاعر الذى يود أن يرسم شخصية أن يحتفظ بمذكرات . فهناك طريق أقصر من ذلك إلى القلب ، إن كانت لديه الموهبة التى تمكنه من اكتشافه . ومن المحتمل أن قراءه أنفسهم لا يحتفظون بمذكرات ، وفى هذه الحالة لن يكون لملاحظاته الدقيقة أى أثر فى نفوسهم إلا حينما يصف لهم شيئًا تصادف لهم أن لاحظوه أيضًا . ولذلك فالشخصيات العادية التى يمكن وصفها عن طريق هذا المنهج التجريبي إنما هى شخصيات قليلة : مثل شخصية البخيل والعاشق ، والمربية العجور والفتاة الساذجة ، وغير هذه وتلك من أنماط الشخصيات التى نجدتها فى الكوميديا التقليدية . وأى وصف أدق تفصيلاً من ذلك لن يستهوى إلا جمهوراً ضئيلاً لفترة وجيزة لأن الصفات المميزة التى توصف بالتفصيل ستزول ، وبالتالي لن يمكن التعرف عليها . إلا أنه مهما كانت التجارب التى مر بها المستمعون فإنهم أولاً بشر ، ولديهم القدرة الخيالية على تصور أشكال معينة من الشخصيات والفعال وعلى الإعجاب بها ، أشكال على الرغم من عدم وجودها فى عالم الواقع يحس كل إنسان بأنها تعبر عما كان يود أن يكون أو عما كان من الممكن له أن يكون لو أتاحت له الظروف المواتية .



وما على الشاعر إلا أن يدرس نفسه ويدرس فن التعمير عن مثله العليا لكي يجد نفسه يعبر عن مثل غيره من الناس أيضاً . عليه أن يقوم في نفسه بتمثيل الدور الذى تلعبه كل من شخصياته ، وإذا أتاحت له المرونة وتحديد الخيال - وهما الصفتان اللتان تتألف منهما العبقرية - فإنه قد يعبر لغيره من البشر عن تلك النزعات الباطنية التى ظلت عندهم بكما على نحو مؤلم . وحيثشذ يقدره الناس ويعتبرونه خبيراً بالروح الإنسانية . ومع أنه قد لا يعرف شيئاً عن الناس ، وقد لا يكون عنده ما يذكر من التجربة ، فإن مخلوقاته تعتبر نماذج طبيعية وأنماطاً بشرية . وسيرد ذكر أسمائها على كل لسان وستزيد حيوات أجيال كثيرة غنى برويتهم لهذه الكائنات الخيالية ، بل نكاد نقول بصداقتهم لها . فهذه الكائنات الخيالية لها فرديتها دون أن تتوافر فيها صفة الوجود الحقيقى ، لأن الفردية شىء يكتسب فى الذهن عن طريق تجمع الانطباعات ، ولها أيضاً سلطان لأن ذلك يعتمد على مدى صلاحية المؤثر للمس أوتار الاستجابة فى الروح . ولها أيضاً جمالها لأنها تتضمن أعظم ملذاتنا الخيالية ألا وهى لذة تجسيد قدراتنا الكامنة وتحويلاتنا فى جميع أشكال الوجود الممكنة بغير ضواغط الوجود الفعلى ومتناقضاته .

## ٤٧- الخيال الدينى

ولم تكن أعظم آيات هذا الإبداع نتاج فرد واحد ، بل كانت نتاجاً بطيئاً للخيال الدينى الشعرى . فالتقاليد الشعبية والدينية كانت تأخذ أحد

تجسيّدات الطبيعة ، أو ذكرى رجل عظيم ، فتطورها وتهذبها فى شكل مثالى ، وتجعل منها تعبيراً عن أمانى البشر وشيئاً يقابل حاجاتهم . فكل قبيلة وكل كاتب للأناشيد المقدسة أضاف بورعه صفة إلى الإله وضم إلى أسطوره قصة تمثل خصاله . وهكذا جمع كل شعب بخياله حول نواة وظيفة مقدسة أصلية كل تعبير ممكن عنها ، فخلق بذلك شخصية كاملة جميلة لها تاريخها وطابعها ومواهبها . ولم يستطع أى شاعر فيما بعد أن يبلغ مستوى هذه المخلوقات الدينية بكمالها وبعمق مدلولها . وإن أعظم شخصيات الأدب لهى شخصيات جامدة غير طريفة إذا ما قورنت بتصورات الآلهة ، بل لقد بلغت تصورات الآلهة من الأهمية والطرافة ما جعل الناس يعتقدون بأن لآلهتهم وجوداً موضوعياً .

وربما كانت الأشكال التى يراها الناس فى الأحلام هى السبب فى اعتقادهم بوجود الأشباح الغامضة المقلقة ، أما إيمانهم بوجود آلهة فردية محددة تماماً فلا يرجع إلى ما يرونه فى الأحلام كما قد يظن بعضهم ؛ إذ من الواضح أنه يرجع إلى ما فى تصوراتنا لهذه الآلهة من تناسق ذاتى ومن قدرة على التأثير . فليس فى مقدور رؤى الأحلام أن توحى بأساطير الآلهة أو بصفاتها ، ولكن متى ما تصور الإنسان عن طريق الخيال شخص الإله ، ومتى ما ثبت اسمه ومظهره فى الخيال ، فحينئذ يكون السهل التعرف عليه فى أى هذيان وتوهم ، ومن السهل أيضاً تفسير أية حادثة من الحوادث بأنها ترجع إلى سلطانه . وهذه المظاهر التى يتألف

منها الدليل على وجوده الفعلى لا يمكن اعتبارها مظاهر له أكثر من اعتبارها مظاهر لقوة غامضة مجهولة إلا حينما يكون الخيال قد تكونت لديه سابقاً صورة واضحة لهذا الإله ولوظائفه التى يتميز بها . وهذه الصورة إنما هى نتاج تلقائى للخيال .

ولاشك أنه متى ما تحدد الإيمان وتميز الإله الخاص وسط القوى الطبيعية المهيمنة بما فيها من ظلام ورعب ، فإن الإيمان بوجوده الحقيقى يساعد على تركيز انتباهنا على طبيعته ومن ثم على تطوير تصورنا له وريادته غنى . فالإيمان بوجود مثل أعلى يدفع إلى زيادة الصفات المثالية لهذا المثل . ولو طرأ لأى عراف يونانى أن يعزو بعض الأحداث إلى نفوذ أخيل ، أو أن يقدم له القرابين مدفوعاً فى ذلك بحماسة البالغة له لما له من جمال وفضائل ، لو حدث ذلك وآله أخيل لتطورت أسطوره وازدادت عمقاً ، ولاكتسبت معنى خليقياً كأسطورة هرقل أو معنى طبيعياً مثل أسطورة بوسيفونى ، ولأصبحت شخصيته ، التى هى الآن مجرد شخصية شعرية ذات قوة غير عادية وجلال رائع ، شخصية أحد الحماة الذين يعبدهم الناس جيلاً بعد جيل ومظهراً يدل على ربوبية الإنسان .

وهكذا كان أخيل سيصبح شخصاً هاماً لا ينسى مثل شخص أبولو أو أخته ، أو مثل زيوس وأثينا وغيرهما من الآلهة العظمى . ولو قدر لشخصيته فى هذه المرحلة الدينية أن تفقد بعض أهميتها أو أن تنطمس ملامحها لما كل الشعراء من التغنى بمدائحها والتحاتون من تصوير

شكلها . ولو حدث أن ضعف الإيمان بوجود هذا البطل وتحول إلى تصور آخر مختلف للقوى الكونية فإنه بعد أن كان موضوعاً ومركزاً لهذا الجهد الخيالي الكبير كان سيظل مثلاً أعلى في الشعر والفن وأثراً مكوناً لعقول المثقفين بأسرها . حقاً إنه الآن كل هذه الأشياء إلى حد ما ، مثله في ذلك مثل المخلوقات الكبرى المعترف بأنها مخلوقات خيالية ، إلا أنه كان سيصبح كل هذه الأشياء إلى حد أبعد من ذلك بكثير لو آمن الناس بوجوده وركزوا خيالهم الخلاق طول الوقت على طبيعته .

واعتقد أن القارئ سيدرك أن كل هذا الكلام ينطبق أيضاً بنفس القوة على التصور المسيحي للشخصيات المقدسة . فربما كان المسيح ومريم العذراء والقديسون كما يتصورهم خيالاتنا تماماً ، فليس هذا بالشئ المستحيل . ولا أعتقد أنه من المستحيل أن يكون لتصورات الديانات الأخرى ما يقابلها في مكان ما في الكون . إن هذه مسألة تتعلق بالإيمان وبالبراهين التجريبية ولسنا هنا معنيين بها . ولكن مهما كانت تصوراتنا تطابق الحقيقة فمن الواضح أنها نشأت ونمت في أذهاننا نتيجة لعملية تطور باطنية . فقد صهر الخيال الديني مواد التاريخ والتقاليد وصاغها من جديد في شكل تلك الأشخاص التي نحس بالورع والتقوى إزاءها .

وهذا هو السبب الذي يفسر كيف أن آلهة الميتافيزيقا التي يعاد تركيبها من جديد على نحو منطقي إنما هي إهانة وسخرية من الوعي الديني دائماً . حقاً إنه ليس من المستحيل أن يكون أحد هذه المطلقات

بدوره تصويراً للحقيقة ، إلا أن المنهج الذى نصل عن طريقه إلى تصور هذا المطلق إنما هو منهج صناعى لا تدرج فيه ، بينما التصور التقليدى لله تجسيد تلقائى للتأمل العاطفى والتجربة الطويلة .

وكما أن إله الدين يختلف عن إله الميتافيزيقا كذلك يختلف المسيح الذى نجلده فى التقاليد عن المسيح عند المؤرخين النقديين . وحتى لو فهمنا العرض القصصى فى الإنجيل فهماً حرفياً وقبلناه باعتباره أقصى ما يمكننا أن نعرفه عن المسيح دون أن نسمح لأنفسنا بحرية التفسير الخيالى للشخصية الرئيسية فيه ، فإن الصورة المثالية التى نكونها له عن هذا الطريق كانت ستختلف عن الصورة التى نجلدها فى كتاب الصلاة الإنجليزى ناهيك عن اختلافها عن صورة القديس فرنسيس أو القديسة تيريزا . إن المسيح الذى أحبه وقدسناه الناس هو مثل أعلى كونوه حسب رغباتهم هم ، وخلقوا له شخصية دائمة تعيش معهم ، شخصية حية يالفونها ويفهمونها جيد الفهم وذلك من تلك الأفاصيل الناقصة والمبادئ المرتبطة باسمه . وإن هذه الصورة الذاتية هى التى أوحى بكل ما فى العالم المسيحى من صلوات وانقلاب دينى ، من تكفير وركاة وتضحيات ، كما أنها هى التى أوحى بنصف ما فيه من فن .

وإننا نجد مثلاً أكثر وضوحاً لهذه العملية الباطنية التى يتم بها تطور الشكل المثالى فى مريم العذراء التى لها سلطان كبير على الخيال الكاثوليكى على الرغم من ضآلة أسطورتها . فكل ما لدينا هنا إنما هو

امتداد عاطفى لحدثين معينين : هما الحلول والصلب . ونلاحظ أن شخص العذراء الذى يظهر فى هذين الموقفين يزداد وضوحاً بالتدرج فى ذهن الناس ، وينمو ويتطور حتى نجدهم يؤمنون بخلوها من الخطيئة الأولى من جهة وبأمومتها العالمية من جهة أخرى . وهكذا نصل إلى تصور دور هو أنبل ما يمكن تصوره ، وإلى تخيل شخصية هى أجمل الشخصيات الممكنة . ومن المؤسف أن البروتستانتين قد حرموا أنفسهم من متعة تأمل هذا المثل الأعلى ، وذلك لما فى العقلية البروتستانتية من نزعة حمقاء نحو تحطيم الأصنام .

وربما كان من علامات بلادة الخيال عند بعض الأجناس وفى بعض العصور أن يسرع الناس إلى هجرة هذه المخلوقات الرائعة . فلماذا لا نعتقد - إن كانت نظرتنا إلى الحياة يملؤها الأمل - إن أفضل ما نتخيله هو أيضاً أصدق الأشياء ؟ أما إذا كنا بصفة عامة لا نثق بقدرتنا على النبوءة والرؤى فلماذا إذن لا نتشبه إلا بأكثر أوها منا ضعة وقبحاً ؟ إننا مثلاً نركب مادة تجاربنا فى أشكال موحدة وذلك فى كل نشاط إدراكى وخيالى نقوم به من البداية إلى النهاية ، ولا دليل لدينا مطلقاً على أن هذه الوحدة لها وجود خارجى مستقل عنا ، بل ليس هناك حتى إمكان إثبات هذا الوجود . ومع ذلك فحياة العقل ، مثلها فى ذلك لذة التأمل ، لا توجد إلا فى تكوين هذه الوحدات وفى إقامة العلاقات بينها . فهذا النشاط هو الذى ينتج لنا جميع الموضوعات التى يمكننا التعامل معها ،

ويضيف عليها أبداع ما فيها من جمال مباشر . وأكثر هذه الأشكال  
 كمالاً ، إذا ما حكمنا عليه بالنسبة لانسجامه مع قدراتنا وبشاته في  
 تجاربنا ، هو ذلك الشكل الذى ينبغى لنا أن نرضى عنه ، ولن يضيف  
 إلى قيمته أى نوع آخر من الصدق . حقاً إنه لمن المحتمل أن يبتكر الذهن  
 الإنسانى فى المستقبل من التراكيب ما هو أروع بكثير من أعظم ما ابتدعه  
 حتى الآن ، ومن المحتمل أن جميع المثل العليا التى كونها حتى الآن  
 ستزول ويحل محلها غيرها ، وذلك لأنه قد لا يجدها قائمة على أساس  
 كافٍ من التجربة ، أو لأنه قد لا يجدها تطابق هذه التجربة بالقدر الكافى  
 من الدقة . ومن الجائز أيضاً أن التغير الذى يصيب طبيعة الحقائق أو  
 قدرات العقل قد يجعل من الضرورى إعادة بنائنا للعالم من جديد . إلا  
 أن القيمة العقلية والجمالية الأساسية لأفكارنا ستظل دائماً تنبع من نشاط  
 الخيال الخلاق ، اللهم إلا إذا تغيرت الطبيعة البشرية على نحو لا يمكن  
 تصوره .





## الجزء الرابع التعبير

### ٤٨- تعريف التعبير

وجدنا أن جمال المادة والشكل يتضمن تحويل لذات معينة إلى موضوعات خارجية ، لذات تتعلق بعملية الإدراك الحسى المباشر ، إذ تتعلق بتكوين إحساس أو صفة فى الحالة الأولى ، وتأليف تركيب من الإحساسات أو الصفات فى الحالة الثانية . ولكن الوعى الإنسانى ليس مرآة مصقولة تماماً توجد فيها حدود واضحة وتظهر عليها صور متعينة محدودة العدد ويمكن إدراكها جميعاً بالحس . ذلك أن أفكارنا تطفو ناقصة مؤقتاً ، حين تخرج من ذلك التيار المتصل الغامض ، تيار الشعور الحيوى والحسى المشتت ، فهى لا تأخذ الشكل الثابت الذى للأشياء المتميزة الحقيقية إلا بعد أن يكون قد أصابها التغيير والتحوير ، بسبب تحول الانتباه إلى إدراك علاقات جديدة . ولو لم تكن تثبت بعض

محتويات الفكر المجرد فى الفاظ ورموز أخرى لما أمكن لنا أن نقوم بعملية التفكير لما فى العقل من سيولة وعدم تحديد . وهكذا يصبح فى مقدورنا أن نعرف أن هذا الإدراك مثلاً هو تكرار لإدراك سابق ، وأن نتعرف نفس الموضوع فى تكرار حدوث انطباعات معينة . فوظيفة الإدراك والفهم هى التمييز بين محتويات الوعى وتصنيفها واللذات التى تصاحب عمليات التمييز والتصنيف هذه هى التى يتكون منها جمال العالم المحسوس .

غير أن سيطرتنا على أفكارنا تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك . فنحن لا نقتصر على تكوين وحدات مرئية وأنماط يمكن التعرف عليها فحسب بل نظل أيضاً على وعى بما لهذه الوحدات والأنماط من وشائج تربطها بأشياء لا ندركها بالحس عندئذ . أى إننا نجد فيها نزعة أو صفة معينة ليست لها أصلاً ، ومعنى ولوناً خاصاً يتبين لنا بالدراسة والفحص أنه فى الحقيقة من الصفات التى تميز موضوعات وإحساسات أخرى ارتبطت بها ذات مرة فى تجربتنا . وهذه الإحساسات المرتبطة تظل أصداؤها المكتومة تتذبذب فى أذهاننا وتحوّر من استجابتنا الحاضرة وتلون الصورة التى يركز عليها اهتمامنا . والصفة التى تكتسبها الموضوعات على هذا النحو عن طريق الارتباط هى ما نسميه تعبير الموضوعات . وبينما نجد فى حالة الشكل أو المادة موضوعاً واحداً له تأثيره العاطفى الخاص ، نجد فى حالة التعبير موضوعين ، وعندئذ يتعلق التأثير العاطفى بطبيعة الموضوع الثانى أو الموضوع الموحى به . وهكذا فقد يضاف التعبير جمالاً

على موضوعات لا تشير الاهتمام في ذاتها ، وقد يزيد من جمال الموضوعات التي يتحقق فيها الجمال فعلاً .

ولا يسهل التمييز دائماً في الوعى بين التعبير وقيمة المادة أو الشكل ، وذلك لأن ذكرى الفكرة المرتبطة التي يتضمنها التعبير لا تكون دائماً مميزة في أذهاننا . أما حينما تكون هذه الذكرى مميزة ، كما هي الحال في منظر حديقة تردنا عليها في الماضي ، فإننا في هذه الحال نعزو بوضوح وبتلقائية ما نحس به من الانفعالات إلى هذه الذكرى وليس إلى الواقع المائل الذي تضىف عليه هذه الذكرى جمالاً . وفي هذه الحال نجد أن إحياء اللذة الماضية وتجسيدها في الموضوع الحاضر ، الذي هو في ذاته قد لا يثير الاهتمام ، أمر واضح نعترف به .

وقد يكون تميز التحليل بالغاً ( بين الشيء المائل وبين ما يوحى به ) بحيث يحول دون التركيب ، وفي هذه الحال قد تنتقل كلية إلى الموضوع الموحى به مباشرة ، ويكون مصدر اللذة هو في الذكرى فقط ، فلا نهتم بالإحساس الحاضر الذي يوحى به . وحينئذ لا تنجح القدرة التعبيرية للموضوع في أن تضىف عليه جمالاً . وهكذا لا تصيح الأشياء التي نحفظ بها تذكارك لصديق راحل جميلة بسبب تلك الارتباطات العاطفية التي تجعلها ذات قيمة كبرى في نظرنا ؛ فالقيمة هنا مقصورة على صور الذكرى ، وهذه الصور واضحة مميزة إلى درجة قصوى تحول دون تسرب القيمة وانتشارها في سائر وعينا بحيث تضىف جمالاً على الموضوعات التي

نتأملها بالفعل . فترانا نقول فى صراحة : إننا نقدر هذه الأشياء التافهة لما لها من ارتباطات . وطالما يظل هذا الفصل ( قائماً بين الشيء وما يرتبط به ) فإن قيمة الشيء لا تكون جمالية فى نظرنا .

إلا أن قيمة الشيء تصبح جمالية غالباً إذا فقدت الذكرى بعض الوضوح والتميز . فحينما تكون الصور المتذكّرة باهتة ، وحينما تصبح مجرد هالة ، وإيحاء بالسعادة متشركاً حول المنظر ، يكتسب هذا المنظر جاذبية شخصية عميقة مهما كان فى ذاته فارغاً لا يثير أى اهتمام ، بل إننا سنسرر لما فيه من ابتذال . ولن نعترف فى التو بأننا نقدر هذا المكان أو ذاك مثلاً لارتباطاته ، وإنما نقول : إننا مغرمون بهذا المنظر ، وإن هذا المنظر يجتذبنا على نحو غامض . ففى هذه الحال تنصهر كنور الذاكرة ، وتزين الشيء الذى حل محلها ، وبهذا تخلع على هذا الشيء قوة التعبير .

وهكذا لا يختلف التعبير فى أصله عن قيمة المادة أو قيمة الشكل إلا كما تختلف العادة عن الغريزة . فمن الوجهة الفسيولوجية كلاهما إشعاعات لذيدة من مؤثر معين . ومن الوجهة العقلية كلاهما قيمة تجسدت فى موضوع معين . ولكن المشاهد الذى يتأمل الذهن من الناحية التاريخية يرى أن ما يحدث فى إحدى الحالتين هو بقاء تجربة قديمة ، أما ما يحدث فى الحالة الأخرى فهو استجابة لمزاج فطرى . وفضلاً عن ذلك فإن هذه التجربة من الممكن تذكرها على العموم ، ولذلك فإن الوعى ذاته

الذى تظهر فيه يستطيع أن يدرك بوضوح أن مصدر الجاذبية التي يحدثها التعبير إنما هو مصدر خارجي عرضي . فمثلاً لا تصبح الكلمة جميلة أحياناً إلا لمدلولها وما يرتبط بها ، وإن كان يحدث أحياناً أن هذا الجمال التعبيري يضاف إلى ما للكلمة ذاتها من صفة موسيقية . وهكذا يمكننا أن نميز في كل تعبير هذين الحدين : الحد الأول وهو الموضوع المائل أمامنا بالفعل ، أى الكلمة أو الصورة أو الشيء المعبر ، والحد الثابتي هو الموضوع الموحى به ، أو الفكرة أو الانفعال الإضافي أو الصورة المولدة أو الشيء المعبر عنه .

ويوجد هذان الحدان معاً في الذهن ، ويتألف التعبير من اتحادهما . فإذا كانت القيمة مقصورة على الحد الأول فلن يوجد لدينا جمال التعبير . فالكتابة العربية الزخرفية المنقوشة على الآثار مثلاً لن يكون فيها جمال التعبير في نظر من لا يعرف اللغة العربية وإنما يكون جمالها في هذه الحالة مقصوراً على جمال المادة والشكل . أو إذا كان لها تعبير على الإطلاق فلن يكون إلا عن طريق تلك المعاني والأفكار التي قد توحى بها مثل فكرة الورع والحكمة الشرقية التي كانت عند من شيدوا هذه المباني التي تزينها ، وفكرة البعد الشاسع بين عالمها وعالمنا . وحتى هذه الإيحاءات التي هي نتيجة جولان مخيلتنا أكثر منها دراسة للموضوع ، لن تبعث فينا لذة يمكن تجسيدها في الصورة الماثلة . فستظل الكتابة بدون تعبير وإن كان مجرد وجودها قد يوحي برؤية طريفة لأشياء أخرى .

ويظل الحدان هنا مستقلين إلى درجة أكبر مما ينبغي ، وتظل القيم الذاتية لكل منهما مميزة عن الأخرى . ولن تكون للموضوع القدرة على التعبير المرئى ، وإن كانت لديه القدرة على الإحياءات الفكرية .

وإذا كان ما يكون التعبير هو مجرد العلاقة الخارجية بين موضوع وآخر فإن جميع الموضوعات حيثئذ تصبح لديها قدرة متكافئة على التعبير بدون تمييز ، وتصبح الزهرة النابتة فى ثقب الجدار تعبر عن نفس الشيء الذى يعبر عنه تمثال نصفى لقيصر أو كتاب « نقد العقل الخالص » . ولكن الشيء الذى تتألف منه القدرة التعبيرية الفردية لهذه الأشياء هو تلك الدائرة من الأفكار المرتبطة بكل منها فى العقل الواحد . فمثلاً تعبر كلمتى عن تلك الأفكار التى توقظها بالفعل فى ذهن القارئ ، وقد يجد أحدهم فيها تعبيراً أكثر مما يجده الآخر ، وربما وجدت أنا فيها من التعبير أكثر أو أقل مما تجده أنت . وتظل أفكارى غير معبر عنها إذا لم تنجح كلمتى فى التعبير عنها لديك ، وربما تجد أنت فيها بما لك من قسط أكبر من حكمة تعبيراً عن آلاف المبادئ التى لم تدر أبداً فى خلدى . إن التعبير يعتمد على اتحاد حدين لا بد أن يقدم لنا الخيال أحدهما ، ولا يستطيع الذهن أن يقدم ما ليس موجوداً فيه . ويتبع من ذلك أن القدرة التعبيرية للأشياء تزيد بزيادة ذكاء المشاهد .

إلا أنه يجب أن يتوافر شرط آخر حتى يصبح التعبير عنصراً من عناصر الجمال . فقد أتمكن من رؤية علاقات الموضوع وقد أتمكن من فهمه

الفهم كله ، ومع ذلك فقد لا يثير هذا الموضوع فى نفسى أى اهتمام على الإطلاق ، وبدون اللذة لا يوجد جوهر الجمال . وحتى اللذة فإنها كما رأينا غير كافية بمفردها : إذ أننى قد أتسلم خطاباً ملؤه الأخبار السارة جداً ومع ذلك فلا يلزم أن يبدو الورق المكتوب عليه هذا الخطاب أو خطه أو أسلوبه جميلاً فى نظرى . إن القدرة على التعبير لا تصبح جمالاً فى نظرى إلا عندما تمتزج انطباعاتى وأنشر على الرموز ذاتها ما تشير من انفعالات وأجد غبطة ولذة فى الكلمات التى أسمعها ، كما يحدث عندما أسمعهم يغنون « المجد للرب فى الأعلى » (Gloria in excelsis Deo) .

ولابد لقيمة الحد الثانى أن يتضمنها الحد الأول ؛ فجمال التعبير جزء لا يتفصل عن الموضوع ، مثله فى ذلك مثل جمال المادة والشكل . والفرق بين هذين النوعين من الجمال هو أن جمال التعبير لا يضاف إلى الموضوع نتيجة لعملية الإدراك ذاتها وإنما نتيجة لارتباط هذه العملية بعمليات أخرى مصدرها وجود انطباعات سالفة . وقد يكون من المفيد أن نستخدم اصطلاح « القدرة التعبيرية » حينما نقصد كل ما للموضوع من قدرة على الإيحاء ، ونستخدم كلمة « التعبير » قاصدين بها التحوير الجمالى الذى توجده القدرة التعبيرية فى الموضوع . والقدرة التعبيرية إذن هى ما تضيفه التجربة على أية صورة من قدرة على توليد صور أخرى فى الذهن . وتصبح هذه القدرة التعبيرية قيمة جمالية أو تصبح تعبيراً حينما

تكون القيمة المتصلة بالارتباطات التي تثار على هذا النحو جزءاً متضمناً في الموضوع الحاضر .

#### ٤٩- عملية الترابط

ويبدو أن أصفى حالة يمكن للقيمة التعبيرية أن تظهر فيها هي تلك الحالة التي لا تكون فيها لأي من الحدين في ذاته قدرة على إثارة الاهتمام ، وإنما تتولد اللذة نتيجة لعملية الربط بينهما . ومثل هذه الظاهرة توجد في علم الرياضة وفي الألفار والأحاجي واللعب بالرموز . إلا أن مثل هذه اللذة لا تدخل في نطاق الجماليات لعدم وجود عملية تحويلها إلى موضوع . فهي لذة نشاط الربط ذاته ولا نعتبر الموضوعات فيها جوهرًا يتضمن أية قيمة . إن المسائل الرياضية أو الحسابية تتفاوت في طرافتها في نظرنا ، ولكنه لا يدوم بخلد عالم الرياضة أن يرتب الأشكال في نسق مسلسل حسب جمالها ، ولا يستطيع إلا من باب المجاز فحسب أن يقول إن الصيغة  $(ا + ب)^2 = ا^2 + ٢اب + ب^2$  أجمل من  $٢ + ٢ = ٤$  . ومع ذلك فهذه المفهومات تقترب من القيم الجمالية ، ويصبح استخدام الصفات الجمالية في وصفها أقل مجازاً ، بقدر ما تتحدد هذه المفاهيم وتتخذ شكلاً موضوعياً في الذهن .

وليس جمال الموسيقى المجردة إلا خطوة واحدة أبعد من هذه العلاقات الرياضية ؛ فجمال هذه الموسيقى يتألف من هذه العلاقات



معروضة فى شكل حسى بحيث ينشأ عنها موضوع يمكن تصوره . إلا أنه كما نرى بوضوح فى هذه الحالة الأخيرة ، حينما يتألف الموضوع من العلاقة ذاتها ، بدلاً من الحدين ، فحسبئذ يكون الجمال ، إذا وجد جمال على الإطلاق ، جمال شكل وليس جمال تعبير . فكلما كان جمال الموسيقى رياضياً زاد ما نراه فيها من شكل وقل ما نجد فيها من تعبير . وفى الواقع إن الإحساس بالعلاقة هنا هو جوهر الموضوع ذاته ، وعملية الانتقال من حد إلى آخر هى ذاتها التى يتألف منها الموضوع المعروض أمامنا ، ولا تتقلنا بعيداً عن هذا الموضوع المعروض . وهكذا فاللذة التى تولدها عملية إدراك العلاقة هذه هى ذاتها لذة إدراك شكل محدد ، ولا يوجد جمال شكلى أكثر كمالاً من ذلك .

ونستطيع أن نؤكد هنا نقطة ذات أهمية جوهرية . وهى أن عملية الترابط تدخل الوعى على نحو مباشر ، مثلها فى ذلك تماماً مثل أى عملية يقوم بها أى عضو من الأعضاء ، وهى تولد مثلها إحساساً بسيطاً . فاللذات والآلام والمتاعب المخية ، يشعر بها الإنسان كما يشعر بالإحساسات الجسدية تماماً ، فهى تولد نفس الإحساس المباشر وإن لم يكن من اليسير تعيينه كما هى الحال فى الإحساسات الجسدية . ولا يمكن مشاهدة مقرها دائماً كما هى الحال فى الجسد ، ولذلك نترع إلى فصلها عن الجسد وتخييل أنها روحية على نحو خاص وتعلق بالنفس مباشرة ، أو نحاول أن نقنع أنفسنا بأنها تنساب مباشرة من جوهر الأشياء إلى عقلنا

طبقاً لضرورة منطقية خاصة وإننا نضع أنفسنا في مواقف محيرة لا حصر لها حينما نحاول أن نستنبط الجمال والوحدة والضرورة من صفات الأشياء التي يمكننا التعبير عنها بالفاظ ، ونتمادى في هذا الوهم العقلى الذى يجعلنا نحول تلك التصورات التي نستمددها عن طريق التجريد من ملاحظة الحقائق إلى قوى تضىء على هذه الحقائق شخصية ووجوداً .

فمثلاً قد نجد في وجود صورتين معاً إحساساً بالتنافر ، فنقول إن شخصية هاتين الصورتين أو طبيعتهما هي التي تحدث فينا هذا الشعور ، في حين نلاحظ أننا في أحلامنا نجرب أبرز المتناقضات وأسرع التحولات في الأشكال دون أن نحس بأى إحساس بالتنافر على الإطلاق ، وذلك لأن المخ يكون حيثشذ في حالة نعاس ولا توجد الصدمة اللازمة والكبت العقلى . أما إذا أوجدت هذه الصدمة ( أى إذا أيقظت المخ ) فإن الإحساس بالتنافر يعود توكاً . ولو لم نحس بمثل هذه المصادفة أبداً لما عرفنا معنى التنافر أكثر من معرفتنا معنى الزرقة أو الاصفرار بغير عين .

وليس في قولنا هذا في الواقع ما يعنى أننا نفسر الأشياء تفسيراً فيسيولوجياً . حقاً إن معرفتنا بالمخ تسهل علينا تصور ما في إحساساتنا بالعلاقة من صفة مباشرة . غير أن الصفة المباشرة تظهر لنا بوضوح عن طريق الاستنباط الواعى . ولسنا بحاجة إلى التفكير فى العين أو الجلد لكى نشعر بأن الضوء والحرارة معطيات مطلقة . وبالمثل فإننا لسنا بحاجة إلى التفكير فى إثارات مخية لكى نتيين أن اليمين واليسار ، أو ما قبل

وما بعد أو الخير والشر ، أو الواحد والاثنين ، أو التشابه والاختلاف ، إنما هي جميعاً إحساسات لا يمكن تحليلها إلى ما هو أبسط منها . فالمقولات هي إحساسات لا تأتي عن طريق الحواس ، أو إنها إحساسات تأتي عن طريق حواس مجهولة . وكما أننا ما كان بمقدورنا التمييز بين إحساساتنا للون والصوت لو لم نكتشف الحواس التي تبدو أنها توصلها إلينا وتتحكم فيها كذلك ربما لن نستطيع أبداً أن نتفق على تصنيف إحساساتنا الباطنية إلا حينما نكتشف الحواس التي تصلنا هذه الإحساسات عن طريقها . إن علم السيكولوجيا كان دائماً فيسولوجياً دون أن يدري . ولكن بغض النظر عن أى تصورات فيزيقية ، ناهيك بأى ميتافيزيقا مادية ، فإن من الحقائق التي لا سبيل إلى التخلص منها أن كل حالة شعورية مهما كانت ظروفها التاريخية إنما توجد حينما توجد ، على نحو مباشر مطلق . ولربما كانت الأجزاء التي تتكون منها الحالة الشعورية والتي يمكن التمييز بينها تختفى بحيث إننا لا ندرکها فيها ، وإن طبيعة الحالة الشعورية كوجودها مجرد معطى من المعطيات الحسية .

وهكذا فاللذة التي تستمى إلى وعينا بالعلاقات إنما هي لذة مباشرة كغيرها من اللذات . حقاً إن وعينا العاطفى دائماً وعى موحد ، إلا أننا نعتبره كما لو كان نتيجة لمشاعر عدة بل ومتعارضة لأننا ننظر إليه نظرة تاريخية بقصد فهمه ، ونوزعه على عدد كبير من العوامل يحدده عدد ما نجد من الموضوعات أو العلل التي نعزوه إليها . إن لذة الترابط إحساس

مباشر نفسه عن طريق ربطه بإحساس في الماضي أو بالجهاز المخى الذى تعدله تجربة ماضية . ومثله فى ذلك مثل الذاكرة تماماً ، فالذاكرة التى نفسرها بالإشارة إلى الماضي هى تعقيد غريب للوعى الحاضر .

## ٥٠- أنواع القيمة فى الحد الثانى

وقد تقلل هذه الأفكار من غرابة هذه الحقيقة التى هى أغرب ما فى فلسفة التعبير : وهى أن القيمة الجديدة التى يكتسبها الشئ المعبر هى عادة من نوع يختلف الاختلاف كله عن نوع ما فيه هو من قيمة . إن تعبير اللذة الجسدية أو الانفعال أو الألم قد يؤلف جمالاً يسر المشاهد . وهكذا فقيمة الحد الثانى قد تكون جسدية أو عملية أو حتى سلبية ، وحينما تنتقل إلى الحد الأول تتحول مباشرة إلى قيمة إيجابية وجمالية . ولقد لاحظ الناس غالباً كيفية تحول القيم العملية إلى قيم جمالية مما دعاهم إلى اعتناق النظرية التى تقول إن الجمال هو المنفعة غير المباشرة فهو بشير باللذة ويحبوحة العيش كما تكون رائحة الطعام مباشرة بطعمه . وتحول القيم السلبية إلى قيم جمالية من الأمور التى استرعت انتباه الناس بدرجة أكبر وأدت إلى ظهور نظريات عدة عن الكوميديا والتراجيديا والجلال (The Sublime) فهذه الأنواع الثلاثة من الخير الجمالى تسرنا فيما يبدو عن طريق إيحائها بالشر . وهنا تطرأ مشكلة كيفية إدخال السعادة على العقل عن طريق إثارة إيهامات بالشقاء فيه ، ذلك الشقاء

الذى لا يمكن للعقل أن يتفهّمه بدون مشاركته فيه . وواجهنا الآن أن نتحول إلى تحليل هذه المشكلة .

إننا لا نكتشف القدرة التعبيرية للالتسامة من خلال ترابط الصور الحسية ولا شيء غير ذلك . إذ يتسم الطفل ( دون أن يدري ) حينما يشعر باللذة ، فتبتسم مربيته بدورها له . وعندئذ ترتبط لذته بسلوكها وتصبح ابتسامتها إذن معبرة عن اللذة . وأساس إيمانه الغريزي بأنها تلتذد بابتسامتها هو تلك اللذة التي يشعر هو بها حين تبتسم له . ولذلك فليست الظروف المعبرة عن السعادة هي تلك التي تتفق والسعادة في الحقيقة وإنما هي تلك التي تلائم السعادة في الفكر . فخضرة الربيع ونضارة الشباب وجدة الطفولة وأبهة الثروة والجمال كل هذه رموز للسعادة ، ولا يرجع ذلك إلى أننا نعرف عنها أنها تصاحب السعادة في الحقيقة ( لأن هذه الأشياء لا تصاحبها فعلاً أكثر مما تصاحبها نقائضها ) وإنما يرجع إلى أنها صورة وصدى للسعادة في نفوسنا من الوجهة الجمالية . ونحن ننسب السعادة إلى تلك الأشياء التي تسبب لنا رؤيتها أو التفكير فيها سعادة . وليس هناك أى أساس غير ذلك لإيماننا بسعادة الكائن الأعظم . فإن ما نجده من غبطة في فكرة العلم بكل شيء يجعلنا ننسب الغبطة إلى من تتحقق فيه هذه الفكرة ، بينما في الواقع لا يتضمن العلم بكل شيء في ذاته أية غبطة إن لم يكن يحول دونها .

ولا تكون للقدرة التعبيرية للأشكال قيمة من حيث هي دالة على الحياة التي تحمل فيها فعلاً إلا حينما تشبه هذه الأشكال الجسم البشرى .  
 فحينما نجد فى الأشكال الحية ما يشبه جسم الإنسان نفترض أن ذلك معناه وجود انفعالات فى هذه الأشكال تشبه انفعالاتنا ، وسرعان ما نتبين أنه لا يمكن أن تعبر عن اللذة أية هيئة جسمانية نعرف عنها من تجربتنا الجسمانية الشخصية أنها تصاحب الألم . إن الأطفال قد يعذبون الحيوانات ببراءة ، فليس لديهم إحساس كافٍ بالتشابه بحيث يكفون عن تعذيبها نتيجة للإحباءات المؤلمة عندما يرون الحيوانات تتلوى ألماً . وعلى الرغم من أننا سرعان ما نصحح هذه التأويلات الخاطئة الصارخة بخطئها ، تصحيحاً تقريبياً ، وذلك بأن نصنف خبراتنا على نحو أفضل ، إلا أننا نظل فى جوهرنا عرضة للخطأ نفسه . ولا نستطيع أن نتجنبه لأن المنهج الذى يتضمنه هو المنهج الوحيد الذى يبرر الإيمان بالوعى الموضوعى على الإطلاق . فالتشابه الجسمانى يساعدنا على توزيع وتصنيف الحياة التى نتصورها حولنا . غير أن الشيء الذى يجعلنا نتصورها هو الترابط المباشر بين شعورنا وصور الأشياء كما تقع للحس ، وهو الترابط الذى يسبق أى تصور واضح لحركاتنا ووقفاتنا نحن إزاء الأشياء . إننى أعلم أن الابتسامات معناها اللذة قبل أن أرى نفسى مبتسماً فى المرآة ، إنها تعنى اللذة لأنها تولد فى نفسى هذه اللذة .

ولما كانت هذه التأثيرات الجمالية تشمل بعض أنواع الجمال التى هى

من أعمق الأنواع وأكثرها قدرة على الإثارة فى النفس ، لذا أسرع الفلاسفة إلى تحويل ما فيها من مفارقات لم يتناولها التحليل ، إلى مبدأ عام يفسرون به وجود الشر وضرورته . وكما اعتقدوا أن عذاب البطل وما يتعرض له من أخطار فى الأعمال التراجيدية والجليلة يزيدان فيما يبدو من فضائل البطل وسمو روحه ومن ثم يزيدان من الغبطة المقدسة التى نحس بها حينما نتأمله ، كذلك اعتقدوا أن مختلف الشرور الجزئية فى الحياة إن هى إلا عناصر يتكون منها الجمال المفارق للكل . وقد ألهمت هذه الفكرة حماسة أولئك الذين رعموا أنهم يسرون تصرفات الله للإنسان ، فلم يقفوا بطبيعة الحال لیتساءلوا عما إذا كانت هذه الظاهرة التعليمية مجرد وهم وقعوا فيه لاندفاعهم . بل إنهم يحثرون أية محاولة ترمى إلى تفسيرها تفسيراً عقلياً ويعتبرونها محاولة تنزع إلى إخفاء أحد القوانين الخلقية للكون . ولذلك يجب علينا ألا نتوقع النجاح السهل حينما نحاول هنا مرة ثانية أن نفسر هذه الأمور تفسيراً عقلياً ، إذ لا يتعين علينا أن نجابه صعوبات هذه المشكلة الذاتية فحسب وإنما يلزمنا أن نواجه أيضاً أحكاماً شائعة مبتسرة ميتافيزيقية بما يداخلها من غرور .

ولكى نحقق قدرًا أكبر من الوضوح نستطيع أن نبدأ بتصنيف القيم التى يجوز أن تدخل التعبير . وحينئذ تكون لدينا قدرة أكبر على تحديد مجموعات القيم المتباينة التى تنتج التأثيرات والانفعالات المختلفة الشائعة . ونستطيع هنا أن نغفل كلية القيمة الذاتية للحد الأول لأنها

لا تلعب أى دور فى التعبير ، وإن كانت تزيد كثيراً من جمال الموضوع المعبّر . إن الحد الأول هو مصدر الإثارة ، وأما حدة الإثارة ولذاتها فهى التى تقرر إلى حد كبير طبيعة الارتباطات التى تثار ومجالها . وغالباً ما نجد أن التلذذ بمادة الأثر الفنى يعادل نفورنا من مضمونه ، وقد نعتفر بعض التعبيرات التى هى فى ذاتها قبيحة غير مناسبة من أجل الشئ الذى يثير هذه التعبيرات : فالصوت الجميل يغفر الأغنية المتذلة ، ويغفر اللون والنسيج الجميلان فى الصورة طريقة تركيبها التى لا معنى لها . إن جمال الحد الأول - جمال الصوت والنغم والصورة - يستطيع أن يخلع الصفة الشعرية على أى فكرة من الأفكار ، بينما لا يمكن لأية فكرة من الأفكار أن تصبح شعرية بدون أن يتحقق فيها جمال العرض المباشر (١) .

## ٥١- القيمة الجمالية فى الحد الثانى

من المفهوم جداً أن الارتباطات الجميلة بالموضوع تزيد هذا الموضوع جمالاً . وهو مبرور مثل جيد لذلك ، فهو يستخدم هذا التأثير طول

---

(١) من الغريب حقاً أن الاستعمال اللغوى الشائع هنا هو عكس استعمالنا ، وذلك لأنه ينظر إلى المادة من وجهة نظر عملية بدلاً من وجهة نظر جمالية ، ويعتبر الفكر (على نحو غير سيكولوجى على الإطلاق) هو مصدر الصورة ، وليست الصورة مصدر الفكر . فالتناس يسمون الألفاظ التعبير عن الأفكار ، فى حين أن الألفاظ بالنسبة للمشاهد والمتعم (وأحياناً للمتكلم ذاته) هى المعطيات والفكر هو قدرتها على التعبير ، أى أنه ما توحى به .



الوقت . ولسنا بحاجة إلى ذكرى مدى جمال الحد الأول عنده ، فشعره رائع ، وتتعاون فيه الأصوات والصور والتراكيب على الإثارة والمتعة . وهذا الجمال المباشر يستخدمه أحياناً لكي يغطي به المحزن المرعب من الأشياء : فهو ميروس مملوء بالعناصر التراجيدية . إلا أن شعره ينزع إلى ملء هوامش وعينا بجمهرة من صور لأشياء لا تقل جمالاً ونبلاً عن الشعر ذاته : فأبطاله رجال أفاضل ، ولا توجد أى شخصية هامة عنده تخلو من الفضيلة ، وجميع القصور والأسلحة والجياد والقرايين رائعة دائماً فى شعره ، والنساء جميعاً جميلاً نبيلاً ، وكل شخص عنده طيب المحتد ينحدر من أصل نبيل شريف ، والعالم الهوميرى بأسره نظيف صافٍ ، جميل ومبارك . وجزء كبير من جاذبية هذا الشاعر الخالدة يرجع إلى أنه يغمسنا فى جو من الجمال ، جمال غير مركز فى بعض العواطف غير العادية أو مقصور على بعض الفعال أو الأشخاص ، وإنما ينتشر فى الكل ويلون عالم الجنود والبحارة والحرب والفنون بأسره ، ويضفى عليه نكهة من الجدة الرائعة ويصبغه بالدفء الباطنى . ولا يوجد فى ارتباطات الحياة فى هذا العالم أو فى أى عالم سواه ما يناقض هذه المتعة أو يكدرها . فجميع ما فيه جميل يسوده الجمال .

وإننا لنجد شيئاً من هذه الصفة فى جميع الكتابات البسيطة وأناشيد الرعاة . ونجد مثلاً لذلك فى الرغبة الشائعة فى أن تنتهى القصص والكوميديات نهاية سعيدة : فلا بد للبطل والبطلة أن يكونا شابين

وجمليين ، ولا ينبغي لهما أن يصبحا فقيرين فى النهاية إذا قدر لهما البقاء ، أما إذا قدر لهما أن يموتا فهذا شأن آخر . ولا بد لمناظر المسرحية أن تكون جميلة ، وللملابس أن تكون جذابة ، ولعقدة المسرحية أن تخلو من الحوادث الكريهة . وإن أى تصوير عام للذة لا بد وأن ينشر على الكل جواً من الدفء والمثالية . ونجد نفس المبدأ فى خصائص الحياة الاجتماعية ، فنحن نحاول أن نجعل بيتنا وأسلوبنا وحديثنا توحى بما هو سار فقط ، ونخفى الجزء القبيح غير السار من حياتنا ، ولا نسمح بظهور أى شىء يوحى به فى مناسباتنا العامة المفرحة . وبالإجمال متى ما وجد أى تأثير يبعث على اللذة الكاملة فإنه يوجد عن طريق التعبيرات اللذيذة كما يوجد عن طريق عرض الشىء اللذيذ ، وعندما نود أن نولد هذا التأثير صناعياً فإننا نصل إليه عن طريق حذف كل تعبير يوحى بكل ما هو خير .

ولو كان وعينا جمالياً فحسب لأصبح هذا النوع من التعبير ، التعبير الوحيد المسموح به فى الفن كما يصبح هو وحده الذى نقدره فى الطبيعة ، ولاجتنبنا الإيحاء بأى شىء ليس فى ذاته جميلاً كما نتجنب الصدمات والأشياء المملة . وفى هذه الحال لن تكون لدينا قيم غير القيم الجمالية ولذلك لن نستطيع زيادة لذتنا بإضافة أشياء أخرى كاتمة ما كانت مما يثير اهتمامنا . ولكن لما كان التأمل فى الواقع ترقاً فى حياتنا ، ولما كانت الأشياء تهمننا أساساً لاعتبارات عاطفية وعملية فلإن تراكم القيم الجمالية

وحدها يولد فى أذهاننا شعورًا بالضيق والتكلف . فمثل هذا الغذاء المتفقى يجعلنا نمنج الطعام بعد حين ، وذوقنا الذى تعود الكثير من الملح والخل كل يوم لا يلبث أن يشبع من كل هذه الحلوى الخالصة .

ولذلك فنحن نؤثر أن نرى هذا العالم المتنوع الذى نعرفه جيد المعرفة - والذى أقل ما نقوله فيه أنه لا مندوحة لنا عنه ، وقد يكون عزيزًا علينا - أن نراه من خلال الفن - أى من خلال ذلك الحد الأول الجميل من حدى التعبير . ونحن نفضل عرض الواقع القبيح فى شكل جميل عن العرض الجميل للجمال المجرد ، فإن ما نفقده من صفاء اللذة هنا تعوضنا عنه قدرة الموضوع على إثارة اهتمامنا ، والراحة التى تعقب رؤيتنا من البعد الجمالى لتلك الأشياء التى تسيطر على أرواحنا بلا هوادة فى الحياة العملية . إن الجمال الذى يرتبط بجمال آخر هو إذن ضرب من التائق الجمالى ، فهو يقود الخيال فى عالم من الأشكال البديعة حتى يتحتم علينا أن ننسى الموضوعات العادية التى تثير اهتمامنا . ومع أننا لا نستطيع أن ننكر ما فى هذه المثالية من جاذبية إلا أنه لا يسعنا أن نتجاهل لوقت طويل تلك العناصر الهامة من الذاكرة والإرادة . ولا بد لأفكارنا عن العمل والطموح والشهوة والغضب والحيرة والأسى والموت أن تمتزج بتأملنا وأن تخلع تعبيراتها المختلفة على تلك الموضوعات التى ترتبط بها ارتباطًا وثيقًا فى تجربتنا . ومن ثم أصبح الجمال يتضمن قيمًا

من أنواع أخرى ، وأصبح من النادر نسبيًا أن نجد في الطبيعة أو الفن تعبيرات لا يحتوى الحد الثانى فيها إلا على قيمة جمالية صرفة .

## ٥٢- القيمة العملية فى الحد الثانى

وأهم من هذه التعبيرات الجمالية الصرفة ، وأكثر منها شيوعًا ، تلك التى تعبّر عن المنفعة . وهى توجد متى ما كان الحد الثانى يتألف من فكرة شىء ذى فائدة عملية لنا ، تسبب لنا من الرضا ما يجعلنا نرضى عن الموضوع الذى يعرض لنا . ويهتز وعينا لما فى هذه الفكرة من بشير بالنجاح ، وتتحوّل لذتنا إلى موضوع يتجسد فى الصورة الحاضرة لأن الصورة المترابطة التى يتّمسّ إليها الشعور بالرضا فى الواقع لا يتحقّق فيها الوضوح الكافى غالبًا . ولذلك فنحن لا نفهم على وجه التحديد طبيعة هذه الفائدة العملية ، إلا أن إحساسنا الغامض بوجود فائدة وبأن شيئًا ما محببًا إلى النفس قد حدث يصاحب العرض ويعطيه تعبيرًا .

ولعل أقرب الحالات إلى هذه الحالة التى نتحدث عنها هى تلك التى يتألف فيها الحد الثانى من بعض المعلومات الهامة أو من نظرية أو معطى فكرى . إن اهتمامنا بالحقائق والنظريات حينما لا يكون اهتمامًا جماليًا ، هو بلا شك اهتمام عملى ، اهتمام بعلاقتها بمصالحنا وبمدى الخدمة التى تستطيع أن تؤديها لنا فى تحقيق غاياتنا . والقيم الفكرية قيم منفعية فى مبدئها ، وإن كانت جمالية فى شكلها لأننا أحيانًا ننسى ما للمعرفة من

فائدة ونسقدر الأفكار لذاتها . وقد يصبح حب الاستطلاع عاطفة غير مفرضة تولد لذة مباشرة ، مثلها في ذلك مثل غيره من الدوافع .

فمثلاً حينما ننظر إلى خريطة جيدة تبين بوضوح خطوط الشاطئ بما فيه من أجزاء رملية وأجزاء صخرية ، وتبين انحناءات الأنهار وارتفاع الأرض وتوزيع السكان ، فإننا نحس في الوقت نفسه بإيحاءات لحقائق عديدة ، وبالسيطرة على جزء كبير من الواقع بحيث نتأمل هذه الخريطة بلذة ، ولا نحتاج إلى أى دافع عملي لكى نواصل دراستها لمدة طويلة قد تبلغ الساعات . ومع ذلك فالخريطة لا تعتبر عادة موضوعاً جمالياً ، لأنها لا تحقق فيها سوى الصفة التعبيرية ، ونحن نمر على الحد الأول سريعاً باعتباره مجرد رمز ، والذي يحدث فى أذهاننا هو أننا إما أن نتخيل المناظر الطبيعية التى توجد فى الحقيقة فى هذا البلد الموضح فى الخريطة وإما أن نفكر فى تاريخ البلد وسكانه . وهذه الظروف تحول دون تحويل ما نشعر به من لذة فى الخريطة ذاتها إلى موضوع تحويلاً مباشراً . إلا أنه إذا جعلنا ألوان الخريطة على شىء من الدقة ، وخطوطها على قدر من الرقة ، وأوجدنا بعض التوازن فى كتل البر والبحر فيها ، فإننا نحصل فى الواقع على موضوع جميل ، موضوع يتألف جاذبيته من مجرد معناه تقريباً ، وإن كان يسرنا على نحو ما تسرنا صورة أو رمز كتابى أو بيانى . فإذا كان لشكل الرمز وخطوطه وألوانه بعض القيمة الذاتية فإنه

يجتذب، كالمغناطيس .بجميع قيم الأشياء التى من المعروف أنه يرمز لها ،  
ويصبح الرمز جميلاً لقدرته التمييزية .

ولا تكاد تختلف عن هذا المثل حالة السفر أو القراءة . فإننا نجد  
فيهما لذات جمالية عديدة مصدرها إشباع حب الاستطلاع والعقل .  
وحينما تمتدح شيئاً جزئياً قائلين إنه يمثل نوعه خير تمثيل ، أو إنه يتضمن  
عصراً بأسره أو شحوصية بأكملها ، فإننا نلتذ لإحساسنا بأن هذا الشيء  
يوصلنا - على أنحاء لا حصر لها - إلى أشياء أخرى طريفة وهامة .  
وزيد جمال الشيء الذى يعبر عن هذه الأشياء كلما قلت قدرتنا على  
تمييزها على وجه التحديد ، لأننا لو تمكنا من تعيينها لتحللت القيمة التى  
تشعر بها واختفت ضمن تصورات الأشياء الموحى بها ، تاركة الشيء  
المعبر عطشاً من كل مواضع الاهتمام مثل الحروف المطبوعة على صفحة  
الكتاب .

وربما لم تجد حاشية الملك فيليب الثانى فى غرفه بقصر إسكوريال  
(Escorial) المنيّف ما يثير الاهتمام على نحو خاص ، وإنما من المحتمل  
أنهم اعتبروها مجرد غرف ضيقة قبيحة رطبة . وربما لم يجدوا فيها ذلك  
الطابع الخّاص الذى نمدحه والذى يجعلنا نعدّها معبرة أصدق التعبير عن  
التواحى الشريفة فى هذا الرجل . إنهم كانوا يعرفون هذا الملك وكانوا  
يتبينون شخصيته فى أشياء عدة مثل ألفاظه وحركاته وفعاله ، تلك  
الحقائق الحسية التى لا تتوافر فى تجرّبتنا نحن إزاءه . ولكن الإيحاء بهذه

الحقائق فى صورتها الغامضة هو الذى يملأ غرف هذا الملك بالتعبير الحاد فى نظرنا . ولا يختلف الأمر عن ذلك فى جميع الحالات التى تتميز بالقدرة الأكيدة على التعبير . مثل نسوء القمر ، وخنادق الحصون ، والمآذن ، وأشجار السرو ، وةوافل الجمال فى الصحراء . كل هذه الصور تستمد شخصيتها أو طابعها من جو العواطف والغامرات ، ذلك الجو الغامض الذى يلتصق بها . وميزة السفر ، والجاذبية الكبرى لجميع آثار الماضى المرتبة ، إنما تتألف من تحصيل صور تركز فيها كتلة من المعرفة النظرية لا يمكن الإحساس بوجودها مجتمعة بأية وسيلة أخرى . وهذه الصور رموز محسوسة للكثير من التجارب الكامنة ، وتضفى عليها جذور الترابط العميقة تلك القدرة على اجتذاب انتباهنا السبى توجاه فى شكل جميل أو مادة رائعة .

### ٥٣- الثمن من حيث هو عامل من عوامل التأثير

وهناك اعتبار غالباً ما يضيف الشيء الكثير إلى اهتمامنا بالأشياء التى نتأملها ، اعتبار نزع لما فىنا من فضيلة إلى حذفه من القيم الجمالية ، وهو اعتبار الثمن . إن الثمن هو قيمة عملية فى صورة مجردة ؛ ونحن غالباً ما نستطيع أن نستنبط من ثمن الشيء العلاقة بين هذا الشيء ورغبات الإنسان وجهوده . وليس هناك ما يمنع ثمن الشيء ، أو أيًا من الظروف التى هى أساس الثمن ، من أن يزيد من حدة الإحساس ، شأنه

فى ذلك شأن القيم العملية الأخرى ، ومن أن يضيف إلى اللذة التى نلجدها حينما نتأمل هذا الشيء . وهذا فى الواقع هو ما نلجده فى تجاربنا اليومية . فعلى الرغم من الجمال الحسى للجواهر فإن ندرتها وثمنها يضيفان إليها تعبيراً عن الفخامة ما كان بمقدورها أن تكتسبه لو كان ثمنها رخيصاً .

إن الشيء الذى غالباً ما يجعل تذوق الثمن غير جمالى هو تجريد هذه الصفة . فثمن الشيء رمز جبرى واصطلاح اخترع لتسهيل عملياتنا ، وإنه ليظل جافاً لا معنى له إذا ما وقفنا عنده وفاتنا أن نترجمه ثانية إلى مدلوله العينى فى نهاية الأمر . والعقلية التجارية تسكن فى هذه المنطقة المتوسطة التى تتألف من مجرد رموز القيم ، وهنالك تنطمس حواس الحاسب ، إذ يطمسها له عقله وما تعودته من التفكير المختصر . فالعمليات الذهنية عبارة عن عمليات حسابية عميت عن القيم الأصلية ، وتنتهى دون أن تصل إلى صورة عينية واحدة . وهكذا فمعرفة الثمن حينما يعبر عنها فى أسلوب المال لا تستطيع أن تضيف شيئاً إلى التأثير الجمالى ، إلا أن السبب فى ذلك ليس هو أن القيمة الموحى بها غير جمالية بقدر ما هو أنها لا توحى بأى قيمة حقيقية على الإطلاق . فالتعبير العددي لا يعوض أى موضوع أمام الذهن . أما إذا ترجمنا الثمن ثانية إلى تلك الحقائق التى يتألف منها فى الحقيقة ، أى إلى نوع المادة التى صنع منها الشيء والمكان الأصيل الذى جاءت منه وإلى المجهود



والفن اللذين حورا فيها بحيث أخذت شكل هذا الشيء الحالى ، فحيث نضيف إلى قيمة الشيء الجمالية عن طريق ذلك التعبير الذى نجده فيه ، تعبير الثمن البشرى لا الثمن المالى ، ونشعر بالقيم الحقيقية التى يمثلها هذا الثمن . وهذه القيم ، التى تظهر فى المخيلة على نحو عاطفى ، تزيد بدورها من اهتمامنا الحالى وإعجابنا بالشيء .

وأعتقد أن علماء الاقتصاد يعتبرون من ضمن العوامل التى تتألف منها قيمة الشيء ندرة المواد المصنوعة منها والجهد الذى بذل فى صنعه وبعد المكان الذى اجتلب منه . وهذه الصفات فى ذاتها تستهوى الخيال إلى حد بعيد . فنحن نهتم بالطبع بالشيء النادر ، فهو يثير فى نفوسنا إحساسات غير عادية . إن الشيء الذى يأتى من بلاد نائية إنما يبعث بأفكارنا إلى تلك البلاد ، وتزيد قيمته بارتباطاته الغريبة الغربية . والشيء الذى بذل فيه مجهود إنسانى ، ولا سيما إن كان هذا المجهود نتيجة الحب ، والذى يظهر عليه هذا المجهود إنما يثير فى نفوسنا إعجاباً لا يفوقه إعجاب . وهكذا فمعيار الثمن الذى هو أكثر المعايير ابتداءً لا يكون مبتدلاً إلا حينما يظل فارغاً مجرداً . أما إذا عدنا بأفكارنا إلى أصل هذا المعيار ، ونظرنا فى العناصر الحقيقية للقيمة ، فإن تذوقنا يصبح تذوقاً شعرياً حقيقياً وليس تذوقاً حرفياً تجارياً .

وفى هذا نجد مثلاً آخر لطبيعة الدور الذى تلعبه القيم العملية فى زيادة جمال الموضوع ، حينما يوحى بها ويتضمنها هذا الموضوع .

وإحساننا بظروف الموضوع الحاضر ، مهما كان قبح هذه الظروف ، إنما يضيف إلى اهتمامنا به وإلى حدة مشاعرنا إزاءه . لأن الموضوع حينئذ سيثير استطلاعنا ، وبالتالي يكتسب ما فيه من جمال ذاتى معنى جديداً وأهمية أخرى .

### ٥٤- التعبير عن الاقتصاد والصلاحية

ويفسر لنا نفس المبدأ تأثير النظافة والطمأنينة والاقتصاد والراحة . وفى الواقع لا يحتاج هذا الضرب من الجمال أو الجاذبية الذى يتميز به الهولنديون إلى تفسير ، فلإننا على وعى بما يسرنا فيه من نظام وتمدين . وليس هناك ما هو أكثر من المضیعة إقلاقاً للعقل ، فالمضیعة جوهر الحماسة أو لبها . ولذلك فمن أقبح المناظر المظاهر المرئية للمضیعة ، وعدم المضیعة يبعث على الطمأنينة فى النفس . ويرتفع رضانا عما فى الأشياء من صلاحية عملية ومن اقتصاد ، يرتفع هذا الرضا إلى مرتبة التدوق نصف الجمالى ، ويصبح هذا التدوق تدوقاً جمالياً كاملاً حينما يكون الشكل الصالح فى صورة ثابتة لنمط ألفنا صورته ، بحيث تسمو الضرورة العملية للشكل وتتحول إلى صلاحية جمالية .

وهذا المبدأ هو الذى يقوم عليه التعبير عن الوظيفة وعن الصدق فى الأعمال المعمارية . ذلك التعبير الذى يحظى بالكثير من الثناء . فالتصميم المفيد يحظى أولاً بموافقتنا العملية ، وبينما نحن نعجب بما فيه

من براعة وحسن تصرف لا نلبث أن نتعود بالتدرج وجوده ، ونتأمل باهتمام ولذة ما بين أجزائه من علاقات . وهكذا بالمنفعة أو الصلاحية كما بينا فى الجزء الخاص بها من هذا البحث هى المبدأ الذى يوجه تحديد الأشكال .

وتكرار ملاحظتنا لما فى النظام التقليدى للمباني وتناج الفنون الأخرى من منفعة واقتصاد وصلاحية يجعلنا نتوقع هذا الضرب من الأشكال على نحو أقوى ، ويجعلنا نرضى عنه حينما نجد . فنحن مثلاً نألف الأسطح المنحدرة ، فضرورة هذا النوع من الأسطح قد جعلتها من الأشياء التى ألفنا رؤيتها وكوننا قد ألفنا رؤيتها قد جعل منها موضوعات للدراسة والمتعة الجمالية . ولكن إذا ما طرأت لنا فكرة التكرار لها ، وتصورنا بدلاً منها قضباناً مفتوحة تكشف عن السماء ، فإننا نعود إلى هذه الصورة التى ألفناها بشئ من الحنين والعطف حينما نتذكر تلك الأشهر المطيرة الطويلة التى يسقط فيها الثلج ، والمتاعب التى قد تنشأ عن تسرب مياه المطر والتى تحول دونها الأسطح المنحدرة . وفكرة عدم الصلاحية العملية الواضحة هنا كقيلة بأن تنغص اللذة التى نجدتها فى أى شكل مهما كان جميلاً فى ذاته ، بينما يكفى إحساسنا بالصلاحية العملية لأن يحملنا على قبول الأشياء النافعة مهما بلغت من الغلظة والجلافة .

وليس هذا المبدأ فى السواقى مبدأ أساسياً ، وإنما هو مبدأ ثانوى ، فالتعبير عن الفائدة أو المنفعة يحور فى التأثير ولكنه لا يتكون منه التأثير

ذاته . ونحن نفكر تفكيراً متسرعاً خرافياً إن اعتقدنا أن كل ما هو مفيد واقتصادي يتحول بالضرورة وبمعجزة من المعجزات إلى شيء جميل . فقد تتطلب العادات والمصالح في أحد الأماكن أعمالاً جميلة في ذاتها ، أو يتيسر تحقيق الجمال فيها ، في حين تجعل من المستحيل إنتاج هذه الأعمال في مكان آخر . إن للجمال مادة وقواعد شكلية سبق أن درسناها ، ولا تستطيع صلاحية النظام مهما كانت أن تجعل البناء الذي يتألف من عشرة طوابق متساوية جميلاً جمال الإيوان أو البرج الذي يتحقق فيه التناسق على نحو بديع ، ولا يمكن للمنفعة أن تضيء على مركب البخار جمالاً يعادل جمال المراكب الشراعية . غير أنه متى ما ثبتت الأشكال بطابعها الذاتي المميز فإن معرفتنا بوجود الصلاحية فيها تضيء عليها جاذبية إضافية على حين أن علمنا بعدم صلاحيتها يسبب لنا بعض القلق ويظل يتردد على أفكارنا كما تتردد الذنوب على الضمير الآثم . فموضع الاهتمام الجمالي هنا تمتزج به مواضع الاهتمام الأخرى في حياتنا إما لتكسبه غزارة وغنى وإما لتفسد من لذته .

وإذا كان اسم « سيباريس » (Sybaris) <sup>(١)</sup> له دائماً رنين حزين في ذاكرتنا - ومن منا لا يوجد عنده سيباريس خاصة به ؟ - وإذا كانت صورة هذه المدينة تسبب لنا الأسى ولا تلبث أن تبعث على الاشمئزاز في

---

(١) مدينة يونانية قديمة ذاع صيتها لرخائها وغناها ، وعرف عن أهلها بذخهم ولعهم بالترف وانغماسهم في الملذات . ( المترجم )

نفوسنا فى النهاية ، فلا يرجع ذلك إلى أننا لم نعد نفكر فيما كان فيها من مرمز براق وناقورات باردة ورياضيين أقوياء وورود عطرية ، وإنما يرجع إلى أن كل هذه الضروب من الجمال يمتزج بها فى كل مكان شحيح نماميس ، آلهة النقمة ، وإحساس بالإرادة الخاوية والقسوة الانتحارية . وهذه الحالة الخلقية التى لا تطاق تسمم الجمال الذى لا نزال نحس بوجوده . ولو لم يوجد هذا الجمال ولو لم يكن مرغوبًا فيه لاختفت المأساة ولضاعت قيمة الضحية التى صب عليها الرب جام غضبه . وصرامة القوى الخلقية هى بالضبط فى كونها تفرض علينا تضحيات حقيقية : فتحن نظل نعتقد طول الوقت أن ما يتحتم علينا أن نتحاشاه إنما هو شئ له قيمته .

وقد تعودنا تصور السلوك الحكيم على أنه تجنب الأشياء الدنيئة المنحطة فقط ، ناسين أن المنفعة والحاجة إلى النظام فى حياتنا تمنعان المرء من أن يخلق بروحه بحرية . إن أسمى الغرائز ، مثلها فى ذلك مثل أدائها ، تنزع إلى الفوضى لأن النظام والمنفعة هما الشيطان اللذان تؤكد الأخلاق أهميتهما فى كل مكان ، بينما القدسية والعبقرية ، مثل الرذيلة ، تتصفان بالثورية . وإن مطالب القلب والبطن الدائمة لا تسمح للمرء أن ينغمس فى لذات العين والعقل إلا من وقت إلى آخر . ولهذا السبب تلاحظ المنفعة الجمال عن كثب مخافة أن يعتدى الجمال فى ثورته وجماحه على الحاجات العملية والسعادة الكلية . وحينما يكون الضمير

مرهفًا لا تظهر ملاحظة الخيال العملى للخيال النظرى فى صورة الرقابة الخارجية غير المباشرة ، وإنما يكفى أدنى شك فى وجود ترف أو مضیعة أو تلوث أو قسوة لأن يدق ناقوس الخطر والشورة . ويصبح مصدر هذا الذوق المارق Sapor haereticus مخيفًا منذ البداية بحيث أنه يستحيل على المرء اكتشاف أى جمال فيه . وفى هذه الحالة يؤدى الضمير إلى كبت الخواس والخيال .

ولهذا السبب نجد أن أولئك الذين تغلب عليهم الحساسية الخلقية تستهويهم النظرية التى تقول إن الجمال فى جوهره ليس إلا التعبير عن الخير الخلقى أو العملى . ولا يرجع ذلك إلى أنهم يودون لو كان الأمر حقيقة كذلك ، ولكن لأن هذه النظرية تصف إلى حد بعيد ما يجربونه فى أذهانهم التى انحرفت فى هذه الناحية . وقضلاً عن ذلك نلاحظ أن الأخلاقيين ينزعون إلى انتقاد آثار الفنون أكثر من تذوقهم لها . فذوقهم حساس وإن كان غير مرهف ، لأن المبدأ الذى يحكمون طبقاً له إنما هو فى الحقيقة مبدأ الغاية منه السيطرة على الآثار الجمالية وتوسيع نطاقها ، فهو مصدر من مصادر التعبير وضروب دقيقة من اللذة ؛ ولكنه غريب على القيم الجمالية الأكثر قوة ويدائية والتى هم نسبياً عاجزون عن رؤيتها .

## ٥٥- سلطان الأخلاق على الجمال

إن مقدار ما يجب علينا أن نضحى به من الخير الجمالى مسألة خلقية بالطبع . فوظيفة العقل العملى هى مقارنة مصالحنا أو اهتماماتنا والتوفيق بينها بقصد الوصول إلى أقصى ما يمكن للطبيعة البشرية أن تصل إليه من السعادة . ولذلك فلا بد أن نتوقع أن تقيد الفضيلة من انفعالاتنا جميعاً على السواء ، ولا يرجع ذلك إلى أنها تعادى أيّاً من هذه الانفعالات على نحو خرافى ، وإنما يرجع إلى أنها تهتم بها جميعاً . ولذلك فإن مقدار ما للذاتنا الجمالية من اعتبار يعتمد على مدى تأثيرها على سعادتنا . ولما كان هذا التأثير يختلف باختلاف العصور والبلاد وباختلاف الأفراد فلا بد إذن أن تتفاوت درجة الأهمية التى تعطى للمطالب الجمالية فى تنظيم حياتنا .

فقد نفضل نوعاً من المخلوقات على غيره طبقاً لمشاعرنا الشخصية ، وقد نحب المزاج المادى أو الملائكى أو السياسى . وقد نلذ كثيراً حين نجد فى غيرنا ذلك التوازن بين الميول والمشاعر الحماسية الذى نشعر به فى نفوسنا . إلا أنه لا يستطيع أى قانون خلقى أن يطلب من أى نوع أو فرد أن يغير من طبيعته بحيث يشبه نوعاً أو فرداً آخر ، لأن مثل هذا الطلب لن يكون له سلطان على أولئك الذين نود أن نفرضه عليهم . وكل ما تنادى به الأخلاق لا يعدو تحقق الانسجام الباطنى فى كل حياة . وإذا كنا لا نزال نثقت فكرة كائن ممكن يستطيع أن يكون سعيداً بدون الحب أو

المعرفة أو الجمال فإن ما نحس به من نفور من هذه الفكرة إنما هو إحساس غريزي وليس إحساساً خلقياً ، هو إحساس إنساني بحت وليس إحساساً مستنداً إلى عقل . فليس الذى ينفردنا هو عدم تحقق الكمال فى ذلك المخلوق وإنما هو غياب وجه الشبه بينه وبيننا . ولو استطعنا أن نستعرض الكون بأسره لأمكننا أن نضفى على كل نوع من الأنواع مكانة خلقية تنفق وما فيه من خير عام وغنى باطنى . ولكن هذا المعيار المطلق ليس فى متناولنا ، هذا إن كان موجوداً على الإطلاق . ولذلك فنحن مضطرون إلى الحكم عما فى طبيعة كل شىء من كمال بالنسبة لمعاييرنا الإنسانية .

إلا أن كل هذه المسائل تنتمى إلى ميدان الأخلاق ، وما كنا لنشير إليها ولو إشارة عابرة لو لم يكن للأفكار الخلقية تأثيرها على أحكامنا الجمالية . إن إحساسنا بالمصلحة العملية لا يحدد القيمة الخلقية للجمال فحسب بل يحدد وجودها ذاته من حيث هى خير جمالى . ولهذه الاعتبارات شأنها فى « الاختيار » السليم للتأثيرات بنوع خاص . فالأشكال التى فى ذاتها تبعث على اللذة تتحول إلى نقيضها حينما تتعارض تعارضاً حاداً مع المصالح العملية فى الشعور . وهكذا فالغلو فى الفصاحة فى وثيقة دبلوماسية أو فى خطاب إلى صديق أو فى الصلاة لا يعيب الإحساس العملى فحسب وإنما هو عيب فى الذوق أيضاً . فالتناسب هنا تهيئتنا لتوقع إحساس من لون خاص بحيث إنه لا تصبح لدينا القدرة على الاستجابة إلى مؤثرات أخرى .



وحيثما تعرض لنا مسائل غاية فى الخطورة فإننا لا نستطيع عندئذ أن نقف ونتلاعب بالرموز ولغة المجاز . ولا نستطيع أن نهتم بها اهتماماً تصاحبه المتعة ، ولذلك فهى تفقد الجمال الذى كان من الممكن أن تحتفظ به فى حالات أخرى . ولا تصبح هذه الأشياء فى ذاتها باعثة على الضيق ، لأنه ليس ثمة شىء قبيح فى ذاته ، وإنما تصبح كذلك نتيجة لكوننا فى هذه اللحظة نتوقع شيئاً مخالفاً لها . فالسجن الذى يسوده ما فى السوق من جو مرح ، أو الكنيسة التى يسودها صمت السجن ، شىء تضيق به نفوسنا ؛ لأن صفته الجمالية لا تؤكد الانفعال الخلقى الذى يكون لدينا حينما نتأمله . فلا بد للفنون أن تدرس المناسبات التى تلائمها ، فينبغى لها أن تقف جانباً فى تواضع حتى تحين الفرصة التى تمكنها من أن تتسلل إلى فجوات الحياة لتلمس لها مكاناً صالحاً . ذلك لأن الفنون كما رأينا ، تزدهر على طبقة سطحية من الحياة ، ولا تتوغل جذورها إلى أعماقها . فلا تظهر الفنون إلا بعد أن ينتهى عمل الحياة الجدى ، وبعد أن تخف حدة الفزع فى الحياة ، فهى مناشط إضافية غير ثابتة ، تمارس فيها ما لدينا من حرية . ولذلك فالفنون مثل النباتات الطفيلية يتحتم عليها أن تكيف أشكالها حسب النباتات الأخرى الأكثر قوة وصموداً ، والتي تتركز عليها وتتسلقها .

وفى هذه النقطة بالذات تتضح لنا أكبر صعوبات الفن وأدق شىء فيه ، إذ يتحتم على الفن ألا يبدع أشياء جميلة جمالاً مجرداً فحسب ،

وإنما عليه أن يستميل اهتمام العالم إلى هذه الأشياء وغيرها مما يتسابق معها فى الجمال ، وعليه أن يعرف كيف يبيث جاذبيته بين موضوعات العاطفة الإنسانية . إلا أن خضوع الفن هذا وما يفرضه على نفسه من تواضع لا يخلو من المزايا والثمار الطيبة . فلتن كانت العادة الجمالية تخضع لضرورة احترام عواطفنا ومراعاتها ، إلا أن لها مزية التخفيف من آلامنا . فما من موقف إنسانى يبلغ ما فيه من الرعب حدًا يستحيل معه تخفيفه عن طريق توقف الذهن برهة لكى يتأمله تأملًا جماليًا .

وعلى هذا النحو لا يصبح الحزن ذاته مجرد ألم ، وإنما يضاف إليه بعض العذوبة عن طريق التأمل . وقد تفقد أشد المناظر حزنًا مرارتها حينما تكتسب جمالاً . وهذه الخدمة التى تؤديها آلهة الفنون هى التى تخلع عليها ورعها ، إن جار هذا التعبير ، إذ تهب لتقديم العون إلى أمها الحياة وترد إليها جميل رعايتها عن طريق السلوى التى تنشأ عن وجودها معها فى معظم الأحيان . إن العالم الجمالى محدود المجال ، فعليه أن يخضع لسيطرة العقل المنظم وواجبه ألا يعتدى على المناطق الأكثر فائدة وقدسية . فيتعين للحديقة ألا تعتدى على حقول القمح ، ومع ذلك فقد نستطيع عين البستانى أن تحول حقول القمح ذاتها عن طريق ملاحظته العطوفة إلى حديقة من نوع أكثر وقارًا . فحينما تستطيع الحاسة الجمالية أن تكشف عن وجه العظمة فى مصائبنا وعن الجانب الطروب فى

بلايانا ، فإنها بذلك تخفف من وطأتها وتعزينا عن استحالة وجود جمال كامل جدى معظم الوقت .

## ٥٦- القيم السلبية فى الحد الثانى

وهكذا فجميع الموضوعات ، حتى تلك التى نبعث على النفور ، يصبح من الممكن تأملها بشىء من حب الاستطلاع ومعالجتها معالجه فنية ، حينما تبررها ظروف الحياة أمامنا . فإثارة هذه الوظائف الجمالية تخفف من حدة العنف فى استجابتنا العاطفية . فلو لم يوجد الموت مثلاً ، ولو لم يفرض نفسه على أفكارنا بالباح مؤلم ، لما لجأنا إلى الفن لكى نخفف من وطأته ونضفى عليه جلالاً عن طريق تصويره فى أشكال جميلة وإحاطته بارتباطات تدعو إلى السلوى والعزاء . إن الفن لا يبحث عن الموضوعات التراجيدية أو العاطفية أو المتناقضة ، وإنما الحياة ذاتها هى التى فرضت هذه الأشياء على انتباهنا واستعانت بالفن لخدمتها حتى يصبح تأمل هذه الأشياء ، مادامت محتومة علينا ، أمراً محتملاً على الأقل بأكبر قدر ممكن .

وهكذا ، فجاذبية العرض تمتزج بما فى الشىء المعروض من فظاعة ، ونتيجة ذلك أنه بينما تثير الحقيقة شجننا فإن الوسيلة التى توصلها إلينا تبعث النشوة فى نفوسنا وأن المزج بين هذين الضربين من العواطف لهو الذى تتألف منه تلك النكهة الخاصة وذلك الطعم اللاذع المعين للذنان

تتسم بهما قدرة الشيء على إثارة الشجن . ولكننا نخلط بين الأمور ونفترض أن الجمال يعتمد فى قيمته الجمالية على الموضوعات والمشاعر غير الجميلة لأن هذه الموضوعات غالباً ما تكون إما مألوفة بحيث لا نأبه لها وإما خطيرة جداً بحيث تستأثر بالفكر وتستبعد من الذهن كل ما عداها . بينما الحقيقة هى أن هذه التجارب الشريرة لا يمكن أن يبعث تأملها على اللذة إلا حينما تضاف إليها ضروب إيجابية من الجمال .

فحقيقة الأمر هى الا تناقض ( كما يفترض الناس أحياناً ) فى الفن التراجيدى أو الكوميدي ، أو فيما هو جليل . فلننا نسر بهذه الأشياء لما توحى إلينا به من شرور ، ولكننا نسر بها على الرغم من هذه الشرور . وحينما تتضاءل جاذبية العرض الجميل ، أو حينما يبرز الشر المصور بروكاً من شأنه أن ترجح كفة الألم ، ففى هذه اللحظة ذاتها يتحول الموضوع برمته من موضوع جميل إلى موضوع مرعب ، ويخرج عن نطاق الفن ، ولا يمكن تبريره حينئذ إلا على أساس فوائده العلمية أو الخلقية . ولكنه يتداعى تماماً من حيث هو قيمة جمالية ، ولا يعود حسنة من الحسنات ؛ وإذا لم يتق الناس شر مؤلفه بأن يهملوه اهمالاً سرعان ما يحق به كان لا بد من معاقبته باعتباره رجلاً شريكاً يضيف إلى أعباء الحياة الفانية . ذلك لأن الموضوعات المحزنة والمضحكة والبشعة والفظيعة تظل شروراً خلقية ما لم تصبح ضرورياً من الخير الجمالى .

وهكذا يتحتم علينا أن ندرس التعويضات المختلفة الجمالية والفكرية والخلقية التي عن طريقها يمكن للعقل أن يتأمل في لذة موضوعاً كان من شأنه أن يسبب ألماً لو صادفته التجربة قائماً وحده . حقاً إن هناك وسيلة لتجنب مثل هذه الدراسة . فنستطيع أن نقول إنه لما كانت جميع الإثارات المعتدلة تبعث على اللذة فلا غرابة أن نسر لتصوير الشر . فالتجربة لاتصبح شرّاً إلا لما تسببه من ألم ، ولكنها لا تسبب لنا الألم إلا حينما نحس بها إحساساً حاداً . أما إذا نظرنا إليها من بعيد فإنها تصبح تأثيراً ساراً ، لأنها في هذه الحال تكون بارزة بحيث تثير اهتمامنا ، وفي الوقت عينه لا تكون حادة إلى درجة تجرح معها مشاعرنا . فهذا التفسير البسيط مقبول في تلك الحالات كلها التي نصل فيها إلى الأثر الجمالي بكتب المشاعر الوجدانية في أنفسنا .

إن لفظة « شر » غالباً ما تكون مجرد صفة اصطلاحية ، فنستطيع أن نسمى الحريق شرّاً لأنها عادة تتضمن الخسارة والألم . ولكن إذا حدث أننا لم نكن نهتم بالخسارة والألم لأننا لا نشارك فيهما واستمتعنا بالسنة اللهب ، ثم لبثنا نزعم أن ما يمتعنا هو الشر ، كنا عندئذ نستخدم لفظة الشر باعتبارها مجرد اصطلاح ، ولا نقصد بها أن تكون رمزاً لقيمة نحس بها . فإننا لا نسر بالشر وإنما نسر بالإحساس الواضح المثير ، وهذا في ذاته خير وإن كان الموضوع الذي يسببه حادثة قد تكون شرّاً بالنسبة للآخرين ، حادثة لا نفكر نحن أبداً في نتائجها . وبهذا المعنى نقول إنه

ربما لا يوجد شيء فى الطبيعة بأسرها يخلو من الشر ، أى لا يوجد شيء يخلو من الإضرار بمصلحة من المصالح ، ولا يتضمن المأ خفياً أو المأ ينتهى إليه الأمر فى عالم الأحياء .

ولكن هذا الشر يصبح فى نظرنا كأنه لم يكن ، وذلك فى حالة جهلنا به أو عدم تفكيرنا فيه . فليست ملذات الشرب والترييض أموراً تراجيدية بالنسبة إلينا لأننا قد نقتل فى أثناء استمتاعنا بها بعض الجراثيم أو نسحق بعض الديدان تحت وطأة أقدامنا . مثل هذه الفعال قد تصبح فى نظر العقل العليم بكل شيء فعلاً تراجيدية لما يجده ذلك العقل من دوافع متضاربة فى علاقاتها ، غير أنه لن ينشأ أى إحساس بالمأساة إلا حينما توجد هذه الدوافع معاً فى نفس العقل . فالطفل الذى يتأمل من البر سفينة تغرق ، دون أن يفهم ما ينطوى عليه ذلك المنظر من كارثة ، لن يجرب إلا إحساساً بسيطاً باللذة كما لو كان يتأمل لعبة من اللعب . والكثير مما يوصف بأنه اهتمام تراجيدى ليس أكثر من مجرد هذا الإحساس غالباً . ولو فهم الطفل مغزى الحادث دون أن يكون لديه أى قدر من المشاركة الوجدانية فحينئذ يجرب إحساساً جمالياً يشبه إحساس الطاغية الذى لا تمتعه فكرة الآلام حوله من الاستمتاع بالموسيقى ، وإذا كان مزاجه قاسياً عن قصد فقد يضيف إلى متعته الجمالية لذة رؤية آلام الغير (Schadenfreude) . أما ما فى المنظر من رعب وقدرة على إثارة الشجن فلا يراهما إلا من يدرك ويشارك فى الآلام التى يراها .

ولقد تحمل الناس الكثير من التراجيديات التى تدور حول آلام فظيعة متطرفة لأن ما فى تصوير هذه الآلام من فجاجة ، وما لدى الجمهور من بلادة فى الذوق ، أو لأن هذين الشئيين معاً لم يسمحا بظهور استجابة مبنية على المشاركة الوجدانية الحقيقية ، فنحن نبتمس جميعاً حينما نرى « بانش » (Punch) يضرب « چودى » (Judy) على مسرح العرائس . إن طريقة العرض ، لا الموضوع ، هى التى تتألف منها التراجيديا . فإن نحن قلدنا موضوع « هاملت » أو « الملك لير » تقليداً تهكمياً فلن ننتج بذلك تراجيديا بل إن هاتين المسرحيتين ليستا « تراجيديتين » فى كل جزء من أجزائهما ، وإنما تهكم كل منهما فى بعض الأحيان على ذاتها إن جار التعبير وذلك عن طريق ما تحويه من نكات وفطنة وهراء . فحينما نتناول موضوعاً « تراجيدياً » تناولاً قائماً على التهكم والسخرية والمبالغة المضحكة فإننا نحول هذا الموضوع إلى موضوع مسلٍّ للجمهور ، فلن يحس الجمهور بتلك الأشجان التى سعينا قاصدين إلى أن نحول بينهم وبين التأثر بها عن طريق إثارة إحساسات مضادة فى نفوسهم . وقد يثير العمل الذى يسمى عملاً فنياً مشاعر غير جمالية أيضاً عن طريق ما فيه من تحزب سياسى أو حيوانية أو فحش وبذاءة . ولكن إذا كان العمل الفنى يستهدف إثارة انفعالات الشجن الحقيقية فلا بد من تحريك ما فى المشاهد من قدرة على المشاركة الوجدانية ، إذ لابد من إثارة الانفعال الذى يصفه العمل فى نفسه . ويجب ألا تكون حدة الإحساس ضئيلة بحيث

لا يشعر المشاهد بصفة الألم فيه ، لأن هذا الإحساس بالألم هو ذاته الذى، حينما يمتزج بالإثارة الجمالية للمنظر ، يضىفى على المنظر لونا تراجيديا أو صفة الشجن (Pathetic) .

لذلك لا نستطيع أن نقنع بالرأى الذى يقول إن الإثارة تكون مصدر لذة حينما تقل درجتها عن حد معين ومصدر كدر حينما تزيد عن ذلك ، لأن هذا المبدأ لا يعبر عن جوهر المسألة : فنحن يتحتم علينا أن نحس بالشر بوصفه شرًا ، وأن نستغرق إلى حد ما فى تجربة الشخص المتألم ، وإذن فيلزمنا أن نتألم نحن أنفسنا حتى نشعر بجوهر الانفعال التراجيدى . ولا بد لهذا الانفعال إذن أن يكون انفعالا مركبا ، لا بد له أن يتضمن عنصرا من الألم يقابله عنصر أكبر من اللذة . ولا بد أن يوجد فى متعتنا لمسة مميزة من الانكماش والأسف . فإن هذا الصراع والتمزق فى إرادتنا ، وهذا الانجذاب الشغوف بما هو فى جوهره مرعب أو محزن ، هو الذى يخلع على مشاعرنا الكدرة هذه عمقها وحدتها .

### ٥٧- تأثير الحد الأول فى التعبير اللذيذ عن الشر

ويمكننا أن نجد دليلا بارزا على الطبيعة المركبة للأثار التراجيدية فى هذه التجربة البسيطة الآتية : حاول أن تستبعد من أى مسرحية ، ولتكن مسرحية عطيل ، كل ما فى وسيلة عرضها من جاذبية ، واستبق من المأساة فقط مجرد تقرير لفظى لوقائع القصة على نحو ما نجد فى الصحف



كل يوم تقريباً . إذا فعلت ذلك وجدت أن كل ما فى المسرحية من العظمة التراجيدية والجمال قد فقد تقريباً . ولا يبقى إلا مثل يأس اللبلاهة الإنسانية ، قد يشير رغبة الاستطلاع ولكنه سيدنس بدلاً من أن يظهر العقل الذى يتأمله . لقد قال أحد الشعراء الفرنسيين :

« ليس من شجن مبتذل إلا شجن الروح المبتذلة » .

وإن نقيض هذه الحكمة لا يقل صدقاً عنها . فليس من أسى نبيل إلا فى الذهن النبيل ، لأن النبل هو فى الاستجابة إلى هذا الألم ، وفى الموقف الذى يأخذه الإنسان فى حضرته ، وفى اللغة التى يعبر بها عنه ، وفى الارتباطات التى يحيطه بها ، وفى العواطف والدوافع الرقيقة التى تشع من خلاله . ولا نستطيع أن نرتفع بالمصيبة إلى مستوى التراجيديا ، وأن نؤثر تذكر حياتنا على نسيانها ، إلا إذا نشرنا على التجربة الشريفة هذا الضوء الخلقى كما يصنع الشاعر الذى يحمل فى نفسه هذا الضوء .

وهناك حالات وإن تكن نادرة يشرف فيها الناس إبان العاطفة ذاتها ، وذلك حينما لا تكون العاطفة متروكاً حبلها على غاربها بل يكون العقل قد أمسك بزمامها ، وتكون الحقيقة قد هددهتها ، فحينئذ تكون التجربة ذاتها هى التراجيديا ، ولا نكون بحاجة إلى شاعر يعرضها فيكسبها بعرضه جمالاً ، وذلك لأن المكابد فى هذه الحالة يكون هو ذاته فناً شكلاً ما قد كاسبه . ولكن هاتين المرحلتين غالباً ما تعقب إحداهما

الأخرى : فنحن أولاً نقاسى وبعدئذ نسغنى ، ولا بد من مضي فترة من الزمن حتى يصبح من الممكن تصوير الانفعال وإخضاعه لذلك الشكل الذى لا يصبح جميلاً بدونه .

وهذا الشكل يستهويننا فى ذاته ، ويدون معونته لا يمكن لأى موضوع أن يصبح شيئاً جمالياً . وكلما رادت التجربة الموصوفة رعباً راد الفن الذى يتعين له أن يحولها إلى جمال قوة . ولذلك فالنثر والتعبير الحرفى يسهل تحملهما فى الكوميديا أكثر مما يسهل تحملهما فى التراجيديا ، أما العاطفة المشبوبة والألم العنيف فيتحتم التعبير عنهما فى أكثر الأساليب سموًا ، وإلا فإنهما يجعلاننا نستعيد بالذاكرة درسًا إيضاحيًا نكون قد مررنا به فى علم الباثولوجيا ، كما نستعيد ما كنا قد شممناه عندئذ من رائحة المخدر . فبدلاً من التعبير اللفظى لمجد الوزن والقوافى والموسيقى والإشارات غير المتوقعة والخيالات الشاطحة ، لأن هذه الأشياء تمكن العقل الذى تهزه أعمق الموسيقى الكونية من أن يتحمل ويستوعب أعلى النغمات التى لا يمكن احتمالها فى سياق أقل غنى .

ولا غنى عن الموسيقى الحسية للألفاظ ثم لا غنى بصفة أخص عن تأثير الإيقاع ، حينما يبلغ الانفعال هذه الدرجة العالية . ويقول لنا علماء التطور إن الانفعال القوى يعبر عن نفسه على نحو طبيعى فى الإيقاع الموزون . ولكننا لا نحسب هذه الدعوى مستتلة إلى المشاهدة التجريبية ؛

كلا ولا نظن أن القوة التعبيرية للإيقاعات يمكن أن تكون من التحدّد بحيث تستطيع أن تحمل معها ارتباطات معينة مما يتصل بالمشاعر المركّبة . إلا أن توقّف الصوت والحركة واندفاعهما ، لهما في ذاتهما تأثير قوى ، ولا يمكننا أن نجرّبهما دون أن تستثار انفعالاتنا العميقة . وهذه الإثارة ، مثلها مثل الموسيقى العسكرية ، تكسبنا الشجاعة ، وتحدّث فينا ما يشبه نشوة السكر فتجرّفنا بين مناظر قد تبعث بدونها على غشيان النفس . والتأثير الحقيق لوصف العذاب في لغة حرفيّة مفكّكة سواء في الكتابة أو في التمثيل إنّما يثبت مدى ضرورة الصفة الموسيقية للتراجيديا ، وهذه حقيقة بينها أرسطو قديماً . إن ما يضيفه إيقاع الوزن ، حتى ولو كان هذا الوزن من البحر السكندري<sup>(١)</sup> الطنان ، ليسمو بالعاطفة ويوضح تمّاتها فيجعل منها شعراً . فلا مندوحة للفن من هذه الرحابة والمعقولة ، لأن الفن ليس مجرد مهارة وإنّما هو مهارة تخدم الجمال .

### ٥٨- مزج ضروب التعبير الأخرى بما في ذلك التعبير عن الحقيقة

ولابد أن نضيف إلى قيمة هذه العناصر الحسية والشكلية الإيحاء بالأشياء الجميلة السعيدة إيحاء موصولاً ، تلك الأشياء التي لا تطرحها

---

(١) وزن خاص من بحر الأيامب يتألف من اثني عشر مقطعاً أو ست أقدام ، ولذلك فهو يتميز بالطول . ( المترجم )

مأساة مهما بلغت من الأسى . وحتى لو لم نذهب إلى حد أن نجعل المشاهد والعبارة الكوميديّة تتخلل الموضوعات المثيرة للشجن ( وهى حيلة فجة لأن العبارات الكوميديّة ذاتها تحتاج إلى ذلك التطهير الذى قصد بها أن تحققه ) فينبغى على الأقل أن نخفف من حدة الموضوع التراجيدى عن طريق الارتباطات السارة . ولذلك ترانا تتخير القصور لمشاهدنا ونجعل أبطالنا من العلية ذوى الجمال والفضيلة ، كما نجعل عواطفهم ومصائرهم موسومة بالنبل . وترانا على وجه الإجمال نضفى على الحياة لونا من البهاء ، الذى لولاه لفقدت المأساة عمقها وشجنها على السواء - إذ هى تفقد هذا العمق وهذا الشجن حين لا تنهيا الفرصة لتلك الأشياء النفيسة أن تهوى أمام أبصارنا - وكذلك لولا ذلك البهاء لفقدت المأساة شيئا من لطافة سحرها ، لأنه يلفت الأنظار إلى هذه الأشياء النفيسة .

وفى الحقيقة أن من المفاتن الرئيسية للتراجيديات إحياءها بما كان من الممكن أن تكونه لو لم تكن تراجيديات . فالسعادة التى تشع خلالها والآمال والحب والطموح التى تتألف منها التراجيديات ، كل هذه الأشياء نفتن أفئدتنا وتحظى بعطفنا ، حتى لنزداد رغبة فى أن نشارك الأبطال عذابهم حتى ولو ارددنا عندئذ إحساسا بالأمهم . ولهذا السبب ترانا ننفر من أية شخصية شريرة توغل فى شرها أو من أى موقف يغلو فى الكف عما يخفف حدته . لأننا فى هذه الحالة لا نجد من التعبير عن الخير ما يكفى لأن يجعلنا نحتمل التعبير عن الشر .

وهناك حالة غريبة تشذ عن هذه القاعدة ، وإن كانت توضح على نحو بارز المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه القاعدة . وهذه الحالة هى عندما يصور الفنان لنا شروراً شتى أو ضرورياً مختلفة من الشر بحيث أن الذهن لا يستطيع أن يستحوذ عليه شر واحد . فهناك مشهد فى مسرحية « الملك لير » يهيمن فيه ما فى العاصفة من رعب على عذاب أربعة أشخاص : الملك ومضحك الملك وادجار فى شخصيته الحقيقية وفى شخصية المجنون . فالتصوير الواضح لعذاب كل من هذه الشخصيات بما يثيره فى النفس من شجن ذى طابع مميز ، يمكن العقل من أن يظل متحرراً منفصلاً عما يراه ويجبره على المقارنة والتأمل ، وبذلك يصبح المشهد فى نظره ذا مدلول كلى عام . وحتى هنا فإن الأثر الجميل الذى يخلقه الشاعر لا يخلو من بعض اللمسات الخيرة . فمن الأشياء التى تساعد كثيراً على إيجاد هذا الأثر ما فى المضحك من ولاء صامت ، ونبل مشاعر الملك لير حينما يتساءل : « أتشعر بالبرد ؟ إن جزءاً من نفسى لا يزال فى مقدوره أن يأسف لك » .

إلا أن كل هذه التعويضات ربما لم يكن لها أى تأثير لو لم توجد تلك الصفة التى تتحقق فى معظم الأشياء المفرطة فى الحزن ، وهى تعويض الصدق . إن طبيعتنا العملية والفكرية تهتم اهتماماً عميقاً بالحقيقة . ولذلك فإن كل ما يصف الواقع يستهوننا ، لأنه يثير فينا اهتماماً ضرورياً لطبيعتنا . فنحن دائماً نتوق إلى معرفة الحقيقة مهما كان

لها من طعم لا يستساغ . ويرجع ذلك إلى حد ما إلى أن التجربة قد علمتنا جدوى هذا الضرب من الشجاعة الفكرية ، إلا أن السبب الأساسى فى ذلك هو أن الشعور بالجهل والفزع من المجهول يسببان لنا عذاباً لا يضاويه عذاب الاكتشاف مهما كان هذا الاكتشاف . فإننا بغريزة أولية نحدق النظر فى أى شىء يطرا على مؤخرة حقل الرؤية المعتم ، وتزداد سرعة انتباهنا إلى هذا الشىء وبإمعاننا البصر فيه بزيادة الخطر الذى يهددنا به .

وهذا التعطش المادى إلى الرؤية له امتداده الفكرى . فنحن نشتهى الحقيقة ونجد فى الوصول إليها وسط الصعاب العارضة رضا وسعادة كبرى . وتصوير الشر يوفر لنا هذه السعادة . فنحن نسعى بنهم إلى معرفة هذه الحقيقة سواء كنا نستمع إلى وصف لحادثة شخصية أو ننصت إلى عرض رمزى للتراجيديا الكامنة فى الحياة . وتجمعنا الرغبة فى معرفة الحقيقة نرحب بشغف بأى شىء يصل إلينا تحت اسمها . حقاً إن هذا النوع من التخفيف الذى يوجد فى المعرفة لا يكون فى ذاته لذة جمالية ، فما زالت هناك شروط الجمال الأخرى التى يجب توافرها . إلا أن إشباع هذه الغريزة العقلية الهامة يضمن لنا اهتمامنا بالموضوع التراجيدى عن رضا ، ويدعم من تأثير ما فيه من جمال علينا . فهنا نجد قيمة فكرية على أهبة للتحويل إلى قيمة جمالية متى ما ضاع منها طابعها الاستدلالى وانتشرت حول الموضوع بحيث تضى عليه إحساساً بالمعنى والسمو .

ويجب أن نضيف إلى ذلك اللذة الخاصة بالتعرف على الأشياء ،  
وهي إحدى اللذات الحادة التي نعرفها ، كما نضيف إليه أيضاً اللذة  
العاطفية التي نجدها في تأمل أحزاننا الشخصية وفي السمو بها عن طريق  
تحويلها إلى تلك الأحزان السامية التي تعرض أمامنا . وهنا نجد الحقيقة  
على نطاق ضيق ، أى التطابق بين الحوادث الخيالية والحوادث التي مررنا  
بها في تجربتنا الشخصية . وهذه المطابقة هي أساس تذوق العامة للأعمال  
التافهة التي لم يتم نضجها والتي تخاطب مرحلة عابرة من الحياة أو  
الشعور وتختفى باختفائها . إذ تقتصر قيمة هذه الأعمال على كونها  
منبهات أو مشيرات شخصية ، فلا تصل إلى مستوى الجمال . وهي في  
ذاتها غالباً ما تكون قبيحة بقدر ما تفوح بالارتباطات الشخصية ، مثلها  
في ذلك مثل مذكرات حب قديم أو ذكريات مباهج الموسم الماضي .  
ولكن على الرغم من أن مجرد التاريخ أو الاعترافات لا يمكن أن تصبح  
عملاً فنياً أبداً فإن العمل الفني الذي يستند إلى بعض العوامل التاريخية ،  
سواء أكان ذلك بمعنى حرفي أم رمزي ، يكتسب هذه القدرة على إثارة  
اهتمامنا الواضح بالحقيقة . وإن كثيراً من التراجيديات والهزليات التي قد  
تبدو لمن تعوره خبرة هذه الحياة مجرد خيال شاطح يثير الاشمئزاز قد  
يغتنر لها هذا الشخص بل وقد يفضلها على غيرها حينما يكشف أنها  
تصوير لجزء حقيقي من الحياة .

وهكذا ، فالحقيقة ، أو الصدق ، هى الشيء الذى يسوغ وجود القبح . وكثير من الناس الذين غلب عليهم البحث عن الحقيقة والإغراق فى العاطفة بحيث لم يترك لهم مجالاً لتطوير إحساسهم بالجمال يبحثون فى الفن عن هذا التعبير عن الوقائع أو العاطفة بدلاً من أن يبحثوا عن الكشف عن الجمال . وهكذا فهم ينتجون أعمالاً لا قيمة لها فى ذاتها كما يعجبون بهذا النوع من الأعمال ، وهم يستخدمون طرق الفنون الجميلة دون أن يعتبروا العناصر التى تولد أثراً ساراً فى النفس . وهم يخاطبون الاهتمام الأولى aprior الذى من المتوقع أن يكون لدى الناس بالموضوعات أو بالنظريات أو المعانى الخلقية التى يتضمنها عرض الموضوعات . وبدلاً من أن يستخدموا وسائل الإغراء فى الفن بقصد إثارة الحكمة تجدهم يطالبوننا بتذوق الحكمة حتى تتمكن من أن نحتمل عدم توافر الفن فى أعمالهم .

ولا شك أن وسائل الفنون ملك شائع ، وكل امرئ حر فى استخدامها لأغراض جديدة . ولو قدر لهذه الوسائل أن تستخدم الآن فى تسجيل الأفكار العلمية والاعترافات الشخصية فإن ذلك يصبح تطوراً طريفاً فى حضارتنا . ولكن المحاولة لم تحرر أى نجاح حتى الآن ، وليس من المحتمل أن تنجح فى المستقبل . فهناك وسائل أخرى لعرض الحقيقة أكثر بساطة ووضوحاً وإرضاء من الوسائل الفنية . وإن من يدرس التاريخ أو الفلسفة دراسة جدية حقاً لن يقنع أبداً بنسوة الشعر الغامضة الجزئية ،



ناهيك بالإيحاءات الصامتة التي تتميز بها الفنون التشكيلية . إنه سيقتصد مباشرة المبادئ التي يعجز الفن عن التعبير عنها وإن كان يمكنه أن يتضمنها ، ومتى ما بلغ هذه المبادئ فإنه سينسى الأعمال الفنية إذا لم تكن لها قيمة فى نظره أكثر من مجرد الإيحاء بهذه المبادئ . وستحل المبادئ محل الأشكال ، كما حلت الحروف الأبجدية محل الهيروغليفية .

أما إذا كان الاهتمام الأساسى هو بالجمال حقاً ، وكان الخلط الذى هو وليد ثورة خلقية هو الذى أدى إلى انطماش رؤية المثل الأعلى للحين ، فحيثشذ عندما يستعيد العقل سيطرته على العالم ويهضم تجربته الجديدة سيتحرر الخيال من جديد وسيبدع أشكاله عن طريق انسجامه الباطنى تاركاً ذلك العبء الثقيل من الحقائق الأثرية والسيكولوجية والخلقية لأولئك الذين ليست وظيفتهم أن يعيشوا على اللذة . إلا أن ذلك السيل الجارف الفجائى من العلم والعاطفة الذى سبب هذا الخلط الشديد فى عقلية القرن التاسع عشر عن طريق تكديس المعلومات وتحطيم مثلنا العليا ومدركاتنا المتوارثة ، ذلك السيل الجارف قد أدى إلى تطوير الإحساس بقيمة التعبير وحده ، حتى إن الناس كادوا يوحدون بين هذا الإحساس وبين الجمال . ولعل هذه المبالغة وحدها كفيلة بأن تبرهن على أن التعبير عن الحقيقة قد يدخل فى تفاعل القوى الجمالية ويخلق على تصوير الأشياء قيمة لولاها لأصبحت هذه الأشياء تدعو إلى النفور والاشمئزاز .

## ٥٩- تحرر الذات

لقد عالجنا حتى الآن عناصر التصوير الذى يستثير الشجن Pathetic وهى العناصر التى قد تخفف من حدة الانفعال الذى نحس به عن طريق المشاركة الوجدانية بحيث تجعل منه انفعالاً ساراً . وتتألف هذه العناصر من عوامل الجمال الجوهرية التى توجد فى وسيلة التصوير وبما يصحب التصوير من مظاهر الخير بأنواعه المختلفة ولا سيما مظهر الحقيقة منها . وربما كان المزيج من كل هذه القيم هو كل ما نجده فى الأعمال التى تبعث على الشجن بقدر معتدل ، والتى نحس فيها بنوع من التوازن والتعويض بين الانفعالات المتضاربة . فيمتزج فيها الحزن والجمال ، اليأس والسلوى ، وتتحد جميعاً بحيث تصبح ضرباً من البهجة لها وقعها فى النفس حقاً وإن كانت بهجة سلبية أكثر مما ينبغى ، لا تعبر عن الحالات النفسية التراجيدية التى لها رنين حاد وطابع أكثر سمواً .

وتفسير ذلك يمكن تخمينه مما يلى : أن القدرة على إثارة الشجن Pathetic صفة فى الموضوع الذى هو فى الوقت نفسه موضوع حزين ومحبوب ، صفة نقبلها ونسمح لها بالسريان فى روحنا ، ولكن البطولة Heroic موقف إرادى يصمت أصوات العالم الخارجى ، وطاقة خلقية تنبع من الباطن نجعلها تنتصر على هذه الأصوات . وإذا لم نتمكن إذن عن طريق تحليل الموضوع من اكتشاف أى صفة فيه تجعله موضوعاً جليلاً سامياً فيجب علينا ألا نعجب لذلك . بل يلزمنا أن نتذكر أن الموضوع

دائمًا ليس إلا جزءاً من وعينا ، جزءاً يتحقق فيه من التماسك والوضوح ما يكفى لتعرفنا عليه كجزء دائم نبرزه إلى العالم الخارجى . ولكن الوعى يظل دائماً كلاً واحداً على الرغم من تنوعات محتوياته ، وليس الموضوع مستقلاً فى الحقيقة ، وإنما هو فى علاقة دائمة مع بقية العقل الذى يسبح فى وسطه كما تسبح الفقاعة على سطح الماء الداكن .

ويرجع التأثير الجمالى للموضوعات دائماً إلى القيمة الانفعالية الكلية للوعى الذى توجد فيه . ونحن لا نعزو هذه القيمة الجمالية إلى الموضوع إلا عن طريق الإسقاط أو الإبراز إلى العالم الخارجى الذى هو أساس موضوعية الجمال الظاهرة . وقد تكون هذه القيمة أحياناً كامنة فى العملية التى عن طريقها ندرك الموضوع ، وحيثئذ يتكون لدينا الجمال الحسى والشكلى . وفى أحيان أخرى قد ترجع القيمة إلى بداية تكون أفكار أو تصورات أخرى يثيرها إدراك هذا الموضوع ، وحيثئذ يتكون لدينا جمال التعبير . إلا أنه من بين الأفكار التى ترتبط بكل موضوع توجد فكرة أكثر من غيرها شمولاً وغموضاً وقوة ، ألا وهى فكرة الذات ولن نستطيع أن نحصر الدوافع والمبادئ والطاقات التى نقصدها بهذه اللفظة . حقاً إن هذه الدوافع والمبادئ والطاقات لا يوجد حد فاصل بينها ، وإنما هى يتلاشى بعضها فى البعض الآخر دائماً ، وكون الذات شيئاً معيناً ، أو كل شىء ، أو لا شىء ، يعتمد على تلك الناحية منها التى نشبها أمامنا لفترة وجيزة ، ولا سيما على الموضوع المحدد الذى نقابل بينها وبينه .

وإن ميزة الجمال الجوهري أنه يركب دوافع الذات المتباينة ويوحدها ويركزها بحيث يعلقها على صورة واحدة وبذلك ينتشر السلام في هذه المملكة المضطربة . وإن أساس المتعة الجمالية والمدلولات الصوفية للجمال هو في تجربة لحظات الانسجام هذه . إلا أن هناك طريقتين للوصول إلى هذا الانسجام دائماً : أولاهما توحيد جميع العناصر المعطاة ، والثانية هي طرد واستبعاد جميع العناصر التي ترفض التوحيد . والوحدة عن طريق الجمع والشمول هي التي تعطينا الجمال The beautiful ، أما الوحدة عن طريق الاستبعاد والمعارضة والعزل فهي التي تعطينا الجلال The sublime وكتاهما لذة بلا شك ، ولكن لذة الجمال لذة دافئة سلبية عامة بينما لذة الجلال لذة باردة حادة طاغية . واللذة الأولى توحد بيننا وبين العالم على حين أن اللذة الثانية تسمو بنا على العالم .

ولا يتعذر علينا أن نفهم كيف أن التعبير عن الشر في الموضوع قد يصبح أحياناً مناسبة تولد في الروح استجابة البطولة . ففي المكان الأول نجد أنه في هذه الحال يمكن الإحساس بالشر ، بينما شعورنا بأن هذا الشر على الرغم من كونه عظيمًا في ذاته لا يستطيع أن يمسنا قد يوقظ فينا بدرجة غير عادية وعينا بسلامتنا . وهذا هو الجلال الذي يصفه لوكريشوس بأنه « عذب » في تلك الأبيات الشهيرة التي يحلله فيها تحليلًا صادقًا . إننا لا نسر لأن شخصًا غيرنا هو الذي يتألم نتيجة للشر وإنما نسر لأننا في الوقت الذي ندرك فيه الشر على أنه شر ندرك أيضًا أننا في

مأمن منه . ولناخذ مثلاً يوضح هذا المبدأ كثيراً . إن رؤية مركب يغرق من البر لا تتركنا جامدين تماماً وإنما تحرك مشاعرنا : فنحن نتألم بل ونساعد إن كان في مقدورنا المساعدة . وكذلك لا بد أن يحزن الفيلسوف منظر العالم الذى يحيد عما يراه صواباً ، بل إنه يود لو تمكن من أن ينزل من مدينة حكمته وعالم تأملاته ليعلم الناس كيف يعيشون . إلا أن هذه الفعال التى تقوم على المشاركة الوجدانية سرعان ما يشلها اليأس من النجاح ، وإن استحالة الفعل لشروط من الشروط الأساسية للجلال . فلو تمكنا من أن نعد النجوم لما بكينا أمامها ، ومادنا نعتقد أن فى مقدورنا تغيير « دراما » التاريخ وتغيير « دراما » حياتنا فإنه لا يصيبنا أى فزع من مصيرنا . ولكن حينما يكون الشر حتمياً وحينما تكون حياتنا قد عشناها فإن الروح القسوية هى التى يكون فى مقدورها أن تقف بجلال كالمسفرج كما لو كانت تنتمى إلى عالم آخر لتستعرض الأحداث والتقلبات فى هذا العالم .

وكلما كانت التراجيديا التى يستطيع الإنسان أن يستعرضها بهدوء وثيقة الصلة بذاته ازداد هذا الهدوء جلالاً ، وازدادت قدسية النشوة التى تصحب احتفازه بهذا الهدوء . إذ كلما زادت قدرتنا على نزع ثياب الحياة العارضة عن ذواتنا زادت الروح التى تسبقى بعد ذلك بساطة وظهرت عارية ، سامية موحدة وبالتالى كانت النشوة التى تجربها خالصة . ذلك

لأنه لا يكاد يتبقى في نفوسنا إلا ذلك الجوهر الفكرى الذى نعتة كثير  
من كبار الفلاسفة بالخلود والقدسية .

وقد يعيننا هذا المثل الوحيد على تشبيث هذه المبادئ فى الذهن .  
حينما يكتشف عطيل غلظته القاتلة ويقرر أن يقضى على حياته يتوقف  
عن التأوه برهة ليخاطب سفراء البندقية بهذه الألفاظ :

« اذكرونى بحقيقتى : فلا ترفقوا بى ولا تسيئوا إلىّ فى وصفكم .  
وحينما تروون قصتى كما هى ينبغي لكم أن تصفوا حال رجل عاشق لم  
يعشق بتعقل وإنما جاوز الحد فى حبه . رجل لا تسهل إثارة غيرته ، إلا  
أنه متى ما تمكنت منه الغيرة اضطربت نفسه إلى أبعد حد . رجل يشبه  
ذلك الهنذى الغفل الذى ضيعت يده لؤلؤة نفيسة تفوق قبيلته بأسرها  
قدرًا وثمنًا . رجل ليس من شيمته البكاء ، ولكنه ذرف دموعًا غزيرًا  
كما تنضج الأشجار صمغها الشافى فى جزيرة العرب . اذكروا عنى  
هذه الأشياء ، واذكروا أيضًا اننى كنت ذات مرة فى حلب ورأيت رجلاً  
تركياً شريكاً معممًا يضرب أحد أهالى البندقية ويهين الدولة ، فأمسكت  
بعتق ذلك الكلب المختون وضربته .. هكذا » .

هناك من النقاد من لا يعتقد أن هذه الإشارات ولغة المجاز والتأملات  
الشاردة تعبر تعبيراً طبيعياً عن حالة شخص عزم على الانتحار . فقد كان  
يجب على هذا الرجل كما يقولون أن يلفظ ببعض العبارات المفككة ، ثم  
يمضى مباشرة إلى قتل نفسه دون هذا العجيج اللفظى واللغة الخطائية

المتفخخة ، كما يفعل الأزواج الغيورون الذين نقرأ عنهم فى الصحف اليومية . ولكن تقاليد المسرح التراجيدى أصلح للصدق السيكولوجى من تقاليد الحياة الواقعية . فنحن إن صدقنا الخيال ( ومعيار الصلاحية كما رأينا هو فى الخيال ) فهذا هو الإحساس الذى يحتمل أن يكون عظيم قد أحس به . ولو حدث أنه لم يعبر عنه لما كان ذلك لعدم تحقق هذه الأفكار المعقدة وهذه الفصاحة التى وضعها الشاعر على لسانه ، وإنما كان السبب فى ذلك وجود عقبات خارجية تحول دون التعبير عنه . فالمعاطفة الصاخبة بطبيعتها تتسم بالتعقيد والفصاحة . فالحب يجعل منا شعراء ، واقتراب الموت يجب أن يجعل منا فلاسفة . فحينما يعلم المرء أن حياته قد انتهت فإنه يستطيع أن يستعرضها من وجهة نظر كلية عامة . فلم يعد لديه ما يعيش من أجله ، ولكن إذا ظل عقله محتفظاً بطاقته فإنه لا يزال يرغب فى الحياة . ولما كان مفصوماً عن طموحه الشخصى فإنه سيعزرو إلى ذاته ضرباً من الخلود المشترك وذلك عن طريق التوحيد بين ذاته وبين ما هو أبدى . إنه يتحدث عن ذاته كما هو ، أو بالأحرى ، كما كان . فهو يلخص ذاته ويشير إلى ما قام بفعله فى حياته . إنه يقول : هكذا كنت ، وهكذا فعلت .

وهذه النظرة الشاملة غير المتحيزة ، وهذه العملية التى نركب فيها التجربة ونحولها إلى موضوع ، يتألف منهما تحرير الروح وجوهر الجلال . وكون البطل يصل إلى هذه التجربة فى النهاية يعزينا كما يعزبه

على مصائبه الكريهة ؛ فتظهر مشاعر الشفقة والخوف أو الرعب فى نفوسنا حقًا ، ونترك المسرحية ونحن نعرف أنه مهما كانت الشبكة التى شعرنا بوقوعنا فيها من التعقيد فإن هناك تحركاً بعدها وسلاماً فى نهاية الأمر .

### ٦٠- الجلال أمر مستقل عن التعبير عن الشر

إن العلاقة بين التصور الواضح للشور الكبرى وبين تأكيد الروح لذاتها الذى يولد انفعال الجلال علاقة طبيعية حتى إننا غالباً ما نظن أن الجلال يعتمد على ذلك الخوف أو الرعب الذى تولده هذه الشور المتصورة . حقاً لا بد لهذا الرعب ، على هذا الافتراض ، أن يكبت وسيطر عليه ، وإلا أصبحت لدينا عاطفة حادة جداً بحيث يتعذر تجسيدها فى موضوع خارجى ، وفى هذه الحال لا يظهر الجلال صفة جمالية فى الأشياء وإنما يظل مجرد حالة عاطفية فى الذات . غير أن هذا الرعب المسيطر عليه والذى يتحول إلى موضوع هو ما يعتبره معظم الناس جوهر الجلال . ويبدو أن أرسطو ذاته يؤيد هذا التعريف للجلال . ولكننا نجد هنا خلطاً بين العلة العادية للجلال والجلال ذاته . إن الإيحاء بالرعب يجعلنا ننكمش فى ذواتنا ، ثم لا نلبث أن نشعر بأننا فى أمان أو أن لا شئ سيؤثر فىنا فيولد هذا فىنا حركة عكسية فنشعر بالانفصال والتحرر وهو الشعور الذى يتألف منه الجلال فى الحقيقة .



إن الأفكار والفعال هي وحدها التي تتصف بالجلال ، أما الأشياء المرئية فلا تصبح جليلة إلا عن طريق التمثيل والإيحاء حينما تولد في النفس انفعالاً خلقياً معيناً ، في حين أن الجمال يتنى إلى الأشياء المرئية وحدها ولا يمكن نسبه إلى الحقائق الخلقية إلا عن طريق المجاز . فالذى نحوله إلى موضوع فى الجمال هو إحساس ، بينما فى حالة الجلال نجد أن الفعل هو الذى نحوله إلى موضوع . ولا بد أن يكون هذا الفعل ساراً وإلا لكان الجلال صفة سيئة لا نود أن نقابلها فى العالم . إن النشوة السامية التى تصاحب تأكيد الذات أمام عالم لا يمكن السيطرة عليه هى لذة عميقة تامة بحيث إنها توفر لنا عنصر القيمة السامى الذى كنا نبحث عنه حينما حاولنا أن نفهم كيف يعبر عن الألم على اللذة أحياناً . حقاً إن هذا التعبير يمكن أن يكون ساراً وليس ذلك لأنه سار فى ذاته وإنما لأنه توازنه وتلغيه لذات إيجابية ، ولا سيما لذة الابتعاد والتسامى النهائية هذه . وإذا كان التعبير عن الشر ضرورياً للجلال فإنه ضرورى فقط باعتباره شرطاً لهذه الاستجابة الخلقية .

إن انتباهنا عادة تستغرقه الأشياء أكثر مما ينبغى ، ولا نركز أنفسنا على ذواتنا وإرادتنا الجوهرية بالقدر الكافى ، فلا نرى ما فى المناظر السارة من جلال . لذلك تدعوننا وتغرينا عوامل كثيرة بأن نبني علاقة بيننا وبين هذه الموضوعات الخارجية الحيرة ، وأقصى ما تبلغ إليه سعادتنا هو فى فهم هذه الموضوعات والاستمتاع بها على نحو كامل . وهذه هى وظيفة

الفن والحب ، وعلامة تحقيق هذه الوظيفة إلى حد ما هي إدراكنا للجمال . ولكن حينما يعترض شيء سيئنا ونحن نحاول أن نصل إلى الفهم والوحدة ، وحينما نقابل شراً جسيماً أو قوة معادية لا يمكن التوفيق بينها ، حينئذ نضطر إلى البحث عن السعادة من الطريق الأقصر البطولي . وحينئذ ندرك أن الذي يعترض طريقنا أشياء غريبة علينا إلى درجة تدعو إلى اليأس ، فتوطد عزمنا ونحفز قوانا لمواجهتها . وهكذا نحس لأول مرة بإمكان انفصالنا عن عالمنا ، وبشباتنا المجرد . ومع هذا الإحساس يخلق الجلال .

ومع أن تجربة الشر هي الوسيلة العادية للوصول إلى هذا الموقف العقلي ، ومع أننا عادة لا نصبح فلاسفة إلا بعد أن نياس من السعادة الغريزية ، فليس هناك ما يجعل الوصول إلى تجربة الانفصال هذه عن طريق وسائل أخرى عملاً مستحيلاً . فالشيء ذو الحجم الهائل لا يقل جلالاً عن الشيء المرعب . ومجرد لا نهائية الموضوعية ، مثلها مثل طبيعته العدائية ، يمكن أن تولد نفس الأثر في أن تجعل العقل ينطوى على ذاته . فاللانهاية مثلها مثل العداوة تبعدنا عن الأشياء وتجعلنا نشعر باستقلالنا . ورؤية أشياء عديدة في الوقت نفسه والإحساس بأشياء لا حصر لها تجذبنا معاً ، تولد توارثاً وعدم تأثر لا يقل عن التوارن الذي يولده استبعاد هذه الأشياء جميعاً . وإذا كنا نستطيع أن نطلق على تحرر الذات عن طريق الوعي بالشر اسم الجلال الرواقى فنستطيع أيضاً أن نقرر

أن هناك جلالاً أبيقورياً ، يتألف من التحرر عن طريق التوازن . وعلى هذا النحو يصبح كل استعراض لمساحة واسعة جليلاً . فمع أن التفاصيل الدقيقة قد تكون جميلة ، ومع أننا قد نستجيب استجابة عاطفية إلى كل منها ، ونعتقد أننا نشتهي كل نوع من أنواع اللذة ، ونترج إلى كل ضرب من ضروب الحياة النشيطة التلقائية إلا أننا متى ما تكشفنا لنا فجأة أعداد لا متناهية من مثل هذه التفاصيل واللذات نجد أن الإرادة يصيبها الشلل في الحال ، وأن الصدر يكاد يخنق . فليس من الممكن أن نشتهي كل شيء في الوقت نفسه ، وحينما يقدم إلينا كل شيء نوافق عليه يستحيل أن نختار كل شيء . وفي هذه الحالة من الحيرة والتردد يسمو العقل إلى آفاق عليا في حالة صافية من الخير لا يشوبها أى انفعال .

وهذا هو الموقف الذي تأخذه كل العقول التي خلعت عليها اهتماماتها الواسعة والسنون الطويلة اتزاناً وسمواً . والطابع الكهنوتي للمسنين مصدره هذه المشاركة الوجدانية الهادئة الخالصة من التحيز . فالرجال الكهول المتعجلون الذين تملوهم العاطفة والانفعالات النائرة بيدون لنا حمقى لأننا ندرك أن تجاربهم لم تخلف أثراً في أذهانهم يكفى لأن يجعلهم ينظرون إلى الموضوعات التي تعرض أمامهم في الحاضر نظرة تكيفها ذكرياتهم لما رأوه في الماضي من موضوعات أخرى . ولا نستطيع أن نبجل رجلاً لا ينفصل عنده التذوق والتقييم من الرغبة أو الشهوة . ولا يلزم أن يأتي هذا السمو وهذا الانفصال نتيجة لحياة أمل كبرى ، وإنما

يكون فى أبداع صوره وأعذبها حينما يكون ثمرة تدريجية لكثير من العواطف والمحبّة امتزجت وتلطفت واتخذت شكل التقوى الطبيعية . وفى الواقع أننا لا نستطيع أن نصوغ فكرتنا عن الله على أى منوال غير هذا المتوال .

فحينما يحاول الذين يؤمنون بوحدة الوجود أن يتصوروا جميع أجزاء الطبيعة على أنها تكون كلاً واحداً يحتويها جميعاً ، وفى الوقت عينه يظل محتفظاً بالوحدة المطلقة ، فإنهم سرعان ما يجدون أنفسهم ينكرون وجود العالم الذى يحاولون تأليهه ؛ فلسكى تتحول الطبيعة إلى تلك الوحدة التى يتصورها عقل عليم بكل شىء لا تغفل الطبيعة كما هى ، وإنما تصبح شيئاً بسيطاً مستحيلاً هو نقيض العالم الحقيقى تماماً . وهذا التناقض يتضمن تحرر العقل الإلهى من الطبيعة ووجوده ذاتاً واعية بنفسها . إن محاولة الوصول إلى نظرة شاملة تحيل الأشياء إلى وحدة ، ولكن هذه الوحدة تعارض الظواهر الكثيرة التى تتعدها والتى ترفضها باعتبارها لا تحتوى وجوداً حقيقياً .

وهذا الهدم للطبيعة، الذى غالباً ما كرره الميتافيزيقيون منذ بارمنيدس ( وإن كانت الطبيعة ما زالت ماثلة رغم ذلك ) إنما هو المقابل النظرى والأقنومى لما يحدث فى ضمير كل رجل حينما تسمو به تجربته الشاملة إلى مستوى الفكر والتجريد . إن الإحساس بالجلال إحساس صوفى فى جوهره وهو السمو على الإدراك المميز من أجل الوحدة والحجم . وهكذا

ففى الميدان الخلقى نجد أن العواطف والانفعالات يلغى بعضها بعضاً فى صدر الرجل الواحد الذى يشملها جميعاً ، بحيث تهدأ جميعاً فى نهاية الأمر تحت تأثير النظرة العامة التى تشملها . وهذه هى الوسيلة الأيقورية لتحقيق الانفصال والكمال ؛ فهى تؤدى عن طريق القبول المنهجي للغريزة إلى نفس الهدف الذى يصل إليه الرواقى والرجل الزاهد عن طريق الرفض المنهجي للغريزة . وهكذا يصبح من الممكن أن يصل الإنسان إلى تحرر الذات الذى يتألف منه الجلال حتى عندما لا يشتمل الموضوع على أى تعبير عن الشر .

وتؤيد هذه النتيجة ذلك الجزء من تعريفنا للجمال الذى يقول إن القيم التى يحتويها جميعاً قيم إيجابية . وكان ينبغى لنا أن نغير من هذا التعريف لو تبين لنا أن الجلال يعتمد فى تأثيره على الإيحاء بالشر . ولكن الجلال ليس هو القبح كما قد نعتقد حينما نقرأ بعض أوصاف هذا الجلال ، إن الجلال هو أقصى درجات الجمال التى يوجد فيها الجمال نشوة فى النفس . إنه لذة التأمل حينما تصل إلى درجة من الحدة تبدأ عندها فى فقدان موضوعيتها ، بحيث يتضح أنها ، كما هى فى جوهرها دائماً ، عاطفة باطنة فى الروح . فبينما نجد فى الجمال كمال الحياة عن طريق نزولنا وانغماسنا فى الموضوع ، نجد فى الجلال كمالاً أصفى وألصق بنا عن طريق تحدينا للموضوع تحدياً كاملاً . فإتساع أفق رؤيتنا فجأة ، والهروب الفجائى من مواضع اهتمامنا العادية ، وتوحيدنا بين

ذواتنا وبين شيء ثابت يسمو على البشر ، شيء أكثر تجريدًا من شخصياتنا المتغيرة ، كل هذه المشاعر تحملنا بعيدًا عن الموضوعات التي لا تتميز خطوطها أمامنا ، وتسمو بنا إلى حالة شبيهة بالنشوة .

ويبدو أننا لا نصيب الحقيقة في تلك الأمثلة الشائعة التي تتمثل بها للجلال حينما نتحدث عن الكتلة الهائلة أو قوة الموضوعات وصمودها أو مظهرها المخيف كما لو كانت هذه الموضوعات تستثيرنا بسبب إحساسنا بالخطر فيها . فالإيحاء بالخطر على نفوسنا يولد بعض الخوف ، أى أنه يولد عاطفة عملية ، ولو حدث صدفة أن تحول هذا الإحساس إلى موضوع وأصبح إحساسًا جماليًا ، فإن ذلك يجعل الموضوع كريحًا منفردًا فحسب مثل الجثة المشوهة . ولكن الموضوع لا يكون جليلاً إلا حينما ننسى خطرنا ونهرب كلية من أنفسنا ، كما لو كنا نعيش في الموضوع ذاته ونستمد طاقتنا من محاكاته فنقول كما قال الشاعر : ( مخاطبًا الريح العاتية ) : « أيها الشيء العنيف ، لتكن أنا » . وهذا الانتقال إلى الموضوع بحيث نعيش حياة هذا الموضوع هو فى الحقيقة من مميزات كل تأمل كامل . ولكننا حينما نسمو على ذواتنا الشخصية ، أثناء ترجمتنا لأنفسنا إلى هذا الموضوع ونلعب دورًا أسمى منها ونحس بالنشاط والحيوية اللذين تجلبهما حياة أكثر حرية وأقل تقييدًا من حياتنا ، حينئذ تصبح تجربتنا هى تجربة الجلال . ولا يأتي الانفعال هنا من الموقف الذى تأمله وإنما من القوى التى تتصورها فنحن لا نتمكن من التعاطف مع

البحارة الذين يصارعون الموت لأننا نتعاطف أكثر مما ينبغي مع الرياح والأمواج . وقد يتسع نطاق هذه القسوة الصوفية بحيث يشمل أنفسنا ذاتها ، فقد نحس بالمجذاب غريب نحو القوى الكونية التي تكتسحنا بحيث إننا نستمد لذة وحشية من فكرة دمارنا نحن . وقد نتمكن من التوحيد بين أنفسنا وبين جوهر الحقيقة المجرد تمامًا وحينما نسمو إلى هذا الارتفاع الشاهق نحتقر الحوادث الإنسانية التي تتصل بطبيعتنا . فنقول : « أيها الرب ، إننى مسأق بك حتى حينما تقتلنى » . إذ يختفى الإحساس بالعذاب هنا فى الإحساس بالحياة ويطغى الخيال على العقل .

## ٦١- الكوميدي

ويحدث شىء مثل ذلك فى الحالات الأخرى التى يبدو فيها أن القيمة الجمالية تنشأ عن الإيحاءات بالشر ، وهى الحالات الكوميديية وحالات الأساخ (Grotesque) إلا أن ما يصيب مشاركاتنا الوجدانية فى هذه الحالات لا يتناول منها إلا بعضها ، فترانا لا نتحول عن ذواتنا إلا بما يجعلنا أدنى أنفساً مما كنا ؛ على أن ذلك الجانب من إنسانيتنا وهى فى حالة اكتمالها ، أقول إن ذلك الجانب الذى لم يستوعب فى عملية التحول ، يظل على أهبة ليعارض ما يطوف بخيالنا من سخف فكمال الكوميديا فى أنها تفرينا بالتجوال فى مسلك فرعى من مسالك الخيال وسط مناظر غير مستحيلة فى جوهرها وإن كنا لا نتصرف فى الواقع على

غراها بسبب ظروف حياتنا الثابتة . فإذا كانت الصورة سارة استبحنا لأنفسنا أن نحلم بأنها حقيقية ، وننسى علاقاتها ( بما يجاورها ) ونمنع العين من التجوال خارج إطار المسرح أو أن نتجاوز مواضع الخيال . فننغمس فى أوهام تزيد من عمق إحساسنا بما فى الأشياء من طبيعة سارة .

إلى هنا وليس فى الكوميديا ما يبعث على النشوة - فيما نظن - سوى اللحظة التى تنتهى فيها . ولكن الخيال ، مثله مثل كل انحراف عن الواقع وكل تجريد ، هو بالضرورة غير ثابت ، ولا تقتصر يقظتنا منه على اللحظة التى ينتهى فيها فحسب ؛ ففى شتى الحالات التى نكون فيها إزاء انتحال أو إزاء انحراف عن الحق ترانا نقع على متناقضات مفاجئة وناصعة الوضوح ، كما نقع على تغيرات فى المنظر وتحولات فى الإدراك الباطنى تهز الخيال وتنبهه على نحو بالغ . ولقد سبق أن تحدثنا عن أحد هذه التغيرات ، وهو الذى يحدث حينما تتلاشى فجأة عاداتنا الفكرية المألوفة فنسمو إلى مرتبة التأمل الصوفى وملؤنا إحساس بالجلال . أما إذا ارتد التحول إلى عالم الواقع والإدراك الفطرى ، مستقلاً من إحدى حالات الخيال فحينئذ ننفعل انفعالاً مختلفاً تماماً ، فنحس بالخداع أو الترويح عن النفس أو الخجل أو التسلية طبقاً لمقدار تعاطفنا مع الموقف الذى نضحى به أو الذى نصل إليه .



إن حياة الخيال هي في تفكك الصور العقلية ثم إعادة بنائها في صور جديدة . وهذه عملية روحية . عملية ميلاد وموت ، عملية تغذية واتصال . فترى أعنف الانفعالات يصاحب هذه التغيرات ، ويختلف اختلافاً لا حصر له باختلاف هذه التغيرات . وجميع الصفات التي يتميز بها الكلام كاللفظة والفصاحة والاتساق ، والتناقض ، كلها عبارة عن مشاعر تطرأ على هذه العملية وتتضمنها أفكارنا في تجاوزها ثم في تناقضها ثم في فض ما بينها من تناقض . ولا شك أن هذه الأشياء ستترد في نهاية الأمر إلى تعليل يفسرها بحوادث المخ ، إلا أننا لا نزال نقتصر على مجرد الألفاظ في وصفها وفي تصنيفها فلا مناص من أن يجيء وصفنا وتصنيفنا اللفظيان أمراً جزافاً إلى حد ما .

ولعل أبرز العناوين التي تصنف التأثيرات الكوميديّة تحتها هي عدم التناسب والحطّة . إلا أنه من الواضح أن الجوهر المنطقي لعدم التناسب أو الحطّة لا يؤلف الأثر الكوميدي ، وإلا لكان التناقض والتدهور من الأشياء التي تبعث على التسلية دائماً . إن التسلية شيء فيزيقي على نحو أكثر مباشرة . فقد نجد تسلية في شيء لا تدخل فيه فكرة على الإطلاق كما هي الحال عندما يدغدغنا أحد ، أو عندما نضحك لضحك غيرنا حين تنتقل عدوى الضحك إلينا فنقلد حركاتهم . وقد نجد تسلية في مجرد تكرار شيء لم يكن مسلياً في بادئ الأمر . ولذلك فلا بد أن تكون هناك إثارة عصبية يعتمد عليها الشعور بالتسلية اعتماداً مباشراً ، وإن كانت هذه

الإثارة فى أغلب الأحيان تحدث فى الوقت نفسه الذى يتم فيه التحول الفجائى إلى صورة غير مناسبة أو منحطة . ولا نستطيع أن نفترض أن هذه الإثارة الفكرية أو التصويرية المعينة تختلف تمام الاختلاف عن غيرها من الإثارات . فغالبًا ما يصعب التمييز بين سرعة البديهة أو الفطنة Wit وبين الذكاء Brilliancy كما يصعب التمييز بين الفكاهة Humour والشجن Pathos لذلك علينا أن نقنع بهذا القول الغامض ، وهو أن عملية التصور تتضمن مشاعر مختلفة بالحركة والعلاقة ، مشاعر قابلة للتدرج الذى لا حصر له وللتعقيد الذى لا ينتهى ، تتفاوت من الجلال إلى الملل ومن الشجن إلى المرح الذى لا نستطيع أن نسيطر عليه .

ويبدو أن بعض الحالات الكوميديّة الفجة الواضحة لا تتألف من أكثر من مجرد صدمة الدهشة ؛ فالتلاعب بالألفاظ يطرأ فجأة من موضع لا نعلمه ويظهر وسط أفكارنا العادية الجدية . وعادة ما نسر لقطعه حبل أفكارنا لحيوته ، ولما فيه من طابع عشوائى . فالحمق أحيانًا عذب كما يقول الشاعر اللاتينى dulce est desipere in loco . غير أن أولئك الذين تجبرهم الظروف على احتمال عشرة هؤلاء الذين آفتهم الإضحاك يعرفون كيف يصبح هذا الضرب من البراعة شيئًا لا يحتمل ؛ فهو فى ذاته يتصف بشيء من الابتذال ، ولربما كان مصدر ذلك أن سلسلة أفكارنا التى نسر لقطعها بمثل هذا الهراء الدخيل لا يمكن أن تكون أفكارًا طريفة فى ذاتها . ونجد نفس الإحساس الخفى بالاشمئزاز يمتزج بالمفاجآت المسلية

الأخرى ، كما هي الحال مثلاً عندما يتزلق أحد الشخصيات البارزة الوقورة فيقع على الأرض ، أو عندما ينزع أحدهم عن نفسه ما تنكر به ، أو عندما يذكر بعضهم تلك الأشياء التي تقضى التقاليد بعدم ذكرها .  
 حقًا إن الجدة والحرية في هذه الأشياء تسرنا ، ولكن الصدمة غالبًا ما تبقى بعد انقضاء اللذة . وحيث نود لو كان الذى أثر فى نفوسنا شيئًا آخر يخلو من هذا الابتذال . كذلك نشعر بنفس الإحساس فى تلك الأقاصيص والحكايات المبالغ فيها ، والتي تدغدغ الخيال بغلوها وتطرفها وبما يبدو فيها من محاكاة للواقع رغم استحالتها ، إذ أننا بعد أن تنقضى لذتنا بها نحس بما فيها من حمق .

وسيتضح السبب فى ذلك حينما نقف برهة لنحلل الموقف . إن لدينا مجالاً من الذوق العام والحقيقة اليومية الخالية من الشعر والخيال ، وتؤثر على هذا المجال فجأة فكرة غير متوقعة . إلا أن هذه الفكرة عشواء عديمة الجدوى . وتزيف هذه الحادثة الكوميديّة من طبيعة ما نراه ، فتبدأ فى توليد علاقة من الشبه بين الحادثة وبين هذا المجال فى الذهن وفى خلق إيهام بشيء لا يمكن تنفيذه . وبالإجمال نجد أنفسنا أمام تناقض مضحك ، وبما أن الإنسان حيوان عاقل ، فإنه لا يسر بالتناقض أكثر مما يسر بالجوع أو البرد . حقًا إنه ليحتمل بعض الجوع أو البرد راضياً إن كافأته على ذلك بطعام دافئ وافر . وعلى نفس المنوال تجده يلهو بضروب الهراء من أجل الضحك والصحبة الطيبة ودغدغة خياله بما يشبه كاريكاتور

الفكر . إلا أن شكه فى قيمة ما يفعله لا يزال مائلاً فى ذهنه ، ولذلك فلا تكون اللذة التى يشعر بها كاملة أبداً . لقد كان يستطيع أن يصل إلى نفس هذه الدرجة من اللذة والاستشارة بدون أى تزييف ، كما أنه من الممكن أن يستجم المرء ويستريح بعد مجهود سار أسرع مما يفعل بعد مجهود مؤلم .

إن المزاح خبير طالما لا يفسد ما هو أفضل منه . وإن أفضل مكان للمزاح حينما يأتى وسط ما هو مضحك بالفعل ، فحيثئذ نحصل على نشاط المخيلة بدون الإحساس بالتفاهة . فنحن نسر لأشياء يفوه بها المضحك ولا نسر لها حينما ترد على لسان الرجل المهذب ، وهذه حقيقة تثبت أنه لا توجد علاقة كبيرة بين عدم التناسب والحطة وبين ما نجد فى الشيء الكوميدي من لذة . بل إن هناك تناسباً ومنهجاً حتى فى المزاح فى الواقع : فالحطة وعدم التناسب تضايقاننا حتى فى المزاح ، كما هو شأنهما دائماً . وقد تكون الصدمة التى تأتى بها الحطة أو عدم التناسب مناسبة للذة لاحقة ، وذلك عن طريق جذب انتباهنا أو إثارة مشاعرنا كمشاعر الاحترار أو القسوة أو الرضا عن الذات ( فهناك الكثير من الشر فى شغفنا بالمزاح ) ، ولكن الحطة وعدم التناسب فى ذاتهما يظلان دائماً مصدر كدر . وإن ما نشعر به من لذة إنما يأتى مما فى الموضوع المتخيل من حركة باطنة معقولة ، ولا يأتى من تناقضه مع أى شيء آخر . وهناك العديد من العوالم المقلوبة ظهرها على عقب التى يمكن تخيلها والتى

نجد لذة فى دخولها أحياناً ، فنسر لإثارة قوانا العقلية ولتنبيهها ، كما نسر لأخذ هيئة مختلفة أو للاستماع إلى أغنية جديدة علينا .

وليس الهراء أو عدم المعقولية خيراً إلا لكون الذوق العام محدود المجال . فالعقل ليس إلا مجرد تقليد متواضع عليه انتقاء الإنسان من بين آلاف التقاليد . ولكنا نحب التوسع لا الفوضى ، وحينما نصل إلى الحرية بدون أى تناقض أو عدم تناسب فحيثُ نَجرب متعة أصفى وأعظم مما نجرب حينما يوجد تناقض . وتستطيع البديهة الكاملة أن تستغنى عن التناقض المضحك . ومن الممكن أن يظهر فى نفس المجال من الذوق العام اليومى الخالى من الشعر والخيال شىء جديد يخلو من التناقض لا يقل فى قدرته على إثارة الانتباه عما هو مضحك بدون أن يحير العقل على نحو ما يفعل الشىء المتناقض المضحك . وهذه التسلية الأكثر صفاء والتي تتميز طبيعتها بالعقلية التامة إنما تأتى عما نسميه بالفطنة أو سرعة البديهة Wit .

## ٦٢- الفطنة

وتعتمد الفطنة أيضاً على تحويل الأفكار واستبدالها . وقد وصفت بأنها تتألف من الربط السريع بين الأفكار عن طريق التشابه . إلا أنه لا بد أن يكون استبدال الأفكار هنا يقوم على أساس سليم ، وأن يكون وجه الشبه حقيقياً وإن كان غير متوقع . فالتناسب غير المتوقع هو الذى

تتألف منه الفطنة ، فى حين أن عدم التناسب الفجائى تتألف منه الحماقة السارة . ومن مميزات الفطنة أنها تتوغل فى أعماق الأشياء الخفية لكي تتقى أحد الظروف أو العلاقات التى لها مغزى معين ، والتى نمكنا ملاحظتها من رؤية الشئ كله فى ضوء جديد أكثر وضوحًا . وتبدو الفطنة شريرة غالبًا لأن التحليل الذى عن طريقه نكتشف صفات مشتركة ومبادئ عامة يوحد بين الأشياء البعيدة غاية البعد . فقد نطبق على ميدان الطهى مبادئ اللاهوت ، وقد نجد فى القلب البشرى مثلاً للرافعة والمرتكز .

إننا نحافظ عادة على التمييز بين أبواب التجربة ، ونعتقد أن فى كل منها مبادئ مختلفة ، وأن كرامة الروح لا تنفق وتفسيرها عن طريق التمثيل المادى ، وأن المادة الوضيعة ليست جديرة بتصوير الحقائق الخلقية . فلا يصح أن نصنف الحب ضمن الشهوات المادية ، أو أن نعتبر الإيمان ضربًا من عملية إضافة صفة الوجود إلى التصورات . لذلك حينما يتعدى ذهن أصيل هذه الحدود ويعيد صياغة مقولاته خالطًا بذلك بين تصنيفاتنا القديمة فإننا حيثن نشعر بأنه قد خلط أيضًا بين قيم الأشياء . ولكن قيم الأشياء تعتمد على علاقات أكثر عمقًا ، وعلى استجاباتها للحاجات والرغبات الإنسانية . وكل ما يمكن تغييره عن طريق نشاطنا العقلى هو إحساسنا بوحدة العالم وتجانسه . فقد نتوقف عن عزل موضوع من موضوعات الفكر عن غيره على النحو الذى ألفناه ، وقد يزول

احتقارنا لموضوع آخر فتأمله فى تأنٍ . غير أن اللذة التى نستمدّها من جميع الموضوعات أو سعادتنا الكلية ودهشتنا الشاملة لن تنقص فى شيء . ولذلك يجب ألا نعتبر أن طبيعة الفكر الأساسية هى الشر والهدم . إن الفطنة تحط من شأن أحد الأشياء بينما تزيد من أهمية شيء آخر ، وإن الكثير من تشبيهاتها يتضمن التقريظ كما يتضمن السخرية .

ونفس العملية الذهنية التى لاحظناها فى حالة الفطنة تولد أيضًا التأثيرات التى نسميها بالرشاقة والخفة والتألق والإلهام . فحينما يقول شكسبير :

« تعالى وقبلىنى يا بنت العذوبة والعشرين :  
إن الشباب مجبول من مادة لا تعيش طويلاً » .

نجد أن ما فى العبارة « يا بنت العذوبة والعشرين » من خيال يتألف من استبدال ناجح ، وطريقة مرحة للتعبير عن حقيقة رقيقة . وهل هناك رشاقة وخفة أجمل من ذلك ؟ وينطبق هذا الكلام أيضًا على المثل الأهم التالى ، وهو وصف القديس أوغسطين لفضائل الوثنيين بأنها « ذائل رائعة » . فإنتا إن فهمنا كل ما فى هذه العبارة من معنى نجد فيها توحيدًا بالتمام بين أشياء متناقضة بفعل مبدأ قوى ، وانتصارًا لنظرية لا يضاهاى ما فيها من قسوة إلا ما تشمله من تماسك . وفى الواقع لا يمكن أن نجد عبارة أخرى أكثر تألقًا من هذه ، أو تركز لنا ، كما تفعل هذه العبارة ، دينًا واحدًا وحضارتين متباينتين . والعقلية اللاتينية على نحو خاص قادرة

على بلوغ هذا الضرب من الكمال . ونستطيع أن نجد مائة مثل له عند تاسيتوس Tacitus وحده . وتجتمع هذه القدرة مع قدرة على الفصاحة النقدية والتهمك اللاذع والذكاء اللفظ الذى يتم على الاحتقار ، قدرة تصل إلى جوهر العاطفة أو الشخصية وتلصق بها بطاقة مهينة أو تدمغها بعلامة شائنة . إذ يمكننا حين تمسنا للتحليل أن نبالغ فى التركيز والتجريد . إن الحقيقة أكثر سيولة وأقل تحديدًا من العقل ولها من الأبعاد أكثر مما تعرفه الهندسة الحديثة . ولذلك فإن العقل حينما لا ينتشر فيه دفء المشاركة الوجدانية أو يمسه شئ من التصوف يعطينا صورة جافة قاسية للعالم . إن الفطنة تدعوننا إلى الإعجاب أكثر مما تثير فى نفوسنا الطمأنينة والثقة ، ولذلك فهى من الصفات التى لا يؤسفنا غيابها فيمن نحب .

غير أنه يمكن لنفس المبدأ أن يظهر فى أشكال أكثر عاطفية . فحينما تكون العاطفة الكريمة هى التى تستبدل الأفكار عندئذ نسمى الفطنة إلهامًا . ففى الإلهام نجد نفس القدرة على اكتشاف علاقات شبه جديدة وأوجه شبه بين الأشياء المختلفة ، وفيه أيضًا نجد نفس التحول فى مدركاتنا إلا أن التالى هنا ليس عميقًا فحسب ، وإنما هو أيضًا يثير فى نفوسنا السمو فمثلًا فى قول الشاعر :

« سلام ، سلام ! فلم يمت ولم ينم ، بل استيقظ

من حلم الحياة .



إنما نحن الذين تذرنا الرؤى العاصفة نظل نتصارع  
بدون جدوى مع الأشباح .

فى هذا القول تناقض يسوغه التفكير . فالشاعر هنا يحلل بدون أى قيود ، فالحلم والعاصفة والأشباح وعدم الجدوى من الممكن جداً أن تتألف منها صورة تهكمية . ولكن الحالة النفسية التهكمية هنا قد أصابها التحوير ، فخلق العقل فى طبقات عليا وهو يشعر بإحساس التحرر من التقاليد التى يحطمها ، ويشعر بحركة أكثر حرية فيما وراء هذه التقاليد من غموض . وهكذا فتحطيم مثلنا الأعلى هنا يودى إلى التصوف وبسبب هذا الجهد نحو السمو يصبح التائق هنا جلالاً .

### ٦٣- الفكاهة

إن اختلاف الحالة النفسية إذن يوجه نفس العمليات الذهنية اتجاهاً مختلفاً ؛ فالمشاركة الوجدانية ، التى عن طريقها تتمكن من توليد ما يشعر به شخص آخر فى نفوسنا ، هى عادة تعارض ذلك الموقف الجمالى الذى يكون العالم بأسره فيه مجرد مشير لحساسيتنا . ولقد رأينا كيف أن الإحساس بالمشاركة الوجدانية فى التراجيديا ، والذى عن طريقه نشارك فى آلام الشخصيات ونقدرها ، يجب أن تضاف إليه لذات جمالية عرضية كثيرة لكى يصبح التأثير الكلى فى مجموعه خيراً . وقد رأينا أيضاً كيف أن الطريقة الوحيدة التى يظل بها الشيء المضحك فى حيز الخير الجمالى

هى تجريده من علاقاته واعتباره مؤثراً غريباً مستقلاً . فلو حاولنا أن نجد معنى فى مضحكاتنا ستوقف عن الضحك ويصيبنا الضيق ، وكلما تضاءلت قدرتنا على المشاركة الوجدانية مع الناس زاد استمتاعنا بحماقتهم ، فلذة التهكم قريبة جداً من القسوة . إن العيوب والكوارث تثير خيالنا مثلما تبعث رؤية الدماء والتعذيب انفعالات الحيوانات الكاسرة فى نفوسنا . وكلما حل العقل والمشاركة الوجدانية محل هذه النزعة القاسية قلت قدرة الأخطاء والحماقة على تسليتنا . ولذلك يبدو أنه يستحيل علينا أن نسر لرؤية ما يرتكبه أولئك الذين نحبهم من حماقات وما فيهم من عيوب . وفى الواقع إننا لا نسر أبداً لرؤية أنفسنا ، أو رؤية أى شخص آخر نحبه ، فى ضوء تهكمى . وحتى فى التمثيليات الهزلية من النادر أن يجعل الكتاب أبطالهم وبطلاتهم مجرد أشخاص مضحكين لأن ذلك يتعارض مع مشاعر التعاطف التى من المفروض أن نضيفها عليهم . ومع ذلك فجوهر ما نسميه الفكاهة Humour هو فى ضرورة مزج نقط الضعف المسلية بإنسانية عطوف . ولا بد أن يوجد فى شخصية الرجل الفكاهى ناحية مضحكة سواء كانت هذه الناحية غريبة الأطوار أم سلامة الطوية أم مجرد الهزل ، أو لا بد له أن يوجد فى موقف متناقض مضحك . إلا أن هذه الناحية المضحكة التى كان من المفروض أنها تثير فىنا الانقباض إنما تزيد من حبنا له فيما يبدو . وهذه الحالة توازى حالة التراجيديا حيث يبدو أن عمق العذاب الذى تتعاطف معه إنما يضيف إلى

متعنتا . وتفسير هذا التناقض واحد فى الحالين . فلسنا نستمتع بالتعبير عن الشر ، وإنما نسر لما يصحب الشر من إثارات سارة ، أى إننا نسر بالإثارات الفيزيقية وبالتعبير عن الخير . قفى التراجيديا تساعد الكوارث على خلق الإحساس بالصدق وعلى إبراز الصفات النبيلة فى شخصية البطل ، ولكن هذه الكوارث هى فى ذاتها مقبضة إلى درجة أن ذوى الحساسية الشديدة من الناس لا يستطيعون الاستمتاع بما فى تصويرها من جمال .

وكذلك الحال فى الفكاهة ، فإننا نحس فيها بالإيحاءات المؤلمة بوصفها مؤلمة ولذلك نحتاج إلى عناصر أخرى سارة توازن الألم وتزيد عنه . وتأتى هذه العناصر من مصدرين معاً : من الاستجابة الجمالية ومن المشاركة الوجدانية . فهناك من جهة الإثارة الحسية والإدراكية البهتة ، أى جدة المنظر وحركته وحيويته . ومن جهة أخرى نجد ترف المشاركة الوجدانية الخيالية ، والتمثيل العقلى لتجربة أخرى ملائمة ، والامتداد داخل حياة أخرى .

والمقابلة التى تنشأ عن وضع هاتين اللذتين معاً تخلق ذلك التوتر وذلك التعقيد اللذين تتألف منهما الفكاهة . فنحن نتحكم على الموضوع وفى الوقت عينه نعطف عليه . وشعورنا بالعطف يخلق مسحة من الرقة والحنان والأسف على التهكم ، بينما حدة التهكم تضيف شيئاً من التواضع والحزن على العطف . إن دون كيشوت مثلاً رجل مخبول ،

وهو عجور مضحك ولا نفع فيه ، غير أنه فى الوقت نفسه يمثل روح الشرف ، ونحن نتابعه فى مخاطراته المضحكة كما لو كنا نتابع شبح الناحية الأسمى من ذاتنا . ونستمتع بمواقفه المحرجة إلى درجة تجعلنا لا نود لو كان مثل « أماديس » فارساً مغواراً ، بل إننا لنشك فى الوقت نفسه فيما إذا لم يكن ذاته يمثل النوع الممكن الوحيد من الفرسان فى هذا العالم . ومع ذلك فيهمنا أن نرى ما فى مثاليته من شجاعة ، وما فى فطنته من براعة وما فى خيره من بساطة . ولكن كيف لنا أن نوفق بين تعاطفنا مع أحلامه وبين إدراكنا لتناقضه ؟ إن فى الموقف ذاته تناقضاً : فهو يدفعنا إلى موقف لا تبدو الكوميديا منه مجرد شئ يبعث على التسلية . فكلما ازدادت الفكاهة عمقاً واختلفت حقيقة عن التهكم تحولت إلى الشجن Pathos ، وخرجت عن ميدان الكوميديا تماماً . والنكبات التى كان من المفروض أنها ستسليتنا بوصفنا نقاداً متهكمين تصبح الآن تخزننا كأدبيين ، وتعتمد قيمة التصوير فى هذه الحال على لمسات الجمال والجدية التى تزيهه .

## ٦٤- المسخ

ويمكن أن يظهر شئ يشبه الفكاهة فى ميدان الفنون التشكيلية ، فى أشكال نصفها بأنها أساخ Grottesque . وتأثيرها طريف ، يتولد عن طريق التحوير فى نمط مثالى بحيث نبالغ فى تجسيم أحد عناصره أو

نخلط بينه وبين أنماط أخرى . وكمال هذا الشكل الحقيقي ، مثله فى ذلك مثل كمال أى خيال ، يتألف من تكوين الأشياء أو خلقها من جديد، أى من تكوين أشياء لا توجد فى الطبيعة وإن كان من الممكن أن نتصور أن الطبيعة كان فى مقدورها خلق هذه الأشياء . ونسمى هذه الابتكارات كوميدية وغريبة ومضحكة حينما نتأمل اختلافها عما هو الآن ممكن فى الطبيعة وليس عن إمكانياتها الباطنية . غير أن إمكانياتها الذاتية أو إمكانياتها الباطنية هى سر ما فيها من جاذبية ، وكلما زادت دراستنا لهذه الابتكارات وتطويرنا لها زاد فهمنا لهذه الإمكانية . وحينئذ يختفى عدم التناسب بينها وبين النمط التقليدى ، والذى وجدنا مستحيلاً مضحكاً فيها لأول وهلة يصبح مقبولاً ويأخذ مكانه بين الأنماط المعترف بها . فلم تعد المخلوقات الخرافية فى الأساطير اليونانية مثل القنطور Centaur ، والساثير Satyr أشكالاً غريبة مضحكة ، لأننا أصبحنا نقبل هذه الأنماط الجديدة . والغرابية المضحكة فى الفرد لا تختلف فى طبيعتها اختلافاً جوهرياً عن غرابية هذه الأشياء : فإذا كنا نقبل ما فى الفرد من تناسق وانسجام باطنى ، ومن توازن فى ملامحه المميزة ، فحينئذ نستطيع أن نجرد هذا الفرد من الفئسة أو الفصل الذى كنا نحاول عنوة أن نضعه فيه ، فنستطيع أن ننسى توقعنا الذى كان سيخيبه هذا الفرد . حينئذ يختفى القبح ، ولن نعتبره غريباً فى شىء إلا إذا عادت إلينا عاداتنا القديمة وعاد إلينا توقعنا الماضى .

والشئ الذى يبدو لنا مسخًا أو غريبًا مضحكًا قد يكون فى جوهره إما أدنى أو أعلى من الشئ العادى ، فهذا موضوع يتعلق بمبادئه وشكله المجردين . إلا أن الموضوع الجديد يظل يبدو فى نظرنا مجرد خليط مشوه من الأشكال الأخرى حتى يتمكن من أن يطبع شكله فى مخيلتنا بحيث نستطيع أن ندرك وحدته ونسبه . وإذا كان هذا الخلط مطلقًا فإن الموضوع ينعدم فى نظرنا ، ولن يوجد من الوجهة الجمالية اللهم إلا بفضل ما فيه من مواد . أما إذا لم يكن الخلط مطلقًا ، واستطعنا أن نكون فكرة على نحو ما عن وحدته وطابعه وسط غرابة شكله ، فحيثئذ يتكون لدينا الشئ المسخ أو الغريب المضحك . فالشئ الغريب المضحك هو الشئ الذى لم يتم شكله ، الشئ المحير الشاذ الملىء بالإيحاءات .

والشبه قريب جدًا بين هذا الشئ وبين الشئ الكوميدي ، ولا غرابة فى ذلك ؛ ففي الشئ الكوميدي نجد نفس المقابلة بين فكرتين إحداهما قديمة والأخرى جديدة ، وإذا كانت الفكرة الجديدة ذات قيمة ومن الممكن تصورها حقًا ، فإنها قد تستطيع بمضى الوقت أن تؤكد وجودها فى الذهن وبالتالي لا تصبح مجرد فكرة مضحكة . فاللفظة الجيدة هى الحقيقة الجديدة ، كما أن الغرابة المضحكة الجيدة هى الجمال الجديد . إلا أن هناك شروطًا طبيعية للتنظيم ، ولا ينبغى لنا أن نظن خطأ أن كل تشويه هو خلق شكل جديد . وإن نزعة الطبيعة إلى تثبيت أنواع مميزة من الحيوانات إنما تبين لنا أى المجموعات المختلفة أشد صلاحية

وثباتًا أمام القوى الطبيعية ، كذلك يوجد أيضًا مبدأ الصلاحية الذي يتم على مقتضاه بقاء الأشكال فى العقل : فالذى يحدد بقاء الشكل فى الذهن هو علاقته بالمنهج الثابت لإدراكنا . لذلك كانت الأشياء الجديده بصفة عامة غير موفقة وسبب ذلك - كما يقول هذا التعبير الجيد - أنها ليست لديها القدرة على أن تصبح قديمة . إن الأصالة التى مصدرها ضعف فى إحدى الملكات توجد فى ألف شخص ، بينما الأصالة التى منبعها العبقريه لا توجد إلا فى فرد واحد . وفى البحث عن الجمال كما هى الحال فى البحث عن الحقيقة يوجد عدد لا يحصى من السبل يؤدى إلى الفشل ، بينما يوجد طريق واحد للنجاح .

## ٦٥- إمكان الكمال المتناهى

وإذا كانت هذه الملاحظات دقيقة فإنها تؤيد هذه الحقيقة الهامة ، وهى أنه لا توجد قيمة جمالية تقوم فى الواقع على أساس تجربة الشر أو على أساس الإيحاء بالشر . ولا شك أن هذه النتيجة تزيد أهمية حينما نفكر فى إمكان امتدادها إلى ميدان الأخلاق وفيما تتضمنه من تسويق للمثل الأعلى للكمال الخلقى باعتبار أنه مثل فى جوهره يسمح بالتحديد ويمكن تحقيقه . ولكننا نستطيع أن نضع مباشرة المبدأ الذى نخرج به من تحليلنا للتعبير بدون أن نؤكد وجه الشبه بينه وبين الأخلاق الشىء الذى قد يؤدى إلى اللبس . وهذا المبدأ هو ما يلى :

قد توجد صفة التعبير فى أى شىء يوحى بشىء آخر ، أو يستمد من ارتباطه بهذا الشىء الآخر أى لون من ألوانه العاطفية . ولذلك قد تكون هناك صفة تعبيرية فى الشر ، إلا أن هذه الصفة التعبيرية لن تكون لها قيمة جمالية . إن وصف الألم ، أو الإيحاء به ، قد تكون له قيمته كعلم أو كستدرب ، ولكنه لن يستطيع فى ذاته أن يزيد من جمال أى شىء . « فالتراجيديا » و « الكوميديا » تبعثان على اللذة على الرغم من صفتها التعبيرية وليس بفضل هذه الصفة ، ولو لم تكن لهما القدرة على توليد اللذة لما كان لهما مكان بين الفنون الجميلة ، ولما كان لهما مكان فى الحياة الإنسانية على الإطلاق اللهم إلا إذا كانتا من الوسائل التى تؤدى إلى تحقيق غرض عملى أو تخدم غاية خلقية معينة . إن الأشياء الفسيحة فى مقدورها أن تثير الاهتمام ، ولكنها لا تستطيع أن تحتفظ بهذه القدرة ، وتستطيع الفضيحة الجديدة عن أمر شائن أن تحظى ببعض إعجاب العامة الذين يستثير اهتمامهم أى حدث بارز مؤقت ، بل يمكن حتى للجريمة أن تحظى بإعجابهم ، ولكن هذا الإعجاب لا علاقة له بالجمال على الإطلاق ، ومصدره الوحيد بلادة الإحساس بالجمال .

وهكذا فليس أثر الشجن أو الكوميديا أثرًا صافيًا أبدًا ، لأن التعبير عن الشر فيه يمتزج بتلك العناصر التى عن طريقها نجد متعة فى الكل . وقد رأينا أن هذه العناصر هى صدق التصوير أو العرض ، ذلك الصدق الذى يتضمن لذات الفهم والتعرف على الأشياء ، وجمال



الوسيلة وما يصاحبها من تعبير عن أشياء خيرة فى جوهرها . هذه المصادر هى التى ترجع إليها جميع القيم الجمالية فى الكوميديا والتراجيديا ، ولا ينبغى للمشاركة الوجدانية التى يثيرها منظر الشر أن تطفى أبداً على لذات التأمل هذه ، وإلا أصبح الشئ بأسره كريهاً ويفقد مبرر وجوده . وعلى ذلك فالاهتمام المقصور على ما هو « كوميدى » و « تراجيدى » إنما هو دليل على الذوق الردىء ، وعلى عدم وجود إحساس كافٍ بالجمال .

وقد أدرك الفنانون بصفة عامة أهمية هذا الموقف فى نتاجهم لأنهم يدرسون دائماً كيفية توليد الآثار المختلفة ، إلا أنهم على الرغم من عنايتهم الفائقة لم يتمكنوا دائماً من تجنب الأخطار التى تحف «الشجن» ، والتاريخ ملىء بالأمثلة الفاشلة التى مصدرها المبالغة فى التعبير ومجرد عرض الحوادث المرعبة التى تخلو من العناصر السارة ، وعدم القدرة على تصوير شخصيات حية مقنعة أكثر من مجرد الكاريكاتور . وفى جميع هذه الأمثلة نجد أن محاولة التعبير قد أدت إلى خرق شروط الأثر السار . إذ أن دافع الخلق والمحاكاة لا تميز فيه ، فهو لا يعتبر جمال التعبير وإنما يقتصر على الرغبة العمياء فى التعبير عن الذات . ومن ثم لا يستطيع العقل غير المدرب والذى تعوزه الحساسية الطبيعية أن يميز أو ينتج ما هو خير . ولقد كان هذا العجز عن النقد والتمييز مصدراً للفشل دائماً وموسعاً للتهكم والسخرية . إلا أن بعض المفكرين فى أيامنا - تلك

الأيام التي يندر فيها الفن ويكثر فيها الإنتاج الذي لا يقوم على أى تدريب - قد جعلوا من هذا الخطأ الشنيع مبدأ وقالوا إن جوهر الجمال هو التعبير عن الفنان وليس توليد اللذة عند الناس . غير أن شروط التأثير وإمكان توليد اللذة هما المعيار الوحيد لكل ما يستحق التعبير ولما يمكن التعبير عنه . ولا يوجد الفن ولا يصبح له قيمة إلا عن طريق تكيفه حسب هذه الشروط الكلية للجمال .

ولا يدخل فى نسيج الجمال إلا ما هو خير فى الحياة . فالذى يبهجنا فى الشيء الكوميدي ، والذي يهزنا فى الشيء الجليل ويشيرنا فى الشيء المشجى هو رؤية خير ما ، ولا يوجد للنقص أى قيمة إلا باعتباره بداية الكمال . ولو قدر لآلام الحياة ومتاعبها أن تقل ، ولو وجد انسجام وتوافق أعظم بين الإنسان والطبيعة لما فقدت الفنون أى شيء ؛ إذ أن القيمة النهائية الخالصة للشيء الكوميدي هى الاكتشاف وقيمة الشيء المشجى هى الحب بينما قيمة الجليل هى سمو ، وسوف تظل هذه ماثلة دائماً ، بل إنها ستزيد فى الحقيقة . ولذلك فقد اكتشف أسمى جمال فى الطبيعة وحاز الفن على أعظم انتصاراته فى أكثر لحظات الإنسانية سعادة ، حينما اتحد العقل الإنسانى والعالم وتعانقا لفترة وجيزة . ولكنه يحدث فى لحظات أقل توفيقاً أن تخضع الروح لما هى تعمل فيه فتفقد قدرتها على الأمل والتصور المثالى . وحينئذ نتقذ أنفسنا على نحو محزون غير معقول ونعاقبها لما فى طبيعتها من نقص . ويفزعنا عظم الحقيقة

التي لا يمكننا تصورها خالية من الشر ، فنحاول أن نقرر أن ما فيها من شر هو أيضاً خير ، وهكذا نسمم جوهر الخير ذاته لكي نحاول أن نجعله يشمل كل شيء . ونخلط بين العلاقة العلية بين تلك الأشياء فى الطبيعة التي نسميها على نحو عرضى بحت خيراً أو شراً ، وبين التناقض المنطقي بين الخير والشر ذاتهما ، فنقول مثلاً إن الموت ضرورى للحياة لأن كل جيل يفسح الطريق للجيل الذى يليه ، ولأن أسباب الحزن والفرح ممتزجة فى هذا العالم فإننا مثلاً لا نستطيع أن نتصور إمكان انفصالهما فى عالم أفضل .

وعدم قدرة الخيال هذا على إعادة بناء ظروف الحياة والأشياء من جديد كما يحلو لنا ويتفق ورغباتنا لا يمكننا من أن نظل مخلصين دائماً لما هو جميل ونبيلى . فترك أنفسنا على عواهنها ونتذوق أشياء متباينة بدون معيار ثابت أو هدف معين ، ونسمى كل مظهر لا يولد اللذة جميلاً وبذلك نصبح عاجزين عن تمييز الجمال وعن الإحساس بقيمته . ولكنه يلزمنا أن نوضح مثلنا العليا ونضفى على رؤيتنا للجمال المزيد من التميز والحيوية . ولا يوجد إلحاد يضاهاى فى رعبه عدم الإيمان بمثل أعلى ، كما أنه لا يوجد عجز فى القوى الإنسانية أكثر تعارضاً مع الطبيعة الإنسانية ومع الحياة السليمة من عجز الخيال الخلقى . إذ أننا لنا ملكات وعادات ودوافع هى الأسس التي تقوم عليها مطالبنا ، وهذه المطالب على الرغم من اختلافها تؤلف معياراً جوهرياً دائماً للقيمة نحس ونحكم طبقاً له .

والمثل الأعلى يكمن فى هذه المطالب ، لأن المثل الأعلى يعنى تلك البيئة التى يمكن للمكاتب أن تمارس نشاطها فيها بأكبر قسط من الحرية ، أو ذلك العالم الذى يتلاءم مع هذه الملكات أكثر من غيره . وليس الكمال سوى المعيشة فى هذه الظروف . وعلى ذلك يزيد وعينا بالمثل الأعلى وضوحاً وتميزاً بتقدمنا فى الفضيلة وزيادة نشاط ملكاتنا وقوتها . وحينما يكتمل الانسجام الحيوى وحينما يصبح « الفعل » « صافياً » يتحول الإيمان بالكمال إلى رؤيا من الرؤى . وإنه لشقى جداً ذلك الإنسان الذى لم ير الكمال أبداً ولو مرة فى حياته كلها ، والذى لم يستطع أبداً وهو فى نشوة الحب أو غبطة التأمل أن يقول : « لقد وصلت » . ومثل هذه اللحظات من الإلهام هى منبع الفنون ، وليس للفنون وظيفة أسمى من تجديد هذه اللحظات .

إن العمل الفنى فى الواقع لأثر لإحدى هذه اللحظات ، وشاهد لإحدى هذه الرؤى . وتتفاوت جاذبية العمل الفنى بتفاوت قدرته على استدعائنا من ملهيات الحياة العامة إلى نشوة النشاط الذى هو أكثر طبيعية وكمالاً .

## ٦٦- ثبات المثل الأعلى

إن الكمال الذى يتكشف لنا كمال مرتبط بطبيعتنا وملكاتنا ، ولولا ذلك لما كانت له قيمة فى نظرنا ؛ وهو يتكشف لنا فى لحظات وجيزة ،

غير أن ذلك لا يعنى أنه شيء غير ثابت أو خيال محض . إن قدرة الإنسان على الانتباه لا تظل على نفس الحال بالضرورة ، فنحن نستعرض الأشياء شيئاً شيئاً ، وعمليات التركيب وإدراك الواقع عمليات تحدث من وقت إلى آخر فقط . هذا هو النظام الذى يحدد جميع ما نملك ؛ فنحن لا نعى طول الوقت أنفسنا وبيئتنا الطبيعية وما يسيطر علينا من عواطف وأعمق معتقداتنا . فلا عجب إذن إذا لم نكن نعى طول الوقت ذلك الكمال الذى هو المثل الأعلى الضمنى لكل ما نرغب فيه ونفضله على غيره . إننا لا نرى هذا الكمال إلا فى أجزائه فحسب حينما توجه العاطفة أو الإدراك انتباهنا إلى عناصره المختلفة الواحد تلو الآخر . وإن بعضنا لا يحاول أبداً أن يدركه فى كليته ، ومع ذلك فإن حياتنا بأسرها ليست إلا عبادة لهذا الإله المجهول ، وكل صلاة حارة لنا إنما نرفعها إلى إحدى صوره .

حقاً إن المثل الأعلى للكمال يتفاوت ، ولكنه لا يتفاوت إلا بتفاوت طبيعتنا لأن هذه الطبيعة تقابله وليست إلا تحقيقاً له أو تحويلاً له من عالم القوة إلى عالم الفعل . ولعله لا توجد فكرة أكثر سخافة من الفكرة التى أشاعها شوبنهاور من جديد وهى أن الخير يفقد قيمته متى ما بلغناه . حقاً إن عدم ثبات اهتمامنا ، وحاجة أعضائنا إلى الراحة والاستجمام يفرضان على أذهاننا ضرورة التجوال بين الأشياء ، إلا أننا لا نترك الشيء الجميل إلا كما نترك الحقيقة أو الصديق ، نتركه لكى نعود إليه دائماً وقد ردنا

تقديرًا له . كما أننا لا نفقد جميع مزايا ما حققناه فى الفترات بين اللحظات التى ندرک فيها تمامًا مقدار كسبنا . فإن ذهنتا يكتسب طابعًا ساميًا دائمًا ، وفى معيشتنا يملؤنا إحساس عام بالغنى والثبات والطمأنينة ، وربما كان هذا الإحساس هو لب السعادة . وليس تأثير المعرفة والمحبة والدين والجمال فى حياة المرء تأثيرًا مستقطعًا لأنه لا يحس به طول الوقت ، وإنما هو ينتشر فى أنحاء العقل كما ينتشر العطر حتى فى اللحظات التى لا يعى به المرء فيها . إنه إذن تأثير فعال معظم الوقت وله قيمة دائمًا .

حقًا إن من الأشياء الأخرى التى نرغبها ما يعقب بلوغه وتحقيقه نوع من القلق وعدم الرضا . ولكن الحمقى وحدهم هم الذين ينشدون هذه الأشياء . وكون هذه الأشياء لها القدرة على اجتذابنا على الإطلاق دليل على سوء تنظيم طبيعتنا الذى يدفعنا فى اتجاهات متضادة والذى يجعلنا نتصارع مع أنفسنا . ولو قدر لتفكيرنا أن يصل إلى النظام وعدم الانحراف ، ولو قدر لشخصيتنا أن تتحدد على نحو ثابت ، ولو استطعنا أن نعرف أنفسنا ، لعرفنا أيضًا أين توجد سعادتنا التى تنتمى حقيقة إلى طبيعتنا . ولا يعنى القول بأن كل خير تنعدم قيمته بمجرد بلوغه إلا واحدًا من اثنين : إما أنه قول تهكمى سطحى ينكر عن قصد الوضع السوى لكى يزيد من غرابة الوضع الشاذ ، وإما أنه اعتراف سخيف بأننا لم نتعلم كيف نميز الخير الحقيقى من مجرد العواطف والأهواء

والنزوات ، مثلنا فى ذلك مثل الأبله الذى لا يتعلم أبداً كيف يميز بين الحقيقة وبين الأوهام التى يخلقها ذهنه . ولكن وجود الخير الحقيقى من حقائق التجربة الخلقية . « إن الشئ الجميل مصدر فرح أبدي » كما يقول الشاعر ، وإن الفكر الواضح والإيمان العميق الذى ينتج عن التجربة الصادقة ، من ممتلكات الإنسان الخالدة . وليس هذا مجرد حقيقة نقلها على نحو تعسفى عن أولئك الذين جربوها ، وإنما هو ضرورة سيكولوجية . فمادما نحفظ بنفس الحواس لابد لنا أن نحصل على نفس الانطباعات من نفس الأشياء الخيرة . ومادما نحفظ بنفس القوة الخيالية فلا بد لنا أن نجرب نفس المتعة فى نشاطها . ولاشك أن التقدم فى السن من شأنه أن يدخل بعض التعديلات فى هذه التفاصيل ، كما أنه لا يوجد شخصان لهما نفس الحساسية تماماً . غير أن الضعف الذى يدب بمرور الوقت فى طاقتنا الشخصية لا يتلف القيمة الطبيعية للأشياء طالما كانت نفس الإرادة تتجسد فى عقول أخرى وطالما كانت الطبيعة البشرية لا تزال على ظهر الأرض . فليست الشمس أقل حقيقة الآن لأننا جميعاً يتحتم علينا الواحد تلو الآخر أن نغمض أعيننا عنها فى النهاية . ومع ذلك فالشمس بالنسبة إلينا لا توجد إلا لكوننا ندركها . وشروط وجود المثل الأعلى لا تختلف عن هذه ، بينما من ميزاته التى لا تتمتع بها الشمس أننا لسنا واثقين من أنه محتوم علينا أن نتوقف عن رؤيته فى يوم من الأيام .

وهكذا فطبيعتنا تقوم على أساس مشترك عريض ، بفضلها نعيش فى عالم مشترك ولنا فن ودين مشترك . وكون المثل الأعلى ثابتاً فى هذه الحدود أمر حتمى ، لا يقلل حتمية عن كونه يتغير فيما وراءها . وطالما نحن نعيش وندرك أنفسنا أفراداً كأشخاص أو كجنس بشرى فلا بد لنا أن ندرك أيضاً مثلنا الأعلى الكامن ، ذلك المثل الأعلى الذى يعنى تحقيقه الكمال لنا ، والذى لن يمكن هدمه إلا بهدم الجنس البشرى وبانقراضه . إن الكمال المطلق الذى لا يعتمد على الطبيعة البشرية وتنوعها قد يهم الفيلسوف الميتافيزيقى ، ولكن الفنان والرجل العادى يقنعان بذلك الكمال الذى لا يمكن فصله عن وعى الإنسانية ، لأن هذا الكمال هو فى الوقت نفسه الوقت الرؤية الطبيعية للخيال والهدف العقلى للإرادة .

## ٦٧- الخاتمة

لقد درسنا الآن الإحساس بالجمال فى مظاهره التى تبدو لنا أساسية ، وفى بعض صوره المعقدة البارزة . وحينما نستعرض ميداناً واسعاً كهذا نحتاج إلى بعض التصنيف والقسم . لذلك اخترنا التصنيف المألوف : فقسمنا الموضوع إلى المادة والشكل والتعبير باعتبار أنه من المحتمل أن هذا التصنيف لن يوقعنا فى قسمة صناعية أكثر مما ينبغى . إلا أنه لا بد من القسمة الصناعية دائماً فى أى وصف استدلالى لمعطيات الشعور . وربما تحاول السيكلوجيا أن تقوم بما هو مستحيل حينما تحاول



تشريح الحياة ، فالعقل سيال ، ولا توجد حدود حقيقية لتلك الأضواء والظلال التي تومض فيه ، كما أنها عابرة لا يوجد لديها إمكان الثبات . بينما نحن دائماً نصنف الحقائق العقلية متبعين نفس المنهج الذى نستخدمه فى تصنيف الظروف الطبيعية أو ما يعبر عنها . ونحن نميز الحواس ذاتها بسهولة تمييز الأعضاء الخارجية التى تتعلق بها . أما الأفكار فلا يمكننا التعرف عليها إلا عن طريق التعرف على موضوعاتها . كذلك نتعرف على المشاعر من خلال التعبير الخارجى عنها ، وحينما نحاول أن نتذكر انفعالاً من الانفعالات فإننا نفعل ذلك عن طريق تذكرنا الظروف التى طرأ فيها هذا الانفعال .

وهكذا فتحن لم نفعل أكثر من اتباع المنهج المقبول فى علم النفس ، المنهج الوحيد الذى يمكن تحليل العقل وفقه ، حينما ميزنا فى تحليلنا للإحساس بالجمال بين تذوقه المادة الحسية وتذوق الشكل المجرد وتذوق القيم المترابطة . وقد ميزنا بين عناصر الشيء ودرسنا الإحساس كما لو كان يتألف من أجزاء تقابل هذه العناصر . ويمكن تقسيم عالمى الطبيعة والخيال اللذين هما موضوع الإحساس الجمالى إلى أجزاء فى المكان والزمان . لذلك نستطيع أن نميز مادة الأشياء عن مختلف الأشكال التى تستطيع أن تظهر فيها . ونستطيع أن نميز بين الانطباعات التى يولدها الموضوع فى بادئ الأمر وتلك التى يولدها بعد ذلك ، كما أننا نستطيع أن نستثبت وجود انطباع مع انطباع آخر أو مع ذكرى انطباعات أخرى .

ولكن الإحساس الجمالى ذاته لا ينقسم إلى أجزاء ، وإن هذا الوصف الفسيولوجى لعلل هذا الإحساس ليس بأى حال وصفاً لطبيعته الحقيقية .

إن الجمال كما نحس به شىء لا يمكن وصفه ، فلا يمكننا أن نقول ما هو أو ما معناه . ولكننا نستطيع أن نبين عندما نلجأ إلى الذاكرة والتجربة كيف يختلف هذا الإحساس باختلاف بعض الأشياء فى الظروف الموضوعية ، كيف يختلف مثلاً طبقاً لمدى تكرار حدوث الشكل المعين أو طبقاً لما كان لهذا الشكل من ارتباطات فى الماضى . وهذا يسوغ لنا وصف الإحساس بالجمال باعتباره يتكون مما تولده هذه الارتباطات من آثار مختلفة . ولكن الإحساس ذاته لا يعرف شيئاً عن هذا التكوين أو هذه الآثار المختلفة التى توجد الارتباطات . فالإحساس عبارة عن حركة عاطفية فى الروح ، وشعور بالفرح والطمأنينة ، إنه هزة انفعالية وحلم ولذة خالصة . وهو يتشتر فى الموضوع دون أن يعرف السبب فى ذلك ، ولا هو بحاجة إلى السؤال عن هذا السبب . وهو يسوغ ذاته كما يسوغ الرؤية التى يلونها . ولا معنى للبحث عن سبب هذا الإحساس بهذا المعنى الباطنى ؛ إذ يوجد الجمال لنفس السبب الذى يوجد من أجله الشىء الجميل أو العالم الذى يوجد فيه هذا الشىء أو نحن الذين ننظر إليهما معاً . فالجمال تجربة من التجارب ولا نستطيع أن نقول عنه أكثر من ذلك . حقاً إننا إن نظرنا إلى الأشياء من الناحية الغائية وكما تبرر ذاتها نهائياً بالنسبة إلى عواطفنا فإن الجمال يصبح أقل الأشياء حاجة إلى

التفسير ؛ إذ أن المادة والمكان والزمان ومبادئ العقل والتطور كلها فى نهاية الأمر معطيات أولية لا يمكن تفسيرها . حقاً إننا نستطيع أن نصف ما هو واقع إلا أن ما هو واقع كان فى الإمكان أن يصبح غير ذلك ، وهكذا يظل سر وجود الواقع معتمداً محيراً كما كان من قبل

غير أننا نحن - أى العقول التى تسأل جميع الأسئلة وتحكم على صحة جميع الإجابات - نحن ذاتنا غير مستقلين عن العالم الذى نعيش فيه . لقد نبثنا منه ، وعلاقتنا به تحدد جميع غرائزنا وكل ما يرضينا . وهذا التساؤل النهائى ، وهذا الإحساس بالسر من الحاجات الإنسانية التى لا تشبع ، وإن كانت للطبيعة وسائلها الخاصة فى وقف هذه الحاجات . فإننا لا نسأل عن الأسباب إلا حينما تأخذنا الدهشة ، ولو لم تكن لدينا توقعات لما عرفنا الدهشة . ويخلق فينا هذه التوقعات الاتجاه التلقائى الذى يأخذه الفكر والذى يحدده تركيب مخنا وآثار تجربتنا . ولو قدر لأفكارنا التلقائية أن تسيير فى اتجاه ينسجم مع تيار الطبيعة ، وبالتالي لو تحققت توقعاتنا دائماً لاختفى الإحساس بالسر ، ولأصبحنا عاجزين عن أن نسأل لماذا وجد العالم ولماذا كانت طبيعته هكذا ، فنحن لا نميل إلى أن نتساءل لماذا تجرى الأمور فى الطريق السوى بينما لا نود أبداً أن نبطل تساؤلنا عن سبب اعوجاجها .

وإن الرضا العقلى الذى يرجع إلى الانسجام بين طبيعتنا وتجربتنا يتحقق بالفعل على نحو جزئى ، وتحققه هو الإحساس بالجمال . فحينما

تشيع حواسنا وخيالنا ، وحينما يشكل العالم نفسه أو يصوغ العقل بحيث يصبح التطابق بينهما كاملاً ، حيثئذ يصبح الإدراك هو اللذة ولا يحتاج الوجود إلى مسوغ . فحيثئذ تختفى الثنائية التي هي شرط الصراع ، ولا يختلف المعيار الباطنى عن الحقيقة الخارجية التي تقارن به . وإن هذا النوع من الوحدة هو الهدف الذى ينزع إليه الفكر والعاطفة مثلما ينزع إليه إحساسنا بالجمال . غير أن أمثلة النجاح فى ميدانى الفكر والعاطفة تقل بكثير عنها فى ميدان الجمال . ففى حرارة الحب أو توهج الفكر قد تأتى لحظات تضاهى لحظات الجمال كمالاً ، ولكن هذه اللحظات سريعة التغير ، ويظل العقل والقلب غير قانعين تماماً . أما العين فإنها تجرد فى الطبيعة ، وفى بعض التاج الفنى الرائع رضا وسعادة أكثر ثباتاً وغزارة . فالعين سريعة ويبدو أنها أكثر قابلية من العقل والقلب للتعلم من الحياة ، وأكثر قدرة منهما على التكيف السريع مع الحقيقة . وهكذا يبدو أن الجمال هو أوضح مظهر للكمال ، وأبرز دليل على إمكانه . وإذا كان الكمال كما ينبغي هو المسوغ النهائى للوجود فإننا نستطيع إذن أن نفهم لماذا يتصف الجمال بالسمو الخلقى . إن الجمال هو الضمان على إمكان الاتساق والألفة بين الروح والطبيعة ، ومن ثم فهو أساس الإيمان بسيادة الخير .

# دليل

( يدل الرقم المتبوع بحرف م على الصفحة التي ورد فيها كلام الكاتب المذكور اسمه ) :

- الآلهة : تطور شخصياتهم المثالية ٢٠٦ وما يليها .
- الأبيقورية : النظرية الأبيقورية فى الجمال ٣٧ .
- الجلال الأبيقورى ٢٥٧ و ٢٥٩
- الاجتماعية : الاهتمامات الاجتماعية وتأثيرها الجمالى ٨٧ وما يليها .
- الأخلاق : القيم الأخلاقية والجمالية ٤٩ وما يليها .
- الأخلاق والمنفعة تغاران من الفن ٢٣٤ و ٢٣٥ .
- سلطان الأخلاق على الجمال ٢٣٥ وما يليها .
- أخيل (Achilles) ٢٠٠ و ٢٠٧
- الإدراك : النظرية السيكلولوجية للإدراك ٧٠ وما يليها .

- الإدراك الباطنى ١٢١ .
- أرسطو ١٧٨ و ١٩٥ و ١٩٦ .
- الاستيتيقا (Aesthetics) ( أو علم الجمال ) : استعمال كلمة استيتيقا ٤٢ .
- الاستبعاد (Exclusiveness) : دليل على النشاط الجمالى ٦٩ .
- الأسماء : تصور لغة تخلو من الأسماء ١٩٢ .
- الأعمدة : بهو الأعمدة ١٣٣ .
- الأفلاطونيون ١٨١ .
- الحدس الأفلاطونى وطبيعته وقيمته ٣٦ وما يليها .
- المعانى الأفلاطونية لا تستطيع أن تفسر الأنماط ١٤٠ و ١٤١ ( انظر الأنماط ) .
- الاقتصاد (Economy) ، والصلاحية (Fitness) ٢٣١ وما يليها .
- الإلهام ٢٦٧ و ٣٦٨ .
- أمرسون (Emerson) ١٦٦ .
- الأنماط (Types) : انظر النمط .
- أوغسطين ( القديس ) ٢٦٧ م .

- أوفيد (Ovid) ١٧١ .
- البصر : أولية البصر فى الإدراك ٩٨ و ٩٩ .
- البيت : تصوره الاجتماعى وتصوره الجمالى ٨٩ .
- بيتهوفن ٦٩ .
- بيرك (Burke) ١٤٨ ( الحاشية ) .
- بيرون (Byron) ١٥٩ م .
- التأثرية أو المذهب التأثرى فى التصوير (Impressionism) ١٥٨ .
- التأثير والتمييز بينه وبين التعبير ١٠٩ و ١١٠ .
- تاسيتوس (Tacitus) ١٩٥ و ٢٦٧ .
- التاريخ موضوع يدخل فيه الخيال ١٦٤ .
- التجربة أسمى من النظرية فى الجمال ٣٨ .
- تحرر الذات ٢٥٠ وما يليها .
- الترابط : عملية الترابط ٢١٦ وما يليها .
- التراجيديا ( المأساة ) : يخفف منها جمال الشكل والتعبير عن الخير ٢٤٥ .
- يخفف منها تنوع الشر ٢٤٦ ، مزجها بالكوميديا ٢٤١ و ٢٤٥ .

- الترجيديا توجد فى معالجة الموضوع لا فى الموضوع ذاته ٢٤١ .
- الترجمة قاصرة بالضرورة ١٨٩ .
- التصوف فى الجمال ١٥١ .
- التطور قد يؤدى إلى القضاء على الخيال ٥٢ .
- التعبير : تعريف التعبير ٢١١ وما يليها ، التعبير عن مشاعر الغير ٢٢١ و ٢٢٢ ، التعبير عن القيم العملية ٢٢٦ وما يليها ، معنى القدرة التعبيرية ٢١٦ ، انظر أيضاً « الحدود » .
- التفضيل أمر لا عقلى فى نهاية الأمر ٤٥ و ٤٦ .
- النفس له علاقة بالإحساس بالجمال ٨٢ .
- الثمن من حيث هو عامل من عوامل التأثير ٢٢٩ .
- جريتشين (Gretchen) ٢٠٠ .
- الجلال (Sublime) لا يعتمد على التعبير عن الشر ٢٥٥ ، طبيعة الجلال ٢٥١ وما يليها .
- الجمال (Beauty) : الإحساس بالجمال وأهميته ٢٩ ، علاقته بالتنفس ٨٢ .
- التفكير فى ميدان الجمال والأسباب التى أدت إلى إهماله ٣٠ .



- نظريات علم الجمال وفائدتها ٣٤ .
- سمو التجربة على النظرية فى الجمال ٣٨ و ٣٩ .
- بعض التعريفات اللفظية للجمال ٤١ .
- الجمال هو قيمة ٤٤ .
- تعريف الجمال ٧٤ .
- الوظائف الذهنية جميعها قد تساعد الإحساس بالجمال ٧٩ .
- القيمة الجوهرية للجمال الحسى ١٠١ وما يليها .
- الجمال كإحساس لا يمكن وصفه ٢٨٢ و ٢٨٣ .
- الجمال يسوغ الأشياء ٢٨٢ .
- انظر أيضاً « الاستيقا » .
- الجنس : علاقته بالحياة الجمالية ٨٢ وما يليها .
- جوته (Goethe) ٣٦م و ١٩١ و ٢٠٠ .
- الحب : تأثير عاطفة الحب ٨٢ وما يليها .
- الحجم : علاقته بالجمال ١٤٧ .
- الحدود : تعريف الحدين الأول والثانى فى التعبير ٢١٤ .
- تأثير الحد الأول فى التعبير اللذيد عن الشر ٢٤٢ .

- الحسن : الجمال الحسى له قيمة جوهرية ١٠٢ وما يليها .
- الحطة : ليست مصدر اللذة التى نجدها فى الشئ الكوميدى ٢٦٢ وما يليها .
- الحقيقة : انظر « الصدق » .
- الحواس الدنيا : ٩٠ وما يليها .
- الخرائط ٢٢٧ .
- الخطوط المستقيمة ١١٤ .
- الخيال : له وظيفة إبداعية كلية ٢١٠ .
- الخيال والحواس يتناوبان النشاط ٨١ .
- الدائرة : صفتها الجمالية ١١٣ و ١١٤ .
- دون كيشوت ٢٠٠ و ٢٧٠ .
- ديكارت : ٤٣ و ٢٠٤ .
- الديمقراطية : العناصر الجمالية فى الديمقراطية ١٣٣ .
- الذات : ليست موضوع اهتمام أولى ٦٤ .
- ذاتية القيم الجمالية ٥٤ و ٥٥ .
- الرومانطيقية ١٥٩ و ١٧٢ .

- الرواقية : الجلال الرواقى ٢٥٧ .
- الرمزيون ١٦٦ و ١٦٧ .
- الزخرف والشكل ١٨٤ .
- زخرفة الكتابة العربية ٢١٤ .
- زانوفان (Xenophon) ١٤٧م ، ندوته ١٧٩ .
- ستندال (Stendhal) ٨٦ .
- السعادة والاهتمام الجمالى ٨٨ .
- سقراط : نظريته النفعية فى الجمال ١٧٩ و ١٨٠ .
- السماء : قدرتها التعبيرية ٣٥ .
- القنطور (Centaur) ٢٧٢ .
- سيبارس (Sybaris) ٢٣٣ .
- السيمترية ١١٥ ، إحدى مبادئ الأفراد ١١٨ ، حدود تطبيقها ١١٩ .
- شارل الخامس : قصره فى الحمراء ٦٩ .
- الشخصية ١٩٦ وما يليها ، الشخصية باعتبارها شكلا جمالياً ١٩٧ ،  
الشخصيات المثالية ٢٠١ ، الشخصيات الدينية : ما فيها من صدق  
وما فيها من خيال ٢٠٦ وما يليها .

- الشر : تصبح الحياة جمالية إذا خلت من الشر ٥٠ و ٥١ .
- الشر فى الحد الثانى من التعبير ٢٣٨ ومايليهما ، الاستعمال التقليدى لكلمة الشر ٢٤٠ ، الشر كمناسبة لظهور الجلال ٢٥٢ ومايليهما ، الشر لا يدخل فى الجمال ٢٧٤ .
- شكبير : ٧٦م و ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٤٦م و ٢٥٣م و ٢٦٧م .
- الشكل : الشكل فى ذاته قد يكون مصدرًا للجمال ١٠٧ ومايليهما .
- الوحدة فى الكثرة ١١٩ وما يليها ، الشكل والزخرف ١٨٤ ، الأشكال الهندسية ١١٣ ومايليهما ، انظر أيضًا « الدائرة والخطوط المستقيمة » .
- الشكل فى تراكيب اللغة ١٩٢ ومايليهما ، الشكل فى الشعر ، الشكل الثنائى ١٣٢ ، السونيتة ١٩٤ ، الشكل المحدد والشكل غير المحدد : معنى هذين الاصطلاحين ١٦١ ( حاشية ) ، النظام غير المحدد ١٥٤ .
- شوبنهاور (Schopenhauer) ٩٥ ، نقده ٦٣ ( حاشية ) ، رأيه فى الموسيقى ٩٥ .
- شيلى (Shelley) ٣٩م ، ٢٦٠م ، ٢٦٨م .
- الصحة الجيدة أحد شروط الحياة الجمالية ٨٠ .

- الصدق ( أو الحقيقة ) : أساس قيمة الصدق ٤٧ وما يليها ، مزج التعبير الصادق أو التعبير عن الحقيقة بالتعبير عن الشر ٢٤٨ وما يليها .
- الصلاحية والاقتصاد ٢٣١ وما يليها .
- الصوت ٩٤ وما يليها .
- الضمير : طبيعته العامة ٥٩ .
- الطبيعة : تنظيم الطبيعة هو أصل الأشكال الإدراكية ١٧٤ .
- حب الطبيعة عند القدامى ١٦٠ .
- الطبيعة أو المذهب الطبيعي : أساس قيمته ٤٣ .
- الطرافة (Picturesque) والتمييز بينها وبين السيمترية ١١٦ انظر « السيمترية » .
- عطيل ٢٥٣ .
- العقل : المذهب العقلي ومصدر قيمته ٤٦ .
- العلم : الموقف العلمى من النقد والفرق بينه وبين الموقف الجمالى ٤٧ و ٤٨ .
- العمارة : تحددها العادة والمنفعة ١٨٣ ، فن العمارة البيزنطى ١٣٢ ، آثار فن العمارة الغوطى ١٨٧ .

- العمل واللعب ٥١ وما يليها .
- الغريب المضحك انظر « المسخ » (Grotesque) .
- فخنر (Fechner) ١٢١ .
- فسيولوجية إدراك الشكل ١١٠ .
- فصل اللذة الجمالية : ليس هو خلوها من المصلحة ٦٢ .
- الكلية ليست فصل اللذة الجمالية ٦٥ .
- فصل اللذة الجمالية هو تحويلها الذات إلى موضوع ٧٠ .
- الفطنة (Wit) ٢٦٥ وما يليها .
- الفكاهة (Humour) ٢٦٨ وما يليها .
- فينوس ميلو (Venus of Milo) ١٨٦ ( الحاشية ) .
- القافية ١٩٤ .
- القبح لا يسبب الألم ٥١ .
- قصر الإسكوريال (Escorial) ٢٢٨ .
- القيمة : القيم الأخلاقية والقيم الجمالية ٤٩ .
- جميع القيم جمالية بمعنى من المعانى ٥٤ .
- تحويل القيم الحسية والعملية والسلبية إلى قيم جمالية ٢٢٠ .

- القيم الجمالية فى الحد الثانى من التعبير ٢٢٣ .
- كالديرون (Calderon) ١٩٦ .
- كبلنج (Kipling) ٩٣ م .
- الكثرة فى التجانس ١٢١ وما يليها ، عيوبها ١٣٠ .
- الكلاسيكية عند الفرنسيين والإنجليز ١٣٣ .
- الكمال : وهم الكمال اللامتناهى ١٦٨ وما يليها .
- إمكان الكمال المتناهى ٢٣٠ وما يليها .
- كانط (Kant) ١٣٠ .
- الكوميدي ٢٦١ وما يليها ، عدم التناسب ليس هو مصدر اللذة فى  
الشيء الكوميدي ٢٦٢ .
- كيتس (Keats) ٩٢ م ، ١٢٩ م و ٢٠٢ م و ٢٧٩ م .
- اللامتناهى : استحالة فكرة الجمال اللامتناهى ١٧١ .
- الله : تصور الله فى التقاليد وفى الميتافيزيقا ٢٠٧ و ٢٠٨ .
- اللذة : يعارضها الإحساس الخلقى ٥٠ .
- اللذات الحسية والتمييز بينها وبين اللذات الجمالية ٦١ .
- انظر أيضاً « فصل اللذة الجمالية » .

- اللغة : الألفاظ ١٨٩ .
- اللغات الحديثة أدنى من اللغات القديمة ١٩٥ .
- لوكريشوس (Lucretius) ١٩٤م ، رأيه في الجلال ٢٥٢ .
- اللون ٩٧ وما يليها ، وجه الشبه بينه وبين الإحساسات الأخرى . ٩٨ .
- إمكان وجود فن مجرد للألوان ٩٨ .
- لويل (J.R. Lowell) ١٧٠ .
- لير ( الملك ) (King Lear) مسرحية لشكسبير ٢٤٦ .
- المساة : انظر « التراجيديا » .
- المبادئ : اكتسابها صفة جمالية ٥٧ وما يليها .
- المثل الأعلى هو المتوسط المعدل ١٤٥ وما يليها ، كما يظهر في الطبيعة البشرية ٢٧٧ ، ثبات المثل الأعلى ٢٧٨ وما يليها .
- مريم العذراء ٢٠٨ و ٢٠٩ .
- المسخ (Grotesque) ٢٧١ وما يليها .
- المسيح والتصورات المختلفة لطبيعته ٢٠٨ .
- المكان : قيمته الميتافيزيقية ٩١ ( حاشية ) .



- الملائكة ٨١ .
- الملكية : القيمة الخيالية للنظام الملكى ٦٠ .
- المنظر الطبيعي ١٥٦ ، المنظر الطبيعي الذى يوجد فيه أشخاص  
١٥٩ .
- المنفعة : هى مبدأ التنظيم فى الطبيعة ١٧٧ وما يليها ، هى مبدأ  
التنظيم فى الفن ١٨٢ ، علاقة المنفعة بالجمال ١٧٩ .
- موسيه ( ألفريد دى ) ( Alfred de Musset ) ١٩١ م ، ٢٤٣ م .
- موليير ( Moliere ) ٤٧ م و ١٩٦ .
- النجوم : تحليل تأثيرها ١٢٧ وما يليها .
- النحت ( فن ) : ١٧٤ ، تطوره ١٧٥ .
- النحو : وجه الشبه بينه وبين الميتافيزيقا ١٩٠ .
- النظرية : إحدى طرق الإدراك الباطنى ١٦٢ وما يليها .
- النقاء ( Purity ) كمبدأ جمالى ٩٧ .
- النقد : استعمال كلمة النقد ٤٢ .
- النمط : مصدر الأتماط ١٤٠ ، قيمتها وقيمة الأمثلة الفردية ١٣٦ .
- نيويورك : كيفية تنظيم شوارعها ١١٣ .

هاملت ٢٤١ .

هوراس (Horace) ١٩٣ و ١٩٤ .

هوميروس (Homer) : بميزاته الجمالية ٢٢٣ و ٢٢٤ .

الصفات التي يستخدمها ١٩٩ .

وحدة الوجود ( مذهب ) (Pantheism) ما يشمله من متناقضات ٢٥٨ .

وردزورث (Wordsworth) : ١٢٩ م .

ويتمان (Walt Whitman) ١٣٥ .

L.S.B.N  $\frac{٢٠٠١ / ١٠٨٨٨}{977-01-7274-X}$





بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لي طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعاً ملموساً حياً يتأثر ويؤثر. وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر في كل دول العالم النامي وأسعدني انتشار التجربة ومحاولة تعميمها في دول أخرى. كما أسعدني كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهمها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

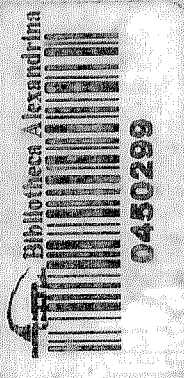
ونفذ أصبح هذا المشروع كياناً ثقافياً له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتي الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أنني أعتب مهرجان الشراء للجميع ومكتبة الأسرة هي الإبن البكر. ونجاح هذا المشروع كان سبباً قوياً لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدراً أساسياً وخلالاً للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالي. تضيف دائماً من جواهر الإبداع الفكري والعلمي والأدبي وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زاداً ثقافياً لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

السعر ٣ جنيه



مكتبة الأسرة ٢٠٠١  
مهرجان القراءة للجميع